

التشبه في الإسلام

تأليف

حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي

تعريب وتحقيق

محمد نوشاد النوري القاسمي

قام بنشره

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند



التشبه في الإسلام

حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي

التشبه في الإسلام

التشبه في الإسلام

تأليف: الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رحمه الله

تعريب وتحقيق: محمد نوشاد النوري القاسمي

الطبعة الأولى: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

الرقم الدولي: ٠-٨-١٤٤٢٩٢-٨١-٩٧٨

مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند

Hujjat al-Islām Academy
Aljamia al-Islamia Darululoom Waqf Deoband
Eidgah road, P.O 247554, Deoband,
Distt: Saharanpur, U.P. INDIA
Tel: +91-1336-222352, Mob: +91-9897076726
Email: hujjatulislamacademy2013@gmail.com
hujjatulislamacademy@dud.edu.in
Website: http://www.dud.edu.in



التشبه في الإسلام

مبدأ وجوب التشبه بالصالحين وحرمة التشبه بالكفار والمشركين في ضوء رؤية كلية إسلامية حضارية، وبأسلوب علمي رصين، يناشد العقل والروح معًا.

تأليف

حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي رحمه الله

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سابقاً

تعريب وتحقيق

محمد نوشاد النوري القاسمي

أستاذ بالجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند- الهند

قام بنشره

مجمع حجة الإسلام

الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند الهند

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم

إن التشبه بالكرام فلاح

(السهروردي المتوفى ١١٩١هـ)

كلمة الإعجاب والتقدير

فضيلة الشيخ محمد سالم القاسمي

الرئيس العام للجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند

منذ ثلاثة أعوام، أُسِّس في رحاب الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند مجمع حجة الإسلام، ناهضًا بأعباء جسيمة، أبرزها نشر المآثر العلمية لعلماء ديوبند باللغات العالمية، وعلى رأسها اللغة العربية العزيزة، وانطلق المجمع من أول يومه يقدم إنجـازًا تلو إنجازٍ، ويثبت صدق كفاءته للقيام بهذه الأعباء الثقيلة، وكل ذلك راجع إلى فضل الله سبحانه، ثم إلى الإخوة العاملين في المجمع بكل تفانٍ وإخلاص.

وها بين يديَّ الآن ثمرة جديدة من ثمار المجمع، أثلجت صدري وأقرت عيني، وهي تعريب كتاب "التشبه في الإسلام" لصاحبه الكاتب المعروف العالم الجليل حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند.

إن كتاب "التشبة في الإسلام" كتاب فريد في موضوعه، وقد شهد العلماء البارزون بسعة جوانبه وقوة براهينه وحسن ترتيبه، فهو يستوعب الموضوع أقصى ما يكون من استيعاب، ويدلي برأي إسلامي ناضج مدعم بالحجج، ويفند ما أثير حوله من شكوك وشبهات.

ولا يسعني إذًا إلا أن أشكر لله سبحانه على حسن التوفيق، وأهنئ مدير المجمع حفيدي الدكتور محمد شكيب القاسمي وصاحب الترجمة الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي، وأدعو الله سبحانه أن يتقبل من المجمع مجهوداته ويوفقه لتقديم المزيد الجديد من العطاء العلمي الأدبي. آمين.

محمد سالم القاسمي

الرئيس العام للجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند

تقديم

فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم وقف ديوبند

كان حكيم الإسلام الشيخ محمد طيب القاسمي بن الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي بن الإمام محمد قاسم النانوتوي يملك شخصية جامعة موسوعية، فكان في وقت واحد عالما بارزا منقطع القرين، وشارحا عظيما للفكر الإسلامي الأصيل المعتدل، وخطيبا فذا معدوم المثيل في عصره، وكاتبا رشيقا سهل الأسلوب، جاذب الطراز، وداعية حكيما ومصلحا مخلصا، ومدرسا مُقْنِعًا، ومناظرا مُفْحِما، واجتماعيا طيب المعاشرة، حلو السلوك، وإداريا خبيرا مطلعا على أسرار إدارة الرجال، وإدارة الجامعات والمؤسسات؛ حيث أدار الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند لمدة تفوق نصف قرن، وأسس وترأَّس المؤسسة الإسلامية العظيمة: هيئة الأحوال الشخصية لعموم الهند.

اتفق العلماء الكبار وأعلام الأمة في عصر ه على إمامته في الخطابة و الدعوة والإصلاح والإدارة، كان الشيخ بحكم انشغاله بالأعباء الكثيرة لم يتفرغ للكتابة والتاليف؛ لكنه كان يصطحب القرطاس والقلم في كل مكان، ما إن وجد فرصة مناسبة إلا وأقبل على الكتابة، وفي هذه الحياة المليئة بالأشغال أَلَّف ما يزيد على مائة كتاب.

فقد بدأ الشيخ الكتابة منذ عهد الطلب والتحصيل، ولم تنقطع أو تضعف صلته بالقلم في يوم من أيام حياته، فطرق المواضيع العلمية والدينية والتاريخية

والأدبية والاجتماعية والحضارية. ومن الميزة الفريدة لكتابات الشيخ أن جل المواضيع التي طرقها كانت جافة معقدة، ولكن جعلها الشيخ مواضيع شيقة ماتعة برشاقة أسلوبه وسهولة أدائه وعمق علمه ولطافة طبعه.

إنَّ شرح الفكر الإسلامي الوسطي الأصيل الذي مثَّله علماء ديوبند في الديار الهندية ليس أمرًا هيِّنا ليِّنًا، وليس مهمة كل من هبَّ ودبَّ؛ وإنما هو سلاح ذو حدين، فالوسطية عملية صعبة دقيقة، تجمع بين العلم والعقل، والأصالة والمعاصرة، والدين والدنيا، وصلابة الفكر والتزام العمل، ودماثة الخلق، والاطلاع على الفكر الإسلامي وما يقتضيه من أركان، وما يستلزمه من شروط، والدراية بما يعارضه من أفكار هدامة ومزاياها ورجالها ومراكزها ومؤسساتها، والفوارق بين فكر وفكر، وكان الشيخ حكيم الإسلام أقدر العلماء في عصره على شرح الفكر الإسلامي الصحيح؛ حتى أصبح هو وكتبه معيارا للمعرفة بالفكر الأصيل من الدخيل، والصحيح من السقيم؛ فكان عالما حجة في هذا الباب.

هذا الكتاب الذي بين يدي القراء يُعد من أهم كتب الشيخ، التي تشرح الفكر الإسلامي، وتوضح أهم المبادئ الإسلامية، وهو "التشبه بالكفار"؛ فالتشبه بالكفار في العقائد والأعمال والسلوك هو ما اصطلح عليه عامة المسلمين، عن جهل بمضاره ومفاسده، وهو السبب الرئيس وراء ما تواجهه الأمة الإسلامية في كل مكان؛ فإنه من جانب أزال الكراهية للأعمال الكفرية من القلوب المسلمة، ومن جانب آخر حبَّب الحضارات الكافرة الضالة إلى المؤمنين، وأصبح الخيط الإسلامي المميز ضعيفا جدًا، والعجب أنه ما إن انتشرت هذه البدعة في الأمة المسلمة إلا

ووجدت لها أنصارًا وأعوانًا، حيث انقطعوا إلى تضعيف هذا المبدأ الإسلامي ودلائله، وكان الشيخ مطلعا على ما أثير حول الموضوع من شبهات وشكوك، ففندها بقوة، وأظهر ضعفها ووهنها ببرهان. فأصبح الكتاب حاجة كل معلم ومصلح وداعية إلى الله ، يسعى للعودة بالأمة إلى الأسوة الحسنة، وربطها برعيلها الإسلامي الأول.

ويسعدني أن هذا الكتاب زيادة حسنة في إنجازات مجمع حجة الإسلام، وحصاد علمي قيم في هذه السنة، فأهنئ مدير المجمع عزيزي الدكتور محمد شكيب القاسمي على حسن مواصلة المجمع المسير العلمي، وإسهامه البارز في نشر علوم علماء ديوبند.

وأرى هنا لزاما علي أن أوهنئ الأستاذ الشاب الفاضل محمد نوشاد النوري القاسمي، على إنجازه لهذه العملية الضخمة، التي تتطلب همة وثابة، وعزيمة قوية، واجتهادا متواصلا، والكتاب دليل على بروزه في الأدب، وقدرته على التعبير، وامتلاكه لناصية البيان، أدعو الله سبحانه أن يوفقه لمزيد من العطاء العلمي والأدبي، ويتقبل منه هذا الجهد، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، ونافعا للأمة الإسلامية في كل مكان. آمين.

محمد سفيان القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند

بين يدي الكتاب

أ. د. محمد شكيب القاسمي
مدير مجمع حجة الإسلام وأستاذ بالجامعة

إن مجمع حجة الإسلام يسعى جاهدا من أول يوم لنشر المآثر العلمية لعلماء ديوبند باللغات العالمية، وعلى رأسها اللغة العربية التي هي لغة رسمية للإسلام، ولغة ٢٥ دولة في العالم، ويتحدث بها أكثر من ٤٢٢ مليون نسمة في العالم.

والعلماء العرب حرصوا منذ قديم على أن تُنْشَر المآثر العلمية لعلماء ديوبند باللغة العربية، وذلك نظرا لما تميز به علماء ديوبند من سعة في النظر، وعمق في الثقافة، واعتدال ووسطية في الفكر، وجمع بين العقل والنقل دونما إجحاف وتعسف، وهي السمات التي جعلت المنهج الفكري لعلماء ديوبند أكثر قبولًا وانتشارًا في العالم.

إن كتابات العلامة الشيخ محمد طيب القاسمي رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند تجمع بين حلاوة النص الشرعي وجذابية الاستدلال العقلي، فكتاباته– رحمه الله – ليست حرفية جامدة على النصوص، ولاعقلية جافة محضة، لاسند لها في النصوص الشرعية، وإنما هي سطور فائحة بعبير النصوص، وزاكية برائحة العقل، ومسطورة بأسلوب علمي رشيق، فيه العمق والسعة والمرونة والقوة والجمال، يخاطب المقر والجاحد، فيطمئن المؤمن، ويُقنع المارد، ومن هنا وضع المجمع كتابات الشيخ ونشرها – وفق المنهج العلمي البحثي العالمي السائد– في أولويات أعماله، وأهم أهدافه، ومن أهم كتب الشيخ هو "التشبه في الإسلام"، الذي لم يترك ما له صلة بالموضوع إلا أتاه، ولم يدع شبهة من شبهات المشككين إلا فندها.

فحرص المجمع على ترجمته إلى العربية، وفوض عملية الترجمة إلى أخي وصديقي الكاتب البارز، المترجم القدير الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي، فشمر عن ساق الجد، وامتطى صهوة السهر والاجتهاد، ووصل ليله بنهاره، حتى أكمل العمل وبكل جد وإتقان في المدة القصيرة، وليس عمله هي الترجمة فقط؛ وإنما زاد عليها تحقيق النص، وتخريج الآيات والأحاديث، وعزو الآثار والأقوال والأبيات إلى أصحابها، وما أكثرها، وحاول بالمستطاع أن يأتي الكتاب على مستوى المنهج العلمي السائد في الدنيا، ومن ثم أصبحت العملية جسيمة، والمسؤولية عظيمة؛ حيث كان الكتاب مشتملا على أكثر من ٣٠٠ صفحة بالقطع المتوسط، ولولا فضل من الله سبحانه، وعزم الأستاذ الصارم واجتهاده الدائم لما كاد العمل أن يتم. فجزاه الله خير الجزاء.

وآن أن يسعد المجمع بأن يُتْحِف قراء العربية بهذا الكتاب البكر، المزدان برشاقة المنظر وشفافية المدلول، والذي يتحكمه عمق الفقه في الدين، وقوة البراهين العقلية، والأسلوب الكتابي الجذاب.

وإني إذ أكتب هذه السطور أشكر أخي الأستاذ القاسمي، كما أشكر الأستاذ محمد حسنين أرشد القاسمي أستاذ الجامعة على قيامه بالإخراج الفني الرائع، وآمل أن يحظى الكتاب باللغة العربية بقبول وانتشار كما حظي به باللغة الأردية، وأدعو الله سبحانه أن يوفق العاملين في المجمع لما يحبه ويرضاه، ويجزي خير الجزاء مؤلف هذا الكتاب ومترجمه وناشره، ويتقبلهم في الصالحين. آمين يارب العالمين.

محمد شكيب القاسمي

مدير مجمع حجة الإسلام وأستاذ بالجامعة

كلمة الترجمة والتحقيق

إن كتاب "التشبه في الإسلام" الذي فاض به قلم العالم الجليل الشيخ محمد طيب القاسمي، المعروف بـ"حكيم الإسلام" في هذه الديار، سفر جليل القيمة والفائدة، يتناول –وبكل تفصيل– موضوعا، هو من صميم العقيدة الإسلامية، ألا وهو وجوب التشبه بالصلحاء، وحرمة التشبه بالكفار والمشركين، وهو عين ما أُمِر به المؤمنُ في سورة الفاتحة، التي يرددها في كل ركعة من صلاته، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [سورة الفاتحة: ٥–٧].

فالمؤمن مطالَب بالسير على طريق الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويجب أن تكون عقيدته كعقيدتهم، وعمله كعملهم، وخلقه كخلقهم، وسلوكه كسلوكهم، وظاهره كظاهرهم، وباطنه كباطنهم، لينعم الله عليه كما أنعم عليهم.

كما يجب أن لايتشبه بالمغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى والكفار والمشركين، في العقائد والأعمال والأخلاق؛ حتى لايكون نصيبه في الدنيا هو الضلال والغضب من الله، وفي الآخرة عذاب أليم لايطاق.

وهذه العقيدة قد تبدو في أول أمرها تقشفا محضًا؛ ولكنها في الحقيقة تحكي استقلالية الدين الإسلامي، وشموله لكل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، وحرصه الشديد على أن تبقى الأمة الإسلامية أمة متميزة في عقائدها وأعمالها

وسلوكها وأخلاقها وشعائرها، ولاتذوب في موجات الأفكار الشرقية والغربية المتلاحقة؛ بل تطغى على الجميع، وتصمد في وجهها كالصخرة الصماء.

إن قيمة الكتاب الحقيقية مكمونة في أن كاتبه هو العالم الجليل الموسوعي الشخ محمد طيب القاسمي المعروف في الديار الهندية بـ "حكيم الإسلام"، وهو حفيد الإمام محمد قاسم النانوتوي[1] مجدد الدين الإسلامي ورائد الحركة التعليمية في

---

(١) هو الشيخ الإمام حجة الإسلام محمد قاسم بن أسد علي الصديقي النانوتوي، أحد العلماء الربانيين، ولد عام ١٢٤٨ هـ ببلدة "نانوته" بمديرية "سهارنفور" بولاية "أترابراديش"، الهند، وتوفي عام ١٢٩٧ هـ، وتلمذ على الشيخ مملوك علي النانوتوي (المتوفى عام ١٢٦٧هـ)، وقرأ عليه سائر الكتب الدراسية بكل روية وتدبر، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني المجددي الدهلوي (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ).

كان واحداً من عباقرة الفكر الإسلامي، وأفذاذ الهمة والعزيمة والطموح، الذين عرفهم التاريخ بأصالة ثقافتهم وغزارة علمهم وثقوب فكرتهم ووضوح رؤيتهم وصلابة موقفهم وضخامة مآثرهم وحسن بلائهم في نصرة الدين والذود عن حياضه وخدمة الدين والعلم والأدب.

كان من أساطين النهضة الإسلامية في الهند الذين يرجع إليهم الفضل في الإبقاء على الشريعة الإسلامية في شكلها الصحيح في الديار الهندية؛ فقد ولد في عصر متأزم موبوء من كلتا الناحيتين: الناحية السياسية والناحية الدينية، أما الناحية السياسية فقد شاهد أن الحكم الإسلامي المتمثل في الإمبراطورية المغولية العظمى قد أزيل من الساحة، وأن الاحتلال الإنجليزي أحكم سيطرته في البلاد، يعبث بخيراتها، ويمتص ثرواتها، ويحصد أرواحها، وهو – الاحتلال الإنجليزي– عازم مع هذا بشكل جدي على اجتثاث جذور الإسلام من القلوب المسلمة، وذلك عن طريق الحملات التبشيرية الضخمة التي هبَّتْ تعمل على تنصير المسلمين، وتزرع الشكوك في قلوبهم عن المبادئ الإسلامية استغلالاً لضعفهم السياسي والاقتصادي وجهالتهم المتفشية.

أما التأزم الديني في ذلك العصر فحدِّث عن البحر ولا حرج؛ كان المجتمع الإسلامي الهندي عاراً

شبه القارة الهندية، ومؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، وقد عُرف الشيخ

على الإسلام، غارقاً في البدع والمنكرات، ومولعاً بالرسوم الشركية؛ بل كان أشبه ببؤرة الإلحاد، ومستنقع الوثنية؛ مما يخيل إلى أولي البصيرة أن الهند ستؤول إلى ما آلت إليه الأندلس.

ففي هذا العصر برز الإمام النانوتوي ورفقاؤه لا كعالم عادي وواعظ رسمي؛ بل كمدفع للتوحيد وجبل للعقيدة ورجل للمواقف وإمام مجاهد بسيفه ولسانه وقلمه.

قاد حركة التحرير، والثورة على الاحتلال الإنجليزي في معركة "شاملي" العظيمة، الشهيرة من بين المعارك الثورية ضد الاحتلال.

وكان حجة الإسلام منظورا إليه في مقاومة الأفكار الهدامة، فقد تصدّى للرد على أساقفة الهندوس وأحبار النصارى، فناظرهم، وقطع ألسنتهم، وأظهر عوراتهم، وأقام عليهم الحجة، فأصبحوا يفرون من ساحة المناظرة بمحض سماع نبأ يفيد حضوره.

كان غزير العلم، بليغ العبارة، فاض قلمه بكتب علمية دقيقة، فنَّدت الشبهات، وأوضحت المحجة البيضاء.

جعل أمر الحفاظ على الشريعة داء قلبه وأمنية حياته، فألهم الله في روعه أن إنشاء المدرسة التي تقود الحركة العلمية، وتربي الأجيال المسلمة على أسس سليمة، يحقِّق هذا الغرض العظيم، فأسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند متوكلاً على الله سبحانه، وقد بارك الله في هذه الجامعة؛ حيث أصحبت في مدةٍ قليلةٍ معقلاً إسلاميّاً عظيماً، ومركزاً تعليميًّا وتوجيهيًّاً كبيرًا، فقد نشطت هنا حركة التعليم والتأليف والإصلاح بشكلٍ غير عادي، فأثمرت ثمرات يانعة ونتاجاً فكرياً خارقاً للعادة، وأنجبت فحولاً جهابذة، وشيوخاً عباقرة، ومحدثين عظاماً، ودعاة مخلصين، وخطباء مصاقع، ورجال الفكر والدعوة، ومؤلفين بارعين، فيالها من جامعة عظيمة حافظت على الدين في وقت حرج، وأنجبت أعلاماً عند ما أصاب الأمة العقمُ الفكريُ والكسوفُ العلميُ.

ورحمه الله من إمام جليل وقف حياته على خدمة الدين الحنيف، وتعب لتستريح الأمة، وسهر لينام المسلمون، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

المؤلف في الأوساط العلمية ببعده في النظر، وعمقه في الثقافة، وجمعه بين العقل والنقل باتزان واعتدال، وسعة اطلاعه على أسرار الشريعة ومصالحها في التشريع والتقنين، وسلاسته في البيان، ورشاقته في العرض، وامتلاكه لناصية الأدب الأردي، وقد تجلى كل ذلك في هذا الكتاب، كما تجلى في غيره من كتب الشيخ، رحمه الله.

ركَّز الشيخ في الكتاب على تأصيل القضية دون تفريعها، وعلى تنظيرها دون تطبيقها، فلم يَحْشُ الكتابَ حشوًا بكثير من فروع التشبه بالكفار وأحكامها الشرعية؛ وإنما تناول أصل القضية، فأثبت أصالتها وضرورتها ومنطلقاتها ومقتضياتها، وعناية الكتاب والسنة النبوية بها، وحرص السلف الصالح على العمل بها عبر القرون، نعم، قد تناول من الفروع الفقهية ذات الصلة بالتشبه ما يتم به إيضاح المبدأ، وتأصيله، مع الإشارة العابرة إلى خطورة الوضع السائد المتفاقم حِيَالَ التشبه بالكفار.

وبعد التأصيل شرع الشيخ في الاستئصال، فقضى القضاءَ العلميَّ الأخيرَ على الشبهات التي أثارها ضعفاء الإيمان، وتلامذة الغرب في الهند، وعلى جميع الدلائل الواهية التي لاذوا بها، وعلى رأسهم السيد أحمد خان[1] مؤسس جامعة علي جراه-

(١) هو السيد أحمد خان، ولد في ١٧ أكتوبر١٨١٧ م في دلهى بالهند؛ وتوفي في ٢٥ رجب سنة ١٣٠٦ هـ الموافق ٢٧ مارس سنة١٨٩٨ م ودُفن في ساحة مسجد جامعة علي جراه التى أسسها. وهو مؤسس الحركة التعليمية العصرية في شبه القارة الهندية، ومؤسس جامعة على جراه بالهند، وأحد العلماء المخلصين الذين لهم دور بارز في تنشئة المسلمين في الهند بعد سقوط الحكم المغولي الإسلامى.

فهو في خدماته عظيم، إلا أنه بأفكاره الشخصية وأرائه الإسلامية يعد ملحدا من الملاحدة، أما عظمته فتتمثل في أنه حاول انتشال الأمة الإسلامية الهندية من حضيض الجهل والأمية إلى علياء العلم والثقافة في وقت، كانت الأمة الإسلامية قد سُدَّت على وجوهها كل الأبواب، واتهمت

الهند، الذي أخلص الولاء للاستعمار البريطاني في الهند، وحاول بكل ما استطاع إخضاع الأمة الإسلامية الهندية للاستعمار، وسعى سعيا حثيثا للتقريب بين الإسلام والحضارة الغربية، فكتب وألّف، ودعا وتعسف، وبما أن مبدأ التشبه بالكفار كان حجر عثرة في طريقه، فلم يدخر وسعا في الغض من شأنه وتضعيف دلائله بشبهات، هي أوهي من بيت العنكبوت، فتصدى له الشيخ، وكشف عوارها، وأظهر تفاهتها بأسلوب علمي نقدي رصين، قائم على التقييم الدقيق والعرض المحايد والدلائل القوية.

ونظرًا لأهمية الكتاب حرص مجمع حجة الإسلام التابع للجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند على ترجمته إلى اللغة العربية، ليطلع إخواننا العرب والمعنيُون باللغة العربية في كل مكان على ما جاء في هذا الكتاب من روائع وبدائع متصلة

بأنواع من الاتهامات، فلم يجد بدا من التزلف إلى الاستعمار البريطاني بأكثر من حيلة، وعاد يلوم المسلمين على الأعمال، التي ظلت عبر الدهور وسام الفخر والاعتزاز، وهي المقاومة الشرعية في سبيل الدفاع عن الدين والشرف والدولة، حتى كسب الحظوة لدى الحكومة البريطانية، وحقق ما كان يحلم به من إقامة جامعة تعلم العلوم العصرية الغربية، وتكفل للأمة المسلمة التقدم المادي والبروز في مجالات العلوم الحديثة، ولا شك أن لجامعة علي كره التي أسسها فضلا كبيرا على المسلمين في محو الأمية والنهوض بهم في المجالات العملية العزيزة.

أما كونه ملحدا فهو يتمثل بالنظر فيما يعتقده من عقيدة، ومايتبناه من رأي، فهو منكر وقوع المعجزة عن الأنبياء عليهم السلام، والقائل بأن القرآن ليس منزلا بلفظه من الله تعالى، بل هو منزل بالمعنى، كالذي يُلقى في القلوب، ومنكر وجود الجن، وما إليها من العقائد التي لاصلة لها بالإسلام.

ألّف العديد من الكتب، ردّ فيها على بعض المغرضين من المستشرقين، ودعا فيها إلى تجديد الفكر الإسلامي؛ وألطاف حسين حالي، **حياة جاويد**، وغيره من الكتب.

بموضوع التشبه بالكفار، فإن الموضوع مع أصالته وعراقته لم يؤلَّف فيه كتابٌ جامعٌ مثله، يطرق أبوابه من حيث التأصيل هذا الطرق البديع، وقد آل إلى هذا العبد الحقير أمر الترجمة، فبدأت بها ثقة بالله وتوكلا عليه، مع ما عندي من بضاعة أدبية قليلة، وتشتت البال في عدد من الأشغال.

عملي في الكتاب:

- ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، وحاولت -ماوسعني- أن أجمع بين عدم الخروج في الترجمة عن مغزى الكتاب ومراميه، وبين أسلوب الكتابة العربية؛ حتى يأتي الكتاب مفهوما لدى العرب والمعنيين باللغة العربية، ولايكون مكبلا بالألفاظ والكلمات الطنانة التي تثقل فهمه على القارئ.
- تخريج الآيات والأحاديث النبوية، كان معظم النصوص فارغة عن الإحالات، فجبرت هذا الخلل بالتخريج، وتم ذلك وفق المنهج العلمي السائد المقبول.
- عزو الآثار والأقوال إلى أصحابها، وإن كان من الأقوال والآثار ما لم أعثر له على مصدر، صرحت به في الهامش.
- ترجمة موجزة للأعلام الوارد ذكرهم في صلب الكتاب، وذلك انتقاء من كتب التراجم والطبقات.

وها أنذا أقدم لقراء العربية اليوم هذا الكتاب القيم مترجَما إلى اللغة العربية، ومخرَّجَة نصوصُه وآثاره. فلله الحمد والمنة أولا وآخرا على ما وفقني للترجمة، وسهل لي من أمري، ولم يرهقني من أمري عسرا.

وأرفع أسمى معاني الشكر والتقدير إلى رئيس الجامعة فضيلة الشيخ محمد سفيان القاسمي – حفظه الله- على أنه وثق بي، واعتبرني أهلا لهذا الأمر الجلل.

كما أشكر بكل معاني الشكر أخي ورفيقي الأستاذ الدكتورمحمد شكيب القاسمي مدير مجمع حجة الإسلام، الذي له نصيب أوفر في إنجاز هذا العمل؛ فإنه لولاه وتشجيعه الدائم وتوفيره لكل التسهيلات ووقوفه بجانبي فيما يعتريني من مشكلة في حياتي الشخصية والعلمية لما استطعت أن أنجز هذا العمل الضخم في هذه المدة القصيرة، فجزاه الله خيرا.

وختاما أؤكد على أن الحاجة إلى توعية الأمة المسلمة بمبدأ التشبه بالكفار قائمة؛ حيث لايخفى تهافت الأمة الإسلامية على فتات مائدة الغرب، وتطفلها على حضارتهم الزائفة، وانبهارها برقيهم وازدهارهم، المؤسَّسين على عبادة النفس وإشباع الغرائز، وهذا الكتاب يعكس مدى خطورة هذا التشبه في أسلوب علمي وعقلي، يناشد العقل والروح معًا.

واللهَ أسأل أن يتقبل بفضله هذا العمل، وينفع به الأمة الإسلامية في كل مكان، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وذخرا لمؤلف الكتاب ومترجِمه ومن ساعد في النشر والتوزيع، وما ذلك على الله بعزيز.

محمد نوشاد النوري القاسمي

أستاذ الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند.

١/ محرم الحرام/ ١٤٣٨هـ، الموافق ٣/ أكتوبر/ ٢٠١٦م

تعريف موجز بمؤلف الكتاب

هو العالم البارز الكبير الشيخ محمد طيب القاسمي ابن الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي ابن الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي، ولد في محرم ١٣١٥هـ، الموافق يونيو ١٨٩٧م في مدينة ديوبند، وتلقى كلا من الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعليا في العلوم الشرعية في الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند، على الأساتذة البارعين المعروفين بورعهم وصلاحهم وتقواهم ودورهم البطولي في الحركات العلمية والإصلاحية والسياسية، بمن فيهم العلامة محمود حسن الديوبندي المعروف بـ"شيخ الهند"[1]، والمحدث الشهير العلامة سيد محمد أنور شاه الكشميري[1]،

---

(١) هو الشيخ العلاّمة محمود حسن الديوبندي ابن الشيخ العالم الأديب شاعر العربية ذو الفقار علي الديوبندي المتوفى ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م . تخرج عليه كبار العلماء في الهند ، ولد عام ١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥١م ، وكان على رأس الدفعة الأولى من الطلاب التي التحقت بالجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند ؛ حيث كان لدى تأسيسها يوم الخميس ١٥/ محرم ١٢٨٣هـ الموافق ٣٠/ مايو ١٨٦٦/ يجتاز المراحل الثانوية من تعليمه ؛ فالتحق بها وتخرّج منها عام ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٣م. و وُلّي التدريس بالجامعة عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م، ثم مُنِح الترقية و بات رئيس هيئة التدريس بها عام ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

كان آية باهرة في علوم الهمة وبعد النظر، والأخذ بالعزيمة ، وحب الجهاد في سبيل الله ، شديد البغض لأعداء الإسلام، كثير التواضع، دائم الابتهال، ثابت الجأش، جيد المشاركة في جميع العلوم العقلية والنقلية ، ومطلعًا على التاريخ ، كثير المحفوظ للشعر، كثير الأدب مع المحدثين والأئمة المجتهدين، تلوح على محياه أمارات التواضع والحلم، وتشرق أنوار العبادة والمجاهدة في وقار وهيبة. وكان أعلم العلماء في العلوم النافعة، وأحسن المتأخرين ملكة في الفقه وأصوله وأعرفهم بنصوصه وقواعده.

وضع خطة محكمة لتحرير الهند من مخالب الاستعمار الإنجليزيّ عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وكان يودّ أن يستعين فيها بالحكومة الأفغانية والخلافة العثمانية . وقد هيّأ لذلك جماعة من تلاميذه تمتاز بالإيمان القوي، والطموح، والثقة بالنفس، والتوكل على الله، والحزم وثقوب النظر. وكان من بينها الشيخ عبيد الله السنديّ (المتوفى ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م) والشيخ محمد ميان منصور الأنصاري (المتوفى ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) وكان الاتصال يتم بينه وبين تلاميذه وأصحابه المناضلين عن طريق الرسائل التي كانت تُكْتَب على الحرير الأصفر، ومن هنا عُرِفَ نضاله ضدّ الاستعمار بـ «حركة الرسائل الحريرية» . ولتنفيذ خطته سافر رغم كبر سنه إلى الحجاز عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م ، وقابل في المدينة المنورة كبار المسؤولين عن الخلافة العثمانية؛ ولكن من سوء الحظّ اطلعت حكومة الاستعمار الإنجليلزي على الرسائل الحريرية عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، وألقت عليه القبض عن طريق الشريف حسين أمير مكة – الذي كان قد خرج على الدولة العثمانية – في صفر ١٣٣٥هـ/ نوفمبر ١٩١٦م و معه عدد من تلاميذه وأصحابه ، من بينهم الشيخ السيد حسين أحمد المدني المتوفى ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، وسُفِّروا إلى «مالطه» وسُجِنُوا بها؛ حيث لبثوا فيها نحو ٣ سنوات وشهرين، وأطلق سراحهم في جمادى الأخرى ١٣٣٨هـ/ يناير ١٩٢٠م، و وصل الشيخ الهند يوم ٢٠/ رمضان ١٣٣٨ هـ الموافق ٩/ مايو ١٩٢٠م وتلقّاه الناس بحفاوة غير عاديّة، وغلب عليه لقب «شيخ الهند» واستُقْبِل في كل مكان استقبالاً لم يعهد الناس مثله .

ورغم كبر سنه وضعفه ومرضه وكونه مُحَطَّمًا لطول الأسر في الغربة، لم ير أن يستجم في وطنه ديوبند، وإنما ظل يزور ويجول في أرجاء البلاد يدعو الشعب إلى النضال ضد الإنجليز ومقاطعتهم ، من خلال خطبه و محاضراته . وفي هذه الحالة سافر إلى «عليجراه» و وضع حجر الأساس للجامعة الملية الإسلامية يوم ٢٩/ أكتوبر ١٩٢٠م (١٦ صفر ١٣٣٩هـ) وقد انتقلت فيما بعد إلى دهلي.

ثم اشتد به المرض والضنى حتى استأثرت به رحمة الله تعالى في صباح يوم ١٨/ ربيع الأول ١٣٣٩هـ الموافق ٣٠/ نوفمبر ١٩٢٠م ؛ وذلك في دهلي حيث كان يتلقى العلاج. ونقل جثمانه في اليوم التالي إلى ديوبند، ودفن بجوار أستاذه العظيم الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفى ١٢٩٧/ هـ ١٨٨٠م في المقبرة الجامعية التي عرفت بـ «المقبرة القاسمية» .

وقد تشرف رحمه الله بنقل ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية وهي من أحسن التراجم الأردية وأكثرها قبولاً و رواجاً، وأضاف إليه تلميذه العلامة شبير أحمد العثماني المتوفى ١٣٦٩هـ

١٩٨٩م تعليقات مفيدة عُرِفتْ بـ «التفسير العثماني» . وقد قام مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة بطباعة هذه الترجمة مع التفسير عام ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م بعدد مئات الآلاف و توزيعها على المسلمين في العالم.

انظر للتوسّع في ترجمته كتب «حياة شيخ الهند» للشيخ ميان أصغر حسين الديوبندي و «نقش حياة» و «أسير مالطة» للشيخ السيد حسين أحمد المدني و «تذكرة شيخ الهند» للشيخ عزيز الرحمن البجنوري و «حركة شيخ الهند» للشيخ السيد محمد ميان الديوبندي الدهلوي و «أسيران مالطة» له أيضاً و للشيخ الشريف عبد الحي الحسني ، ج٨، و «تأريخ دار العلوم/ ديوبند» لمؤلّفه الشيخ السيّد محبوب رضوي، ج٢.

(١) هو العلامة المحدث الكبير أنوَرْ شاه الحسيني الحنفي ابن الشيخ محمد معظّم شاه الكشميري. انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث في الهند. كان دقيق النظر في طبقات المحدثين والفقهاء، نادرة عصره في قوة الحفظ، وسعة الاطّلاع على كتب المتقدمين، والتضلّع من الفقه والحديث وأصولها والتفسير وأصوله، والرسوخ في العلوم الإسلامية والعربية، يسرد ما قرأه في ريعان شبابه بنصوصه دون إخلال بمعنى. شغوفًا بالقراءة والاطلاع على كل جديد، شديد الغيرة على الإسلام، كثير الحماية لعقيدة أهل السنة والجماعة، شديد العداء والمحاربة للقاديانية، متوفّرًا على الردّ عليهم بالكتابات والخطابات، كثير الترغيب لتلاميذه وأصحابه في مقاومتها بالقلم واللسان.

وُلِدَ صباحَ السبت ٢٧/ شوال ١٢٩٢هـ الموافق ١٦/ أكتوبر ١٨٧٥م. اجتاز المراحل الابتدائية والثانوية في وطنه كشمير وغيرها، متعلمًا على والده وغيره، والتحق بالجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند عام ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م، وتلقّى فيها الدراسات العليا في علوم الشريعة و ما يتعلق بها طوال أربع سنوات، على الشيخ العلامة محمود حسن الديوبندي شيخ الهند (المتوفى ١٢٣٩هـ / ١٩٢٠م) والشيخ خليل أحمد السهارنبوري (المتوفى ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م) وغيرهما، وتخرّج منها عام ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م وهو في ٢١ من عمره. وبدأ يعمل رئيسًا لهيئة التدريس بالمدرسة الأمينية الإسلامية بدهلي منذ تأسيسها عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م، وبقي بها لمدة أربع سنوات ونصف، وعاد عام ١٣٢٠هـ ١٩٠٣م إلى وطنه كشمير؛ حيث أسس بها مدرسة باسم «فيض عام» . وعام

والمحدث الجليل خليل أحمد السهارنفوري صاحب "بذل المجهـود شرح سـنن

١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م سافر إلى الحجاز للحج والزيارة، واستغل الفرصة فأسند الحديث عن الشيخ حسين بن محمد بن مصطفى الجسر الطرابلسي (المتوفى ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) صاحب «الرسالة الحميديّة في حقيقة الديانة الإسلامية» ثم عاد إلى الهند عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م وأقام بالجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند على أمر من أستاذه شيخ الهند يدرس بها ابتغاءً لوجه الله. وذلك لغاية عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٥م، إذ سافر فيه العلامة شيخ الهند محمود حسن إلى الحجاز ينوي الإقامة الطويلة فيه؛ فاستخلفه في تدريس الحديث و ولاّه رئاسة التدريس في الجامعة، وبقي في منصبه هذا طوال ١٢ عاما لعام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م الذي في أوائله انتقل إلى الجامعة الإسلامية بـ «دابهيل» بـ «غجرات» وبقي يدرس بها الحديث لعام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م حتى أضناه داء البواسير: فعاد إلى «ديوبند» حيث استأثرت به رحمة الله تعالى يوم ٣/ صفر ١٣٥٢هـ الموافق ٣٠/ أبريل ١٩٣٣م.

من مؤلّفاته تعليقات على «فتح القدير» لابن الهمام إلى كتاب الحج، وتعليقات على «الأشباه والنظائر» وتعليقات على صحيح مسلم، وكتاب «عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام» و «إكفار الملحدين في ضروريات الدين» و «مشكلات القرآن» و التصريح بما تواتر في نزول المسيح» . وما إلى ذلك.

للاستزادة من ترجمته يراجع «نفحة العنبر في حياة إمام العصر الشيخ أنور» للشيخ محمد يوسف البنوري و «نزهة الخواطر» ج٨، تأريخ دار العلوم / ديوبند ج٢، «الأنور» للأستاذ عبد الرحمن كوندو، «حياة أنور» للأستاذ أزهر شاه قيصر، «نقش دوام» للشيخ أنظر شاه الكشميري، «نكارستان كشمير» للقاضي ظهور الحسن ، «علماءِ هند كا شاندار ماضي» للشيخ الفقيه محمد ميان الدهلوي، «تأريخ أقوام كشمير» للأستاذ محمد دين فوق، «مولانا أنور شاه كشميري: حياة اور ان كـا علمي كارنامه» للدكتور رضوان الله، «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر» للعلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبوغدة رحمه الله .

أبي داؤد"[1]، والعلامة محمد إبراهيم البـلـيـاوي[1]، والشيخ الفقيـه المفتـي عزيـز

(١) هو الشيخ خليل أحمد بن مجيد علي بن أحمد علي بن قطب علي الأنصاري الحنفي، من كبار علماء الهند وأشهر المحدثين فيها.

وُلِد الشيخ في آخر صفر المظفر عام ١٢٦٩هـ الموافق ديسمبر عام ١٨٥٢م في قرية نانوته في خؤولته، وكان يسكن أبوه في قرية صغيرة بمدينة سهارنفور "انبهته"، عمِّرت في القرن الثامن الهجري ونشأ هناك عدد من أفاضل العلماء.

وبدأ الدراسة رسمياً من العالم الشهير وجده الشيخ مملوك علي النانوتوي رحمه الله، وقرأ القرآن الكريم نظرا في حداثة سنه، وأخذ شدواً من الفارسية والعربية، وصحب عمه الشيخ أنصار علي إلى مدينة غواليار، وقرأ منه ميزان الصرف وصرف مير وبنج غنج(خمس خزائن) وكان أبوه موظفا في كواليار، لكنه ترك بعد شهور، وعاد إلى وطنه فعاد مع ابيه، وتلقى الدراسة إلى كتاب الكافية في وطنه من الشيخ سخاوت علي، ولفقدان النظام التعليمي الجيد في الوطن التحق بالمدرسة العصرية لتعلم اللغةالإنجليزية، وبعد ستة أشهر لما تم تأسيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند في محرم عام ١٢٨٣هـ الموافق مايو عام ١٨٦٦م وعُيِّن خالُه الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله رئيس المدرسين بها التحق بها الشيخ عام ١٢٥٨هـ وقرأ هناك شرح التهذيب وغيره، ثم ذهب إلى الجامعة مظاهر العلوم سهارنفور، ودرس الكتب التفسيرية والفقهية والكلامية والعقائدية وغيرها، ثم عاد إلى جامعة ديوبند وتخرج فيها عام ١٢٨٩هـ بعد إكمال الدراسات العليا في المنطق والفلسفة والتاريخ والأدب.

إن الشيخ خليل أحمد السهارنفوري – كماذكرت – كان عالما متبحرا وماهرا في العلوم والفنون، وأكثر اضطلاعا في الحديث والفقه، فهو صاحب بذل المجهود في حل سنن أبي داود، الذي يمثل مأثرة علمية قيمة للشيخ، والمؤلفات العلمية القيمة.

قال الإمام الكشميري يوما في درسه وهو يصف مكانته في الفقه والحديث: رأيت كثيرا من

الرحمن العثماني الديوبندي[٢]، رحمهم الله.

المدرسين، أما الفقيه منهم فهو واحد، وذكر اسمه، وقرض الإمام الكشميري في مدحه قصيدة، جاء فيها:

إمام قدوة عدل أمين	ونور مستبين كالنهار
إليه المنتهى حفظا وفقها	وأضحى في الرواية كالمدار
فقيه النفس مجتهد مطاع	وكوثر علمه بالخير جار

وقال الشيخ أبوالحسن الندوي: إن الشيخ خليل أحمد السهارنفوري من العلماء الذين رزقهم الله العلم والحكمة وجعلهم مصداقا لقول النبي – صلى الله عليه وسلم- من يرد الله خيرا يفقهه في الدين، ووُصف العلماء مثلُه في كتبنا بـــ"فقيه النفس".

وفي شوال عام ١٣٤٤هـ هاجر إلى المدينة المنورة، وبعده بعام ونصف أصيب بمرض الشلل النصفي، وانتقل إلى رحمة الله ١٥ –ربيع الثاني عام١٣٤٦هـ الموافق ١٢ –أكتوبر عام١٩٢٧م عن عمر يناهز ٧٧ عاما، ودفن بمقبرة البقيع بجوار سيدنا عثمان الغني رضي الله عنه وجنب أستاذه الشيخ عبد الغني المجددي المهاجر المدني رحمه الله؛ وانظر: سيد محبوب الرضوي، **تاريخ دار العلوم**، ج٢، ص٣١؛ وآفتاب غازي، **الخدمات الفقهية لخريجي دار العلوم ديوبند**، ص ٢١٦-٢٢٦.

(١) هو العلامة إمام المعقول والمنقول إبراهيم البلياوي أحد العلماء الموسوعيين في الهند، ولد في مدينة بليا (إحدى المديريات بولاية يوبي الهند) عام ١٣٠٤هـ؛ وفيها نشأ وأخذ العلوم الابتدائية، ثم التحق بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند عام ١٣٢٥هـ؛ وتخرج فيها عام ١٣٢٧هـ.

ومارس التدريس في عدد من المدارس، ثم دعي للتدريس بجامعة ديوبند، واشتهر ببراعته التدريسية ولباقته البيانية، فرقِّي لمنصب رئاسة هيئة التدريس فيها، كان عالما فذا، دقيق النظر، وسيع المطالعة، وبارعا في العلوم العقلية والنقلية، لاسيما في علم الكلام والعقائد، وله عدد من الرسائل العلمية، توفي في ٢٤/ من شهر رمضان المبارك عام ١٣٨٧هـ، ودفن بالمقبرة القاسمية ديوبند؛ وانظر: محبوب الرضوي، **تاريخ دار العلوم** ديوبند، ج٢، ص١٠٣.

(٢) هو الشيخ العالم الرباني الحنفي، المفتي عزيز الرحمن العثماني الديوبندي، ابن الشيخ فضل الرحمن العثماني، الشقيق الأكبر لكل من العلامة شبير أحمد العثماني، والشيخ حبيب الرحمن العثماني، الرئيس الأسبق لجامعة ديوبند.

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي نسيج وحده في الذكاء والفطنة والتوقد الذهني وحسن الوعي ودقة الإدراك والجهد والتواضع والحب والوفاء، وقد حظي مع ذلك بعطف وشفقة غير عاديين من قبل الأساتذة، الأمر الذي خلق منه رجلاً صاحب المآثر والأمجاد، ورجل المواقف والمغامرات.

تخرج الشيخ في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند عام ١٣٣٧هـ ، الموافق ١٩١٨م، وعُرف أيام تحصيله باجتهاده في الدرس، وتأدبه مع الأساتذة، ومواظبته على

كان أمة في عصره في الفقه، والفتوى، ودقة النظر ، وسعة الدراسة لكتب الأصول، والاستحضار لمتون الفقه، وجزئياته، يكتب الجواب عن الاستفتاء عفو الساعة، ولا يحتاج إلى المراجعة في أغلب الأحيان، مع تحرّ للصواب ، وإلمام بالحوادث والنوازل، واطّلاع على مقتضيات العصر واتجاهات الفكر، ورؤى الزمان.

تولّى الإفتاء في الجامعة الإسلامية دار العلوم / ديوبند نحو أربعين سنة، ورغم أن سجل فتاواه التي أفتى بها في الفترة ما بين ١٣١٠هـ و ١٣٢٩هـ مفقود، فإن عدد فتاواه في الفترة ما بين ١٣٣٠هـ و ١٣٤٦هـ حسب ما هو مسجّل لدى دار العلوم / ديوبند ، يبلغ (٣٧٥٦١) فتوى، ولكن سماحة الشيخ المقرئ محمد طيب الرئيس السابق للجامعة ، قد صرح في مقدمة الجزء الأول من مجموع فتاواه، أن عدد فتاواه (١١٨٠٠٠) على الأقل.

وكان غاية في إنكار الذات، والتواضع، وستر الحال، والاجتهاد لإسداء الخير، والنفع للخلق، حتى كان دائب التطواف بعد صلاة العصر على البيوت حتى يطلع على حوائج الأرامل والعجائز، والعفيفات من النساء اللاتي يفقدن كفلاء الأمر، فيحقق لهن حاجاتهن من السوق وغيرها ويحملها إليهن بنفسه . كما كان يتابع سطوح بيوت الفقراء أيام المطر، فيرممها بنفسه .

وُلدَ رحمه الله في ١٢٧٥هـ الموافق عام ١٨٥٨م؛ وتخرج من جامعة ديوبند عام ١٢٩٨هـ ؛ وتوفي ١٧/ جمادى الآخرة ١٣٤٧هـ بديوبند؛ و دفن بالمقبرة القاسمية.

الدرس، ومحافظته على الصلاة، وحسن السيرة والسلوك، وبروزه على الأقران؛ فكان المركز الأول هو نصيبه في جميع الامتحانات.

وفي العام التالي ١٣٣٨هـ عُين الشيخ أستاذا بالجامعة، وبدأ يدرس الكتب العلمية المختلفة، ولم تنقطع صلته عن التدريس طوال حياته، وقد اشتهر تدريسه لكتاب "حجة الله البالغة" للشاه ولي الله الدهلوي.

إن الاستعراض السريع الإجمالي لمآثره وإنجازاته هو الآخر يتطلب القسط الكافي من الوقت والجهد، فتطيب الإشارة العابرة إلى بعض مآثره العظيمة:

أ- رئاسة الجامعة الإسلامية/دارالعلوم ديوبند لمدة أكثر من خمسين سنة (من ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م إلى ١٤٠١هـ/١٩٨٢م):

رأس الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم ديوبند في هذه الفترة الطويلة، فأُسند إليه منصب النيابة عن رئاسة الجامعة عام ١٣٤١هـ، ثم رُقِّي إلى منصب رئاسة الجامعة عام ١٣٤٨هـ، وبقي على ذلك حتى عام ١٤٠١هـ.

ورئاسةُ هذه الجامعة يَصِفُها بعض العلماء الكبار بأنها طريق محفوف بالأشواك لا فراش وثير محلي بالأزهار؛ فإن المسلمين في شبه القارة الهندية يعتبرون هذه الجامعة مرجعاً أكبر فيما يتعلق بالدين والفكر الإسلامي والمواقف الحاسمة تجاه الأحداث، ويتبعون مواقفها وآرائها ومذهبها بقلوب منشرحة، فأدنى خطأٍ في اتخاذ المواقف والخطوات يسبب ذبذبةً هائلةً في المجتمع الإسلامي، مما يجعل علماء الدار لا سيما رئيسها يعيشون على حذر وحيطة.

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي رئيساً موفقاً للجامعة، زاد من قدر الجامعة وشعبيتها على الصعيد العالمي، ففي عهده المبارك برزت الجامعة كأكبر جامعة إسلامية أهلية على وجه الأرض، وهب العلماء الكبار يتوافدون إلى الجامعة يسجلون انطباعاتهم العالية تجاه الجامعة، وفي هذا العهد الميمون شهدت الجامعة تطورات علمية وإنجازات بنائية هائلة، فأدخلت تحسينات موسعة في المباني القديمة، وتم بناء عدد من المساجد والمباني الجميلة الرائقة، والبوابات الرشيقة وقاعة الحديث والفصول الدراسية بشكل سار.

وتحت رئاسة الشيخ ذاته نظمت الجامعة المهرجان المئوي المنقطع النظير في تاريخ المهرجانات والحفلات في شبه القارة الهندية، الذي شارك فيه العلماء الكبار وأعلام الأمة الإسلامية من مختلف أنحاء العالم، بجانب سفراء وممثلي الدول الإسلامية،وشهد المهرجانَ تجمعٌ إنسانيٌ حاشد يندر تكراره؛ حتى قال عدة علماء كبار: مارأينا لهذا التجمع نظيرا إلا في عرفات يوم النحر.

وكان للمهرجان أثر كبير في التعريف بالجامعة ورجالها وإنجازاتها والفكر الوسطي الذي تتبناه.

ب-حبه للجامعة:

كان الشيخ رحمه الله عميق الصلة بالجامعة، وغارقا في حبها، فكان لايستطيع فراقها لمدة طويلة، مع أنه كان عاش -كما يقال- نحو نصف حياته في الرحلة الدعوية والعلمية والتربوية والسياسية، ولكن الجامعة لاتغيب عن خاطره، مهما ابتعد من ساحتها، وهذا طبيعي؛ ففي ظلال الجامعة نشأ وترعرع، وبلبانها غُـذِّي ورُبِّي، وفي

فصولها تعلَّم وتربَّى، وفي ساحتها عاش صباه وشبابه وكهوله، وعلى أساتذتها ومشـائخها تخرج في العلم والتزكية والإحسان والدعوة والعمل الإسلامي، وإلى تحلية ذوائبها انقطع لمدة نصف قرن وأكثر، فتجذر حب الجامعة في قلبه، وتأصَّل في خاطره.

وظهر هذا الحب العميق للجامعة جليا عند ما تم تقسيم الهند وقامـت دولـة باكستان، فهاجر بعض أقربائه إلى باكستان، فبعد مدة سافر الشيخ إلى باكسـتان للقـاء أقربائه وذويه، فاجتمع علماء باكستان ووجهاؤهـا وشـعبها ليكيـدوا لإقامـة الشـيخ بباكستان، فألحوا جميعا على الشيخ وحاولوا إقناعه بأكثر من حيلة، لكن الشيخ رفض هذا الاقتراح الناشي عن حبهم للشيخ شديد الرفض، ومن جانب آخر كان أبنـاؤه في الهند- وعلى رأسهم الشيخ محمد سالم القاسمي[1]- يراسل علـماء باكسـتان ويقـنعهم

(١) هو العالم البارز والقائد المحنك الشيخ محمد سالم القاسمي بن الشيخ حكيم الإسـلام محمـد طيـب القاسمي بن الشيخ الحافظ محمد أحمد القاسمي بن الإمام حجة الإسلام محمـد قاسـم النـانوتوي، ولد في مدينة سهارنفور ـ ولاية أترابـراديش ـ جمهوريـة الهنـد، يـوم الجمعـة ٢٢ جمـادي الثـاني ١٣٤٤هـ الموافق ٨ يناير ١٩٢٦مـ وتخرج في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند عـام١٣٦٨هـ، الموافق عام ١٩٤٨م، ثم عين أستاذا فيها عام ١٩٤٨م، وعمل مدرسا لمدة ٣٣عامًا، كـان مدرسـا بارعا جيد التحضير والتقديم، اشتهر تدريسه لكتاب شرح العقائد النسفية، كـان يفضـل تـدريس الكتب المعقدة بحوثها، المعضلة معانيها.

وبعد الاختلاف الإداري الهائل الـذي حـدث في عـام ١٩٨١م في الجامعـة الإسـلامية دار العلـوم ديوبند والذي أدى إلى تقسيم الجامعة قاد الجامعة الشـقيقة دار العلـوم وقـف ديوبنـد، في ظـروف قاسية محفوفة بالأخطار والمصائب، وقد شكر الله سبحانه سعيه؛ حيث جعلها جامعة طيبة السـمعة والصيت، ذات شعبية كاسحة، تنظم التعليم من الصفوف الابتدائية إلى الفضيلة في العلوم الشرعية وأقسام التخصص في الأدب العربي والإفتاء والقضاء والتفسير وما إليها.

بأن الشيخ لايستطيع فراق الجامعة، وأنه إن نزل على طلبكم ورضي بالإقامة بباكستان، فإنه بعد قليل سيهاجر إلى المدينة المنورة، وستحرم كل من الدولتين هذه الشخصية العظيمة، التي تُعَدُّ فضلا من الله ونعمة على عباده في هذا العصر، فرضي أهل باكستان بعودة الشيخ إلى الهند، وكان جواز السفر قد أُلغيَ، فحاول الشيخ مولانا أبو الكلام آزاد[1] وزير التعليم الهندي آنذاك والشيخ حفظ الرحمن

عُرف الشيخ بعلو كعبه في الخطبة، فهو خطيب شهير ذلق اللسان، حتى لقبوه بـ"خطيب الإسلام"، وهو كاتب قدير، عُرف أسلوبه الكتابي بالعمق في الثقافة والسهولة في الأداء، وله إسهامات فعالة في السياسة والقيادة، يشغل مناصب مرموقة في المؤسسات الإسلامية الفاعلة في مجال السياسة والتعليم والصحافة، فهو الرئيس الأعلى للجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند، ونائب رئيس هيئة الأحول الشخصية للمسلمين في الهند؛ ومشرف **رابطة المساجد في الهند**، ورئيس المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية مظاهر العلوم وقف سهارنفور أترابرديش، ومشرف مجمع الفقه الإسلامي في الهند، وعضو المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية دار العلوم ندوة العلماء ـ لكنؤ ـ أترابرديش، ومشرف مجلة وحدة الأمة العلمية العربية المحكمة الصادرة عن الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف ديوبند. بارك الله في حياته.

(١) هو العالم الجليل، القائد البارز، السياسي المحنك محيي الدين أحمد بن خير الدين المشهور بلقب أبو الكلام آزاد، ولد في مكة المكرمة سنة١٨٨٨م، الموافق سنة ١٣٠٦هـ، وتوفي بعد حياة حافلة بالجد والكد، مليئة بالتضحيات والبلايا، والعلم والأدب والصحافة والسياسة في ٢٢/ فبراير سنة ١٩٥٨م، الموافق ٣/ شعبان سنة ١٣٧٧هـ، ولد في بيتِ علمٍ ودين، اشتهر بالنزعة الصوفية، فربي على هذا؛ لكنه أبى طبعه الأبي الانخراط في شطحات التصوف الميت وترهات الصوفية الجهلاء، تمهَّر في اللغات العربية والأردية والفارسية والإنجليزية، وكان خطيبا بارعا قوي الحجة، شديد الشكيمة، وكان أديبا بارعا باللغة الأردية، يمتلك أسلوبا سحريا عُرف به، وانتهى عليه، أصدر مجلة الهلال عام ١٩١٢م ، ثم مجلة البلاغ بعد منع الحظر على الأولى، واللتين لاقتا نجاحا باهرا

السيوهاروي[1] أمين عام جمعية علماء الهند في إعداد جواز السفر الجديد، فتنفس أهل

ولعبتا دورا كبيرا في توعية الشعب الهندي بخطر الاحتلال وضرورة المقاومة، فكان أحد أبطال الحرية والكفاح ضد الاحتلال الإنجليزي، وقد سُجِن مرات، لكنه خرج صابرا مثابرا لاتلين له قناة، ولم تزده البلايا إلا شدة، رأس حزب المؤتمر الوطني في الفترة بين ١٩٤٠م-١٩٤٦م، وكان اول وزير للتعليم في الهند بعد الاستقلال. ألف العديد من الكتب أهمها تفسير للقرآن باللغة الأردية ومااإليها؛ وانظر: أبو سلمان شاهجهان فوري، أبو الكلام آزاد: ايك سياسي مطالعة، (أبو الكلام آزاد: دراسة سياسية لحياته.

(١) أحد رموز العلم والاستقلال ، وأحد الدعاة البارزين والقادة المخلصين، الذين وقفوا بجانب الأمة المسلمة في الهند في أحرج وقت وأخطر موقف، هو الشيخ حفظ الرحمان السيوهاروي، ولد في ١٠/ يناير سنة ١٩٠١م الموافق سنة ١٣١٨م، وتخرج في الفضيلة في العلوم الشرعية من الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند سنة ١٣٤٢هـ، ثم انقطع إلى خدمة العلم والأدب والامة الإسلامية، ففي عام ١٩٣٢م انتُخِبَ عضوا للمجلس التنفيذي لجمعية علماء الهند، فجعل النهوض بالأمة الإسلامية مقصد حياته وغاية حله وترحاله، ومن على هذا الرصيف قدم للأمة الإسلامية من التضحيات الجسيمة والخدمات النبيلة ما سجله التاريخ بحروف ذهبية، فبعد ثورة عام ١٩٤٧م والتي أطلت في غمارها شمس الحرية والاستقلال حان أن يعطي المسلمون ضريبة جديدة للحب والوفاء والصدق والولاء، ففُجِّرت اضطرابات طائفية بين الهندوس والمسلمين، واشتباكات دامية بين الفريقين، فتحول شعلة نشاط وأمل الأمة المسلمة، يحاول إطفاء الحريق الطائفي، وإعادة الثقة بين الفريقين، والضغط على الحكومة لتؤدي دورها في استتباب الأمن واستقرار البلاد، والوقوف بجانب الضحايا والمتضررين.
كان الشيخ من الخطباء المصاقع، الذين لايُقْطَع لهم كلام، ولايُعَارَض لهم برهان، ومن الكتاب المكثرين الدقيقي النظر، الرشيقي الأسلوب، وله مؤلفات علمية قيمة، توفي في ١/ ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ الموافق ٢/ أغسطس سنة ١٩٦٢م، ودفن في مقبرة المهديان بدهلي؛ وانظر: أبو سلمان الشاه جهان فوري، مولانا حفظ الرحمن سيوهاروي ايك سياسي مطالعه؛ و عدد خاص بالشيخ السيوهاروي من جريدة "الجميعة".

الهند الصعداء، وعاد الشيخ إلى الهند، وكل ذلك ناشئ عن حبه العميق للجامعة[1].

ج-نبوغه في الخطابة:

كان حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي خطيباً ذلق اللسان قوي العارضة، شديد البرهان، كان يتحدث باستمرار ساعات طويلة كسحابة ممطرة، لا تمل ولا تنقطع، وكان أخطب العلماء في عصره، وأفصحهم على الإطلاق، حتى قيل: انتهت إليه رئاسة الخطابة في عصره.

ومن مزاياه الخطابية أنه كان يجمع بين فقه الفقيه وبلاغة الأديب وحرارة الداعية وروح المربي، وأصالة العالم ورواية المحدث وحسن المؤرخ ودقة المناظر، وترتيب المحاضر، فترى كلماته كأنها كائن حي، أوكأنما هي طائر له أحنجة، أو إنسان له قلب يخفق ولسان ينطق، كما أن خطبه ليست من الخطب الموسمية التي لا تنفك عن مواسم العام، فخطبة عن الهجري وأخرى عن المولد النبوي، وثالثة عن الإسراء والمعراج، وهكذا،لا؛ ولكنها خطب تثبت العقيدة، وتصلح العبادة، وتقوم الأخلاق، وتبين أسس التعامل بين الناس، وتشرح أسرار الشريعة ومرامي الأحكام الإسلامية.

د-مهارته في الكتابة:

كان الشيخ كاتبا رشيقا، سهل الأسلوب، عفوي البيان، فقد ظهر نبوغه في الكتابة في وقت مبكر، كان وثيق الصلة بالقلم، لايفارقه في الحل والترحال، كان ينطق قلمُه إذا سكت لسانه، وكان سلطان قلمه كسلطان لسانه، إذا خطب استمع إليه الحضور بشوق ولهف، وإذا كتب تناولته الأيدي بنهم ورغبة.

---

(١) انظر هذه القصة الرائعة في كتاب: **حيات طيب** بقلم الشيخ محمد سالم القاسمي، ج١، ص١٣٣-١٣٤، فلاينبئك مثل خبير.

وخلف الشيخ حكيم الإسلام أكثر من مائة كتاب علمية دعوية قيمة.

هـ-موهبته الشعرية:

الشعر له وقع حسن ومفعول ساحر في القلوب، يملك الشعر الواحد من التأثير والهزة والإثارة مالا تملكه خطب طويلة وعريضة.

كان الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي شاعراً مجيداً، بدأ الشعر في أيام الطلب بالجامعة، وكان يقول الشعر باللغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية، ومعظم الأبيات باللغة الأردية، كان ينتحل اسم "عارف" في أشعاره، وله عدة دواوين، منها: ١- جنون الشباب، و ٢- عرفان عارف، و٣-قصة العين، و ٤- أمنية دار العلوم، وكلها مطبوع، مما يدل على ذوقة الأدبي وامتلاكه لناصية البيان.

و-مؤهلات القيادة الرشيدة:

كان مع ذلك قائداً سياسياً بارزاً، له مشاركة فعالة في الحركات السياسية، أسس في آخر أيام حياته هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وهي رصيف سياسي مركزي للمسلمين في الهند، يجمع بين الانتماءات والمذاهب الإسلامية المختلفة، ولها مواقف مشكورة في خدمة الإسلام والمسلمين.

توفي الشيخ حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي عام ١٤٠٣هـ، ودفن في المقبرة القاسمية، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

مؤلفاته:

١- *تعليمات اسلام اور مسيحى اقوام* (التعاليم الإسلامية والنصارى).

٢- *اسلام كا اخلاقى نظام* (النظام الخُلُقي للإسلام).

٣- التشبه في الإسلام.

٤- اسرائیل کتاب وسنت کی روشنی میں (إسرائيل في ضوء الكتاب والسنة).

٥- اصول دعوت اسلام (مبادئ الدعوة الإسلامية).

٦- انسانیت کا امتیاز (المميزات الإنسانية).

٧- ایک قرآن (القرآن الواحد).

٨- حدیث رسول کا قرآنی معیار (المعيار القرآني للأحاديث النبوية).

٩- خاتم النبيين- صلى الله عليه وسلم-.

١٠- روايات الطيب.

١١- سائنس اور اسلام (الإسلام والعلم).

١٢- شان رسالت (مكانة الرسالة).

١٣- شہید کربلا اور یزید (حسين شهيد كربلا ويزيد).

١٤- علم الغيب.

١٥- علماء دیوبند کا دینی رخ اور مسلکی مزاج (علماء ديوبند اتجاههم الديني ومزاجهم المذهبي).

١٦- مسلک علماء دیوبند (مذهب علماء ديوبند).

١٧- فلسفہ نماز (فلسفة الصلاة).

١٨- كلمة طيبة (الكلمة الطيبة).

١٩- مقالات طيبة (المقالات الطيبة).

٢٠- اسلامی آزادی (الحرية الإسلامية).

٢١- عالمی مذہب (الدين العالمي).

٢٢- مقامات مقدسہ (الأماكن المقدسة).

٢٣- خطبات حکیم الإسلام.

٢٤- نونية الآحاد.

٢٥- فلسفہ نعمت ومصیبت (فلسفة النعمة والنقمة).

٢٦- فتوی دار العلوم اور اس کی حقیقت (حقيقة فتوى دار العلوم).

٢٧- اسلام اور فرقہ واریت (الطائفية في الإسلام).

٢٨- سفر نامہ افغانستان (مذكرات رحلة أفغانستان).

٢٩- عرفان عارف (ديوان مطبوع).



مُقدمة المؤلف

من الطبيعي أن الأشياء التي تساندها القوة والدولـة تبهـر العيـون وتختلـب القلـوب، لـيس هـذا في الفضـائل فحسـب؛ بـل في كـل الأشـياء؛ حتـى الفـواحش والمنكرات والرذائل والمستقبحات إذا ظهرت مدعّمَةً بالقوة والحكومة سحرت عامة الناس وجذبت انتباههم، وعلى العكس من ذلك فـإن الـذل والانكسـار والضـعف والاندحار أمور إذا صاحبت فضيلةً من الفضائل ومكرُمةً من المكـارم تجعلهـا شـيئاً تافهاً، لا يُعبأ به لدى عامة الناس.

إن الحضارة الإسـلامية القائمـة عـلى السـذاجة والزهـد والقناعـة والتـدين والعبودية لله وحده واتباع السنن النبوية، إذا خذلتها الحكومة والدولة جرَّاء سـيئات أعمالنا تنكَّر لها عامة الناس -المأخوذين بسحر القوة والشوكة- فأصـبحت في الـدنيا مطرودة، وتعرضت لكثير من المشاكل، وجانبها الأحبـاب قبـل الأغيـار، وتناسـاها الأصدقاء قبل الأعداء.

ومن جهة أخرى فإن الحضـارة الغربيـة- التـي لـيس مصـدرها وحيـاً إلهيـاً وتوجيهات نبوية؛ بل المادة روحها، وإشباع الغرائز واتباع الهـوى لحمتهـا وسـداها- إذا وجدت حكومات تحميها، ودُوَلا تقويها، حصدت إعجابًا عاماً، وصادفت هـوًى في قلوب الشباب، فَوَجَدَتْ في شبه القارة الهندية عشاقاً يتفانَوْن في سبيلها، ويرحِّبون حتى بأقبح أعمالها وأشنع مواقفها، وليس هذا إلا من سحر القوة ونشوة الدولة.

إن غلبة الغرب وضعف الشرق أدى إلى تصادم الحضارات؛ مما أسفر أن نور الشرق تضاءل، وظلام الغرب ساد قلوب المسلمين، وبلغ بهم الأمر إلى أنهم آثروا عتبة التمدن الغربي على عزة التدين الإسلامي، فأصبحوا يعيشون حياةً فقدت منهج السلف والخلق الإسلامي وعادات المؤمنين الراشدين، فلا جباهَ تعلوها التقوى، ولا وجوهَ يسطع عليها الصلاح والعفاف، ولا لباسَ كلباس الصلحاء، ولا أخلاق كأخلاق العلماء القانتين؛ بل حلَّت محلها أفكار وأعمال غربية متمثلة في الإعجاب بالرأي واتباع الهوى ومنكرات الأزياء والملابس والأعمال والأخلاق، فكأنَّ سنن الأقوام الضالة التي انتصرت عليها النبوة المحمدية أصبحت بعد ثلاثة عشر قرناً نبراساً ومعيار الرقي والسعادة مكان الأسوة الحسنة.

والاتباع والولاء والتقارب والتشابه التي كان من حقها أن تتم مع علماء الأمة وصلحاءها جُعِلت تُعقَد مع الكفار المتعبدين للمادة والمعدة.

ثم هذه الفتنة: فتنة التشبه بالكفار لم تختص بالجانب العملي؛ بل تجاوزته إلى الجانب العلمي، فذاب في القلوب الفرق بين الخير والشر، فمكروهاتُ الأمس تُمارَس اليوم كمباح مشروع.

ومن الحقيقة الصارخة أن الأمة الإسلامية عادت تستحسن التشبهَ بالكفار والولاء لليهود والنصارى، وتحقيقاً لهذا المقصد الخبيث تُشكَّل يوماً بعد يوم لجانٌ وجمعياتٌ من قِبَلِ أعداء الله ورسوله، ويُطرَح كل يوم نقاشٌ حارٌ في الصحف والمجلات لإثبات أن نِتاج وإبداعات هذه الحضارة الغربية وما أفرزته من نتائج،

سواء تتصل بالملابس أو بالزينة والجمال أو ما يتعلق بالمعيشة وما إليها، تُوافِق تماماً الدينَ الإسلامي؛ بل تخدم الدين وتحقق مقاصده العظيمة.

وعلى كل فإن هناك محاولاتٍ جادة لتشكيل أمة باسم الإسلام، تتنكر للإسلام وترفض روحه، وإن طالت هذه الإغارات العشوائية على الدين الإسلامي الحنيف - ولا قدر الله- ضاعت الصورةُ الحقيقية للإسلام، وخفيت محاسن هذا الدين على القلوب، وفقد المجتمعُ الإسلامي كل ميزة علمية وعملية.

ففي خِضَمِّ الأحداث والفتن وعصر الإلحاد والمحن أُلقيَ في رُوعيْ أن أؤلف حسب الوسع كتاباً حول موضوع التشبه بالكفار، وأُوضح الموضوع من منظور شرعي وعقلي، ساعياً لإعادة الخليقة إلى المركز الأصلي الذي هو الصراط المستقيم: صراط الأنبياء والصالحين، كاشفاً عن سبل الهوى وطرقات الشيطان المتعرجة التي تفرقت بالناس عن سبيل الله، فبدأتُ التأليف، متوكلاً على الله وهو المستعان.

منهجي في الكتاب:

إن خطورة الموضوع وسعة جوانبه لكثير من القضايا الأصولية والفروعية وكونه من المواضيع التي أُثيرت حولها الشكوك والشبهات لا سيما في قلوب شباب الجامعات الحكومية، اقتضت أن يأخذ البحث حقه من المرونة والشمول؛ ولكن هذا المجهول الذي جعل طلب العلم مقصد حياته يفقد مؤهلة التأليف كلياً، إضافةً إلى أن قلة العلم وضآلة الاستعداد والكسل الطبيعي لم تدعني لأتفرغ لهذا التأليف، وما هذا الكتاب إلا سطور جمعتُها مشرَّدة مرتجلة، حسبما سنحت لي الفرصة، وصاحبني

التوفيق؛ حتى تكوَّن بشكل تدريجي جزءان من الكتاب:

والجزء الأول يتحدث عن المباحث والمبادئ ذات الصلة بالتشبه، والجزء الثاني يتناول الفروع الفقهية المتفرعة على أصول التشبه إن شاء الله.

إن مباحث هذا الكتاب في الحقيقة هي قطوف دانية اجتنيتها من تراث السلف العلمي؛ بما فيها "أحسن السير وأحكام الغير" للدمياطي(١)، و"حجة الله البالغة" للشاه ولي الله الدهلوي(٢)،و"اقتضاء الصراط المستقيم" للعلامة ابن

(١) هوعبد المؤمن بن خلف الدمياطيّ، أبو محمد، شرف الدين، (٦١٣ – ٧٠٥ هـ = ١٢١٧ – ١٣٠٦ م)، حافظ للحديث، من أكابر الشافعية.

ولد بدمياط. وتنقل في البلاد، وتوفي فجأة في القاهرة. قال الذهبي: كان مليح الهيأة، حسن الخلق، بساما، فصيحا لغويا مقرئا، جيد العبارة، كبير النفس، صحيح الكتب، مفيدا جدا في المذاكرة. وقال المزي: ما رأيت أحفظ منه. [انظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) **الأعلام**، (القاهرة: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م)، ج ٢، ص ٣٤١.

(٢) هو مسند الهند، الإمام المجدد أحمد بن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه، عظيم من عظماء الإسلام، ومفخرة الأمة الإسلامية، ومجدد الدين المتين في القرن الثاني عشر في الديار الهندية، ومؤسس المدرسة الفكرية لمعالجة الأحكام الشرعية ورموزها وأسرارها في ضوء العقل السليم والفكر المستقيم، وصاحب مؤلفات علمية قيمة شرقت وغربت، سارت بها الركبان وطارت في الخافقين، ولد يوم الأربعاء في ٤ من شهر شوال عام ١١١٤هـ/ ١٧٠٣ م في قرية بهلت بمديرية مظفر نكر، الهندية، وكان ذلك قبل وفاة السلطان عالمكير بأربع سنوات.

تلقى جميع العلوم المتداولة من والده المحدث الشيخ عبد الرحيم، الذي كان مديرا لمدرسة كانت تسمى المدرسة الرحيمية، وكان الشيخ ولي الله الدهلوي مفرطا في الذكاء والفطنة، سريع الفهم، جيد الحفظ، كانت أمارات النبوغ والعبقرية بادية فيه منذ الصبا، حيث أكمل حفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره، وأكمل دراسته الابتدائية وهو ابن عشر سنوات، ولما توفي والده الشيخ عبد

الرحيم عام ١١٣١هـ كان عمره سبعة عشر عاما، فتولى منصب التدريس في المدرسة الرحيمية، واستمر فيه اثني عشر عاما كاملا، وفي هذه الفترة وجد الفرصة متاحة لقراءة الكتب ومطالعتها بنهم كبير، فتوسعت آفاق معرفته، ونضج إدراكه وفهمه، وتحددت لديه في هذه الفترة معالم منهجه العلمي القادم.

وفي أواخر عام ١١٤٣هـ سافر لأداء فريضة الحج، وبعد أدائها زار المدينة المنورة، وقرر أخذ الحديث عن علماء الحرمين، فحضر دروس الشيخ أبي طاهر المدني، ودرس عليه كتب الحديث كـ"صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم"، و"سنن الترمذي"، و"سنن أبي داود"، و"سنن ابن ماجة"، و"موطأ الإمام مالك"، و"مسند الإمام أحمد"، و"الرسالة" للإمام الشافعي، و"الأدب المفرد" للإمام البخاري، و"الشفا في حقوق المصطفى" للقاضي عياض، وحصل على الإجازة من الشيخ لرواية كتب الحديث.

وعاد إلى مكة في العام التالي لأداء الحج ثانية، وفيها درس "الموطأ" على الشيخ وفد الله المالكي، وحصل منه على الإجازة لجميع مرويات والده من الأحاديث، وشارك في درس "صحيح البخاري" للشيخ تاج الدين القلعي. كما استفاد من علماء الحرمين الآخرين، رحمهم الله.

بعد هذا النهل من مناهل المشايخ في الحرمين لاسيما في مجال حديث الرسول صلى الله عليه وسلم رجع الشيخ ولي الله الدهلوي إلى الهند في شهر رجب عام ١١٤٥هـ واستمر في عمله إلى نهاية عمره.

قام الإمام ولي الله الدهلوي بعمل تجديدي وإصلاحي ضخم جدا، ولا يمكن تخيُّل ضخامة ذلك العمل التجديدي ما لم نطلع على أحوال المسلمين في الهند في تلك الفترة، وما لم نتصور تلك الظروف التي آلت إليها الحالة السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية للمسلمين في الهند في الفترة التي بدأ فيها الشيخ عمله التجديدي، وكل ذلك مبسوط في كتب التاريخ.

ومن مآثره العظيمة:

- تفرغه لتدريس الحديث الشريف والعلوم الإسلامية في أحرج وقت، عند ما كان المسلمون غاية

تيمية[1]، و"كشف الكربة عن أحوال أهل الغربة" لابن رجب حنبلي[2]، وبعض

في الضعف السياسي والاقتصادي والتعليمي، وكانت دروس الشيخ وقودا عظيما للثورة الفكرية والعملية والنضالية القادمة؛ حيث أبناؤه وأحفاده وتلامذته هم الذين قادوا حركة النضال ضد الاستعمار وحركة التعليم والإصلاح والتجديد.

- الوعظ والإرشاد؛ فكان المسلمون نفدت بطارية قلوبهم ببعدهم عن الإسلام وانخراطهم في الشكليات التي لاتمت إلى الإسلام بصلة، فأحياها الشيخ بضربه على أوتار القلوب.

- العمل العلمي والإصلاح الفكري، وذلك من خلال تبين مواطن الضعف والخور الكامنة في الأمة الإسلامية، وتوجيه العقول إلى التدبر والتفكير والاجتهاد، ومن خلال تأليف كتب علمية قيمة فريدة، كانت إضافة إلى المكتبات الإسلامية، كأمثال "حجة الله البالغة" و" إزالة الخفاء" وما إليها.

- إحياء علوم الكتاب والسنة من أهم المآثر التجديدية للشيخ ولي الله الدهلوي؛ حيث كانت الأمة الإسلامية في عصره منشغلة بالعلوم العقلية والآلية الجافة التي لاتقدم ولاتؤخر، ولاتغني من جوع، فأحيا الله تعالى علوم الكتاب والسنة على يد هذا الإمام الرباني وأبنائه وتلامذته، فترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية.

توفي الشيخ رحمه الله في شهر المحرم عام ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م، ودفن بالمقبرة الكائنة في مهديان بدهلي، تقبل الله منه جميع ما قدم للأمة الإسلامية أحسن قبول، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، فقيه أصولي ومفتي الدين الحصيف وصاحب الآثار الكبرى في علوم الدين والفكر الإسلامي. ولد عام ٦٦١-٧٢٨هـ، وتوفي عام ١٢٦٣-١٣٢٨م، وله خدمات جسام في الحفاظ على الفكر الإسلامي ومؤلفات قيمات، قبته الأمة عن جدارة "شيخ الإسلام".

(٢) هوزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، الواعظ. الإمام الحافظ، المحدّث، الفقيه، ولد في بغداد عام ٧٣٦ - ٧٩٥هـ، وتوفي بدمشق عام ١٣٣٦ -، ١٣٩٣وسمع من أبي الفتح الميدومي. له مصنفات عديدة، منها: شرح الترمذي؛ شرح علل ا ترمذي؛ طبقات الحنابلة؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري لم يتمه؛ وجامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم؛ التوحيد وغيرها.

تصانيف الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله.

وكتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" لشيخ الإسلام العلامة ابن تيمية، وإن كان مؤلَّفًا في موضوع التشبه، ومنثورة دررُه العلمية في صفحات الكتاب؛ لكن علم الشيخ الزاخر المتلاطم الذي لا يجري في مجرى واحد؛ بل في مختلف المجاري العلمية والفنية جعل الكتاب تتفرق مباحثه، وينقطع سياقه، فعمدت إلى نظم هذه الدرر في سلك واحد منتظم؛ حتى يبدو أن الموضوع مترابط الأجزاء، ومنتظم السلك، ويصير الكتاب ماءً زلالاً متيسر الوصول لدى الظمآن.

والرجاء من رواد الحقيقة أن يلتقطوا من هذه المائدة، ولو لتبديل المذاق كما يستفيدون من الموائد العلمية الكثيرة؛ أدعوهم أن يقفوا مع الكتاب لا وقفة عابرة؛ بل وقفةَ تأملٍ وتدبر، علَّهم يجدون الحقائق الغامضة التي تحصل دائماً بكمال الاهتمام وتمام الاجتهاد يجدونها بغاية اليسر والسهولة.

لا أدَّعي أن هذه السطور تُحْدِثُ ثورةً عاجلةً في أخلاق القوم وسلوكهم؛ فهي خلاف سنة الله، لا سيما إذا كانت الدعوة هادفة إلى السلوك بالناس الصراط المستقيم، الذي أمضى الأنبياءُ -عليهم السلام- أعماراً وسنين في هذه السبيل، نعم! إن هذا الكتاب يمثل نواةَ سعادةٍ تُبذَر في حقول القلوب، وأرجو وأدعو أن تُثْمِر وتُغَيِّرَ وجهة النظر، وتُطَهِّرَ القول والعمل بالماء الصافي.

ولا يخفى على أهل النظر والدراية أن هذا الكتاب لا يستهدف تضييق النطاق على قلوب القوم وقوالبهم، ولا المساس باتجاهاتهم وعواطفهم؛ بل هي دعوة للأمة الإسلامية من حيث الأمة إلى تبني الوقار والعزة والحمية الدينية والاستقلال الذاتي؛ حتى يحدث فيهم شعورٌ بضرورة الاحتفاظ بالشعائر والخصائص، ولم ينهدم قصر الكيان الوجودي للأمة.

فإن الحياة القومية لا يقوم لها أساس مالم تؤسس على خصائص أولئك القوم.

ومن فقد وجوده الحقيقي لايثبت له بناء، ولايستقل له كيان، فلا له استقرار، ولا له ملاذ آمن، يقيه محاولات التذليل والإهانة، فأي قوم يعملون على إلغاء الخصائص القومية يجدر أن يُعتبروا قتلةَ الغيرة والحمية، وأعداءَ الدين والملة.

وأختم مقدمة الكتاب بأن كل من يريد التعليق على هذه المسألة أوينتقد الكتاب بخلوص نية وصلاح طوية، أرجو منهم جميعا أن لا يركزوا كل تفكيرهم في مسألة جزئية واحدة، قد يجعلونها أساس البحث والنقاش، لا؛ بل الأجدر أن يمعنوا النظر في الكتاب كله، ويبنوا رأيهم على مجموع ما يستفاد من الكتاب، والذي يعكس وجهة نظر الإسلامية في الموضوع، فإنه من الإمكان بكثير أن يتهور الإنسان بنظرة عاجلة للكتاب أومسألة منه، ويحكم على الكتاب كله بأن فيه ضيقاً وحرجاً كثيراً؛ ولكن النظرة الشاملة التي تبحث المسألة في صميمها وأخواتها تجدها معقولة ذات حكمة، وتصنفها ضمن الاحتفاظ بالشخصية والاعتداد بالذات.

وأرجو من الكرام أن يضعوا في الاعتبار أن مؤلف الكتاب طالب قليل العلم والثقافة، فعسى أن يجدوا فيه ذخراً من الخطأ والنسيان؛ فالرجاء منهم أن ينبهوا على خطأ أدركوه أو نقصٍ وجدوه، ويصْفَحوا عن المؤلف، والعذر عند كرام الناس مقبول.

محمد طيب القاسمي

عفا الله عنه وعن والديه

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند ـ الهند

تمهيد

قانون التغير والانقلاب قانون ثابت ومتحكم في جميع الأمم والأزمان:

شهدت الدنيا في تاريخها الطويل مئاتٍ من القوانين، وألوفاً من السنن التي قامت فضاعت، وانتشرت ثم اندحرت، سوى قانون واحد لم يقبل أي تغيير وتبديل، وانفلات وانقلاب، وهذا القانون هو قانون الانقلاب بدوره، فالانقلاب والتغير أمر مستمر دائم، لا كائنَ – حياً أو ميتاً، جوهراً أو عرضاً، كيفاً أو كماً– إلا وقد أحاط به وأثَّر فيه أيما تأثير، ولم يَدَعْ هذا القانون الزمانَ وما فيه، والمكانَ وما فيه يبقى على نمط واحد وحالة واحدة.

انْظُرْ في الأرض وما عليها، كيف تتحكم فيها قوانين البناء والخراب، والانتصار والانهيار، والتغيير والتبديل، والفناء والبقاء.

وانظر في السماء وما فيها،كيف تتكبل بالتقلبات والثورات، والإياب والذهاب والإقدام والإحجام وما إليها من الأحوال المتناقضة.

أما الكائن البشري أشرفُ أنواع الخليقة الذي يدعي فضيلته وخيريته على الخلق كله – وله حق من ذلك– فلم يَسْلَمْ فرد من أفراده، ولا طائفة من طوائفه في أحوالهم الاجتماعية والفردية من صروف الدهر وتقلباته، وسنن الصعود والهبوط والعزة والذلة.

إن الإنسان الظلوم الجهول إذا عزم وسلك طريق السعادة، يفوق ملائكةَ

القدس، فلا يبلغون-الملائكةُ- سموَّه وارتقاءه، وقد يتحدَّر هذا الإنسان الزكي الطاهر جرَّاءَ شقائه وسيئاته، في حضيض الذل والهوان؛ حتى يبدو أذلُّ وأتفهُ ما في العالم أفضلَ وأشرفَ من الإنسان.

وهذا وفقاً لما قرره القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [سورة التين: ٤-٥].

فالحاصل أن الإنسان أشرفَ الخليقة تتقاذفه أمواج التغير والانقلاب، وتتلاطمه تيارات الثورات والتقلبات، وهذه سنة الله في الكون، فنوائب الدهر وصروفه ما زالت تُدَحْرِجُ العالمَ ككرة بيد اللاعب، وتثير حوادث مذبذبة، حوَّلت الملوك الجبابرة الذين قهروا الشعوب بالحديد والنار إلى رعايا ذليلة مغلوبة الأمر، وجعلت الرؤوس- التي طالما ازدانت بالتيجان الفاخرة- أوكارَ الذل، وأعشاشَ المهانة.

ومن جهة أخرى فإن الدهر إذا تهلَّل وجهُه يُعطي كلبَ أصحاب الكهف شرفاً يؤهِّله ليتكاتف مع الإنسان ابن آدم، وإذا عبس وتمعَّر وجهه يرمي بابن أحد أولي العزم من الرسل (سيدنا نوح عليه السلام) في طبقة أهل النار، ويصم الأسرةَ النبوية بعار، فقانون الانقلاب سنة مستمرة، تعم الأشخاص؛ بل جميع الأمم السالفة واللاحقة، لايوجد في الدنيا قوم ولا أمة إلا وهي خاضعة لقانون التجدد والانقلاب، فكم من قرن أولي قوة وعزيمة قهروا العالم بقوتهم وجبروتهم، وبهروا الخلقَ بجلالهم وسطوتهم، ثم دارت بهم الأيام، وصرعتهم مصرعاً لا يُبقِيْ ولا يذر.

فهناك أقوام جاهروا بـ"من أشد منا قوة"، وجابوا الصخر كالشمع بقوتهم الخارقة، ونحتوا من الجبال بيوتاً آمنين، وعمروها أكثر مما عمروها، ويثير حتى اليوم

تاريخُ مآثرهم الصناعية والبنائية انتباهَ العالم كله، كالتي تسمّى عاداً وثموداً وأصحاب مدين وما إليها، فهم سادوا العالم بقوتهم الشديدة، واستكبروا في الأرض باكتشافاتهم البديعة؛ ولكنهم إذا أُعجبوا بقوتهم، وتهافتوا على إشباع الغرائز، وانحطوا في الأخلاق والسلوك، ظهرت سنة الله في الأمم والأقوام، فأخذهم أخذاً أليماً شديداً جعلهم عبرة للآخرين، ومحا رُقيَّهم وازدهارهم محواً لم يُبقِ لهم عيناً ولا أثراً ﴿**فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ** ⁽٨⁾﴾ [سورة الحاقة:٨]. ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا** ⁽٩٨⁾﴾ [سورة مريم: ٩٨].

فكم من قوم وأمة تمكنوا في الأرض، وتربعوا على عرش المُلك والقوة، ثم تغلبت عليهم قوى الانقلاب، وتركوا عروشهم خالية لمن بعدهم. ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾. [آل عمران:١٤٠].

الأمة الإسلامية وسنة الازدهار والانهيار:

ما كان قانون الانقلاب ليفوت الأمة الإسلامية، فانظروا نظرة اعتبار واتِّعاظ، كيف وقد مرت على الأمة الإسلامية قرون، كانت سعادةُ الدنيا وخيراتها نصيبَ كل رجل مسلم، كان المسلمون فيها مثالَ السعادة والكرامة، وذكرى حية للوقار والإباء، كانوا لم يُر لهم كفؤٌ ولا مثيل في تلك العصور؛ فإنهم كانوا نسيج وحدهم، كانت الدنيا تضطرب وترتجف بشوكتهم، وملوك العالم يخشون بطشهم وقوتهم، تنخلع باسم الإسلام قلوب المستكبرين الجبارين في الأرض؛ لأن القيادة والسيادة كانت نصيبهم، والعروج والازدهار أمامهم، كانوا سائرين على طريق الفلاح والسعادة تاركين ورائهم رموز التخلف والانحطاط.

ولكن ماذا حدث بعد كل هذه السعادة والقيادة؟ صار رجال هذه الأمة المشرقة أظلمت قلوبهم، وماتت عزائمهم، فتراجعت انتصاراتهم، وهم اليوم مجموعة من البشر تستحيي منها الإنسانية، وتبتعد عنها مكارم الأخلاق، يا للعجب! بداية مشرقة، ونهاية مؤسفة.

مستقبلهم يخجل أمام الماضي، فأسفاً لأمة أدارت طويلاً جام الدهر، ثم دار بها جام الحديد والنار والعار والشنار، نعم، إن الأمة الإسلامية إذا أظل رأسَها العهدُ السعيد، بلغت من القوة والإباء أن كسرت هيبة القوة المرهبة: قيصر وكسرى، وغيرت مجرى التاريخ ووجهة الحكومات.

ثم إذا أطلَّ عليها قرن مشؤوم، حُرمت كل القوة والثقل، وعملت قوى العالم كلُّها على تحطيم ظهرها وتقليب أمرها.

"بِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ".[1]

فغابرُ هذه الأمة وحاضرها ماثلان أمامنا، كانت في الغابر على أوج السعادة والرقي والازدهار، وبنت أمجاداً وفخاراً، وشيَّدت أقوى حضارة، وأرقي مدنية، نسبها التاريخ إليها في الماضي القريب.

ونرى الأمة في حاضرها اعتورها طوفان الهلاك والدمار، تتناوبها الفتن المتلاحقة والمحن المضطربة.

(١) أخرجه البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، (السعودية: مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، ج٢، ص١٦١، رقم ٧٢٨.

ومما يثير الاستعجاب والدهشة أن أمة راقية مزدهرة متقدمة كسيل جارف كالأمة الإسلامية، كيف صَرَعها الدهر بشكل مفاجئ سريع، وتورطت أمة قوية -كهذه- في الضعف والخور والأمراض المستعصية المتنوعة؛ حتى لم يبق لآخرها صلة برعيلها الأول.

نتحدث عن هذا القانون، قانون الرقي والتخلف، قانون الازدهار والانهيار قانون العزة والذلة، قانون القوة والضعف؛ كي نتوصل إلى تحديد الأسباب الحقيقية والعلل العاملة في هذا الصعود والهبوط.

تحديد مرض القوم:

وإذا اقتحمتُ في هذا الميدان: ميدان تحديد المرض وكشف العلة الحقيقية وجدت أن هناك مئاتٍ من العقول الذكية منقطعةٌ إلى الاشتغال بتعيين المرض الحقيقي للأمة الإسلامية، وكلٌّ له رأي ووجهة، فصار مَثَلُ هذه الأمة بكثرة الأطباء والمعالجين مَثَلَ مريض، عمَّ المرضُ كلَّ جزء من أجزائه، فشُلَّت يداه وتعطلت قواه، واجتمع الأطباء البارزون ليشخِّصوا الأمراض الحقيقية للأمة، ويتوصلوا إلى أدوية ناجعة مفيدة، تستأصل الأمراض كلياً.

وتحيَّر الأطباء في تحديد المرض وأسبابه وعلاجه، فكلٌّ شخَّص المرَض ووصف الدواء حسب اتجاهه وميوله.

فاعتبر البعضُ فقر الأمة وضعفها الاقتصادي هو المرض الحقيقي للأمة، فدعا إلى ضرورة اكتناز المال والثروة، والإقبال الكلي على جمع ما يحقق الربح الاقتصادي؛ حتى المعاملات الربوية والقروض المصرفيه الربوية، فالحاصل أن كل

مفكر مخلص استعمل رأيه وفكره في تشخيص المرض ووصف الدواء حسب ما عـنَّ وظهر له؛ لكن الواقع أن الكل عاجز عن الوصول إلى الأغوار، فأنظار هؤلاء الأطباء الشكليين السطحيين وقعت في فُخِّ الأسباب الظاهرة، وما تعدَّت إلى السبب الحقيقي الفاعل، نظروا في أن الفقر والعبودية والجهل والنفـاق ومـا إليهـا هـي أبـرز أسـباب ضعف الأمة وخورها؛ ولكنهم لم يتفكروا في أن هذه الأسباب هي الأخري حوادث لها أسباب وعلل، فلماذا حدثت في الأمة هذه الأسـباب، ومـا هـو السـبب الحقيقـي المستتر في طي هذه الأسباب، الذي يُحدِث سبباً تِلوَ سبب.

سلَّمتُ أن الفقر سبب الضعف والانحطاط؛ ولكن ما هو سبب الإفـلاس؟ عرفت أن العبودية عنوان الفساد والخراب؛ لكن كيف حلت العبوديـة محـل السـيادة والقيادة؟ كلٌّ يعرف أن الجهل والنفاق أسـباب الـذل والمسـكنة؛ ولكـن بـأي مسـار تسربت هذه الأمراض الفاتكة إلى شريان الأمة؟ يزعمون أن البطالة سـبب الشـــرود الفكري والتفرق الجسدي؛ ولكن السؤال المهم أن البطالة كيف قامت مقام الأعـمال النافعة الشاقة؟.

فاتضح أن عقول هؤلاء الأطباء عجزت عن اكتشاف العلة الحقيقية التي هي علة العلل وسبب الأسباب، ومعلوم بديهياً أن العاجز عن اكتشاف العلة هـو أعجـز عن المعالجة ووصف الدواء الناجع، وإذا فسد الكشف، وذهب صـحيح الوصـف لم يبق أمل الصلاح والصحة في تلك العيادات الطبية، ومن هنا ما زال المرض في تزايـد وتصاعد، والمريض كل يوم إلى الفناء أقرب، وعن البقاء أبعد.

وإذا كان الأطبـاء الظـاهريون حتـى اليـوم فاشـلين في العـلاج، فتعـالوا إلى

الأطِبَّاء الحقيقيين، المطلعين – بفضل الله وتوفيقه– على العلل الظاهرة والخفية للمرض، الذين أحيوا قلوبَ كثير من الأمم الميتة، فيقظت، وتمتعت بالحياة، وهلمُّوا بصفة خاصة إلى عيادة أعظم الأطباء الروحانيين: إمام الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الأمين، الذي أنشأ عرب الجاهلية الذين كانوا في أقصى غاية من الجهل والفقر والنفاق والشقاق واتباع الهوى وعبودية النفس، لا كانوا لله، ولا للخلق، ولا إيمان في الجنان، ولا عمل بالأركان.

عربُ الجاهلية الذين جعلهم سُوءُ خلقهم ونقضُ عهودهم أعداءَ للأقارب، وأصدقاءَ للأجانب، وألقاهم فسادُهم العقيدي والعلمي والعملي وحياتُهم المضطربة المتمثلة في غاية الجهل والسفه والنفاق والشقاق وغيرها، ألقاهم في مؤخرة الأمم، وفي أعقاب الأمم المتخلفة، ووصلتهم بالبهيمية المتوحشة.

الوصف الطبي النبوي:

انظر في العلاج النبوي، فهو لم يذكُرْ في أول كلمةٍ ألقاها إلى القوم بعد البعثة: يا قوم! إن الفقْر هو الذي ألقاكُمْ إلى التهلكة، فاجمعوا المال، وكذلك لم ينشئ مصارف وبنوكًا للمعاملات الربوية؛ حتى تتوفر الثروة، وتنقطع المشكلة، ولم يؤسس مدارس وجامعات تقليدية، ولم يقم بنشر ادعاءات مكذوبة من خلال اللافتات والإعلانات؛ بل جاء بعلاج بسيط سهل التناول، فقال ما حاصله: يا أيها الناس! أنتم المرضى، وأنا بشر مثلكم، وأكثركم صحة؛ بل أصح السابقين واللاحقين، ملآن بالروحانية وصحة المزاج واعتدال الأعمال.

فمن يريد منكم الصحة والاستقامة فليعمل على أن يكون مثلي، يقول كما أقـول، ويعمل كما أعمل، ويعبد كما أعبد، ويعتاد بمثل ما أعتاد، ويحيَى حياة تشابه حياتي.

فأكثركم موافقاً لحياتي في المظهر والمخبر هو أكثـركم صـحة وقـوة وفتـوة في الظاهر والباطن، فإني بُعثتُ أسوة حسنة تتوفر فيها وسائل التطهير القلبـي والقـالبي ومقومات الأخلاق التـي تُـرْضِي ربكـم، فاتبـاعي هـو قطـع الأمـراض مـن الأسّ والصميم، كما بيَّن لهم أنه جاء بوصفة شافية الصدور، بالغةٍ أقصى العقول والقلـوب، وهو القرآن الكريم، إلا أن الاستشفاء به لا يصح إلا باتباعي، فإن مـا يحويـه القـرآن من علوم وحقائق يتمثل في كياني أعمالاً وأخلاقاً، إن المثل الأعلى للإنسانية الذي يحفه الكتاب المبين، يتكيَّف في قلبي وقالبي، فلله قرآن علمي مسطور، أنطقه بالوحي، وله قرآن عملي منظور، وهو أنا.

فأنا بيان شـاخص للقـرآن وتفسـير لمعانيـه، أنـا وكتـاب الله ليسـا حقيقتـين متناقضتين؛ بل وَجْهَان لحقيقة واحدة، القرآن ينطوي على مباني العلوم ونقوشها، وأنا أمثل معانيها وأعمالها، فقولي علم القرآن وفعلي عمله.

"وكان خلقه القرآن".[1]

(مقولة قالتها الصديقة عائشة رضي الله عنها عند ما سئلت عن خلق النبي – صلى الله عليه وسلم–).

(١) أخرجه احمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **مسـند أحمـد**، تحقيـق: شعيب الأرنـؤوط – عـادل مرشـد، وآخـرون، (بـيروت: مؤسسـة الرسـالة، ط١، ١٤٢١ هــ – ٢٠٠١م)، رقم ٢٣٦٠١.

فأنا بُعِثْتُ قدوةً عمليةً لعلم القرآن الكريم؛ حتى يتعلم مرضى العالم كله بالنظر في أعمالي وسلوكي استعمال الوصفة الطبية القرآنية.

وعلى كل؛ فإن القرآن كما يجمع بين دفتيه بِحاراً زاخرة بالعلوم والحقائق كذلك كانت شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم- جامعة لمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال؛ فلا جانب من جوانب الحياة إلا وترك فيه نبينا – صلى الله عليه وسلم- أسوةً عمليةً حسنةً، فمعاني الأخلاق الفاضلة والقيم الرفيعة التي دعا إليه القرآن واشتمل على مبادئها جاءت سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم- بقدوة عملية معقولة لها؛ بما فيها العادة والعبادة والآداب والأخلاق والمدنية والاجتماع، والولاء والبراء، والحب والعداء، والسفر والحضر، والسلم والحرب، والأكل والشرب، والنوم واليقظة، والموت والحياة، وما إليها من الأمور الكثيرة التي هذَّبها النبي –صلى الله عليه وسلم- وجاءت أعمالُه نبراساً منيراً ونموذجاً عملياً رفيعاً لهذه الأمور كلها، يفرق بين الحسن والقبيح، ويميز بين الطيب والخبيث، وبين الصحيح والسقيم.

والحاصلُ أن العلاج الذي وصفه النبي – صلى الله عليه وسلم- لمرضى الجاهلية هو اتباع سنة المصطفى – صلى الله عليه وسلم- وتطبيقها في الواقع العملي؛ فإن حياته معيار الصحيح والسقيم والصلاح والفساد، ومن هنا أطلق القرآن صيحة مدوية في الآفاق: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

وهذه وصفة شافية مجربة، فلما جعل العربُ سيدنا ونبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم- قبلة أعمالهم وأفكارهم، واتبعوه في المعتقد والعمل والقصد والفعل،

وطبقوا في حياتهم الأسوة الحسنة والنموذج الخلقي الرباني تحولوا بأسرع وقت أعلم علماء الدنيا وأقوى أقويائها وأساتذة الفلاسفة والمفكرين، وأكثر الناس أدباً وأحسن الناس خلقاً وسلوكاً على الإطلاق، فكانوا في الإلهيات موضع غبطة الحكماء والفلاسفة، وأصبحوا في علم الكلام عرفاء، وفي الطبيعيات والعقليات بمثابة أساتذة أرسطو وأفلاطون، وفاقوا في مجالات العلم والأخلاق والعبادة والمعاش والمعاد والمعاملة والسياسة أصحاب الاختصاص المبرزين في هذه المجالات.

وبفضل هذا الاتباع بهرت حضارةُ العرب الإسلامية حضاراتِ الشرق والغرب، وأخجلت الحضاراتِ المشبوهة اليهودية والنصرانية والهندية والصينية وما إليها، فاضطرَّت – هذه الحضارات- إلى الاختفاء في زوايا المعابد والكنائس والبِيَعِ، فَاحِصْ مكتباتِ العالم ومجامع التصنيف والتأليف، لا تجد هناك شرارة الأدب والخُلُق النبيل إلا وهي متطايرة من شمس العلوم العربية، ويتجلى لك أن الدنيا تفر من اسمها من جانب، ومتطفلة على مائدتها من جانب آخر .

فلما حاول العرب إصلاح أخلاقهم استنارة بالأسوة الحسنة بلغت أخلاقهم الفاضلة المتمثلة في الشجاعة والكرم والمروءة والصدق والحلم والعفو والتدين والغنى والتوكل والوفاء بالعهد إلى أن ذلَّلُوا رقاب الجبابرة، ونالوا من الشعبية والقبول أن أصبح الناس يؤثِرون عروق العرب على دمائهم، وعمت فضائلهم على وجه البسيطة بوجه استقطب اهتمام العالم ورضاه. فنشأ عن اتباع سنة المصطفى أن العصر الذي حمل اسم "العهد الجاهلي" جرَّاء هؤلاء القوم وأخلاقهم، تحوَّل إلى خير القرون وأحسن العصور، وذلك بفضل سير الصحابة القائمة على العدل والإحسان

والدين والروحانية والعزائم، نعم، أمسى أولئك المرضى الذين لا يستطيعون التحرك والانطلاق أصحاء أقوياء هزوا العالم وقلبوه ظهرا لبطن.

ونظرة تأملية في الانتصار الثوري العربي تَكْشِفُ أن العرب أزيلوا من حال إلى حال، والحال التي حُوّلوا عنها هي مرضهم، وإلا فلا حاجة إلى إزالتها، والحال التي صاروا إليها هي شفاؤهم، وإلا فلا حاجة إلى الصيرورة إليها، ومما لا شك فيه أن الحال الزائلة المسلوبة تتمثل أساساً في شرود الفكر والحرية الجامحة في المعتقد والأعمال وعدم التقيد بأسوة ربانية، وأن الحال التي غُرِست في قلوبهم هو التقيد بأسوة حسنة.

فتجلى بالنظر في علاج الجاهلية وشفائها أن التقيد بأسوة ربانية علماً وعملاً هي الصحة الروحانية الكاملة، والانحرافُ عنها وعدم التقيد بها أو التقيد بأساطير الفكر والخيال والهوى هو المرض المزمن الذي يستعصي علاجه.

وبعد هذا التحليل لم يبق من الصعب الاقتناعُ بأن الفقر والعبودية والجدل والشقاق والجهل والأمية ليست هي الأسباب الرئيسية لأمراض الأمة المسلمة؛ بل السبب الحقيقي الرئيس هو ترك اتباع سنة المصطفى- صلى الله عليه وسلم- وفقدان الانقياد لطاعته، فتورطنا في الابتداع مكان الاتباع، وفي التحرر الفكري المتجاوز لحدوده مكان التقيد والالتزام الصحيح، فما فقدنا ذوق الاتباع وحسب؛ بل فقدنا تصوره أيضاً، ومن أجل ذلك فقد أحاطت بنا ظواهر الضعف والاستكانة والذل والمهانة من كل جانب، على عكس ما كان عليه سلفنا في خير القرون، وطبيعي أننا إذا فقدنا قِيَمَ خير القرون ومُثُلها تنكّرنا لآثارها، ولو اتبعنا السلف الصالح اليوم في

الصورة والهيئة وحبِّ الرسول واتباع سنته لتمتعنا بخيرات الدنيا بمثل ما تمتعوا، وأظهرت الدنيا كنوزها لنا كما أظهرت لهم؛ ولكن إذا ذهبت آثارهم واتباعهم ذهبت خيراتهم ومآثرهم، وإذا عاد إلينا من مكارم الأخلاق والأعمال ما كان مغروساً فيهم عادت مرة أخرى تلك الفتوح والانتصارات التي كانت أقامت الدنيا ولم تقعدها، وحركتها، ولم تسكنها في يوم من الأيام.

فيتحتم عليَّ أن أقول: إن ازدهار الأمة الإسلامية وعروجها منوطان بالتشبه بالسلف الصالح في القول والعمل والظاهر والباطن، وبهذا التشبه واتباع الأسوة الحسنة قامت حضارة الإسلام، وعم الصلاح والفلاح، وتمكنت أمة الإسلام في القرن الأول، فمن البديهي أن التمكين والانتصار اليوم لن يأتيا إلا من خلال هذا الطريق، وإذا ابتعدنا عن منهج السلف فلا جرم أن يعود عودةً ثانيةً العصرُ الجاهلي الذي ساد ظلامه قبل البعثة. عياذاً بالله من ذلك.

وصدق الإمام مالك[1] إذا قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".[2]

(١) هو: مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، أبو عبد الله، الإمام الفقيه، والمحدث الحافظ، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، ينسب إليه المذهب المالكي، روى عن كثير من التابعين، وروى عنه خلق كثير من المحدثين الحفاظ، وكان في غاية الدقة والثقة في الحديث، لذلك قال البخاري: أصح الأسانيد: مالك عن نافع، عن ابن عمر، ويعد في الطبقة السابعة من التابعين من أهل المدينة، له مصنفات أشهرها: الموطأ، توفي رحمه الله سنة (١٧٩هـ) وعمره (٨٥) سنة؛ وانظر: **تقريب التهذيب**، ج٢، ص٢٢٣، ترجمة (٨٥٩)؛ و**البداية والنهاية**، ج١٠، ص١٧٤ .

(٢) عبد الله بن محمد الغنيمان، **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**، (المدينة المنورة:مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٥ هـ)ج، ٢، ص١٧٤.

فالأسوة الحسنة النبوية هي معيار الحياة الاجتماعية والانفرادية وهي وحدها مِحَكُّ الحسن والقبح، والعزة والذل، وهي العلاج الشافي لجميع الأمراض الظاهرة والباطنة، فإذا أردنا الصلاح، ونشدنا الإصلاح يتأكد علينا العودة إلى القرن الأول مكان التقدم المزعوم، ونسلك سبيل الاتباع دون الابتداع في الدين، كما قال الله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ**﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].وقال أيضاً:﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ**﴾ [سورة الحشر: ٧].

وإلى هذا المعنى أشار النبي – صلى الله عليه وسلم– في خطبته العظيمة: "أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، خير الهدي هدي محمد – صلى الله عليه وسلم– وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة".[١]

وقال عليه السلام في موضع آخر: "من حفظ سنتي أكرمه الله تعالى بأربع خصال: المحبة في قلوب البررة، والهيبة في قلوب الفجرة، والسعة في الرزق، والثقة في الدين".[٢]

وقال الإمام الزهري[٣]: "الاعتصام بالسنة نجاة"[٤]، وقال الإمام مالك: "إن

(١) محمد بن فتوح الحميدي، **الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم**، (بيروت: دار ابن حزم ، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وقد وردت في حفظ السنة أحاديث كثيرة معلومة.

(٣) هو: محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب ، من بني زهرة بن كلاب، أبو بكر، هو أول من دون الحديث، وسمع عن بعض الصحابة، تابعي مدني، ومن الحفاظ الثقات، ومن المكثرين للحديث مع إتقان وفقه، يُعَدُّ من الطبقة الرابعة، توفي رحمه الله سنة (١٢٥هـ)؛ وانظر: **تقريب التهذيب**، ج٢، ص٢٠٧، ترجمة (٧٠٢) ؛ **والجرح والتعديل**، ج٨، ص٧١- ٧٤، ترجمة (٣١٨) .

(٤) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، **المدخل إلى السنن الكبرى**، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، (الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، د.ط. د.ت)، ج١، ص٤٥٤.

السنة مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق".[1]

واجتناب طريق السنة والتنكر للأسوة الحسنة يسبب فتنة عظيمة في الدنيا وعذاباً أليماً في الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [سورة النور:٦٣].

قد جاء في آية وعيد شديد على ترك سبيل المؤمنين:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [سورة النساء:١١٥].

كما هدد بأن اتباع الرسول إذا فُقد في العمل والسلوك عَدِمَ الإيمان في القلوب: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [سورة النساء:٦٥].

كما جاء القرآن بما يقضي أن المؤمنين رجالاً ونساءً لا خيرة لهم في أمرهم بعد ما قضى الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

وعن هذا المغزى العقيدي الأساس كشف الحديث النبوي الصحيح: "لا

(١) لم أجده بعد جد وكد، وقد وردت نفس الفضيلة في فضل أهل بيت النبي – صلى الله عليه وسلم– في حديث مرفوع ضعيف، أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في كتابه **"فضائل الصحابة"**، عن أبي ذر يقول: سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول: "ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك"(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، د. ت)، رقم ١٤٠٢.

يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به".[1]

فإذا كانت أسوة النبي – عليه الصلاة والسلام- معيار الصحيح والسقيم والصالح والفاسد في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية، فمستحيل أن تحظى عند الله بقبول ورضوان أعمالٌ لا تحمل التأسي الصحيح بالنبي – صلى الله عليه وسلم- مهما تألَّقت وتجمَّلت، ومهما بُذِلت فيها جهود جبارة وعمليات تحسينية، ومهما مثَّلت أحدث الموضات، وواكبت أروع المدنية وأرقى النماذج، كل هذا يذهب بالتأكيد عبثاً وسُدى إذا خالفت الأسوة الحسنة؛ فإن الحظوة والقبول لدى الله رب العالمين تختص بها تلك الأعمال التي وافقت الأسوة الحسنة، وتجنبت غيرها من السبل.

وهذا الاتباع والاقتداء بالأسوة النبوية الحسنة من شأنه أن يسمّى "التشبه بالأنبياء"، والانحرافُ - ولو قيد أنملة- عن هذا المنهج تأثراً بالمناهج الأرضية الأخرى يسمّى التشبه بالأغيار، الذي جعلتُه موضوعَ الكتاب، وأتشرف الآن -بفضل الله وتوفيقه- بالحديث الوافي عنه. ويسرني جداً أن أشرُف بالكتابة عن موضوع رئيس، يمثل المعيار الأوحد لعزة الأمة المسلمة وذلها، ويسع كل جانب من جوانب التعاليم الإسلامية.

۞۞۞

(١) أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، **السنة**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ)، ج١، ص١٢، رقم ١٥.

الباب الأول:

مبدأ التشبه بالكفار تأصيل عقلي وشرعي

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: التشبه بالكفار مصدراً وتأصيلاً

الفصل الثاني: مسألة التشبه من منظور عقلي وحسي

الفصل الثالث: القوميات المختلفة العالمية وسرُّ بقائها وازدهارها

الفصل الرابع: التشبه بالكفار في نصوص الكتاب والسنة وآثار علماء الأمة

الفصل الخامس: هل مخالفة الكفار هي عماد الإسلام وأساسه ؟

الفصل السادس: المراتب الفقهية للتشبه

الفصل الأول:

التشبه بالكفار مصدراً وتأصيلاً

من المسلمات البديهية أن الإسلام دين شامل متكامل الأبعاد، ثابت الأصول، وباسق الفروع، أحاط بجميع جوانب الحياة البشرية، ولا يوجد دين غير الإسلام، اتّسم بهذا الشمول والتكامل، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣]

لم يَدَعْ الإسلامُ جزءً من الأصول والفروع ناقصاً؛ لئلا تبقى حجة للناس، ويقطع -هذا الشمولُ والتكامل- شأو الحيرة والارتياب لدى رُوَّادِ الحقيقة، فلا خير إلا جاء به ودعا إليه، ولا شر إلا تركه وحذّر منه، ومن هنا بقدر ما يتسع نطاق المعارف والمعلومات عن الإسلام ترتمي أمم العالم في أحضان الإسلام، وتنجذب المجتمعات الدينية في كل قوم ودولة نحو هذا الثقل المركزي.

فاضطُرّ اليوم عقلاء الغرب إلى الاعتراف بحقّيته، ودُفِعَ حكماءُ الشرق من الهنادكة والآريين إلى الفرار من ضيق الوثنية السافرة إلى سعة الإسلام العادل.

أَوَ بعد هذا الاعتراف القلبي والعملي بفضل الإسلام، الصادر عن أعداء الإسلام يبقى من المعقول أن يشير أحدٌ على المسلمين باتباع الحضارات الغربية والشرقية؟ وهل يجوز ترك السعي لتوعية الأمة فيما يتعلق بالتشبه بالكفار واتباع الأغيار؟ كلا، فقد أثبت الإسلام تفاهة ونقص جميع ما عند أمم الغرب والشرق من العلم والعمل، ويمكن تقسيم أحكام هذه الملل المنسوخة (عقديا وفكريا وخلقيا)

من حيث النفع والضرر إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول: ما صرح الإسلام بنسخه، وهي أحكام لا توافق المزاج البشري في هذه المرحلة المتقدمة، وكان الإبقاء عليها يؤدي إلى كثير من المضار الجسدية والروحية، فإنها لو كانت نافعة، لما كان الإسلام ليرسم عليها خط النسخ، ويأتي بتشريعات جديدة.

القسم الثاني: ما يتمثل في البدع والمحدثات التي أحدثها أحبار اليهود ورهبان النصارى أو زعماء الأمم الأخرى بعاطفتهم الدينية الجامحة وعقولهم الناقصة، ووضعوها سلاسل وأغلالاً في أعناق الأمم.

وهذه البدع -هي الأخرى- من الأعمال المنسوخة كما لا يخفى.

القسم الثالث: أحكام لم ينسخها الإسلام كلياً؛ بل عمل فيها التغييرَ والتعديل لاشتمالها على عناصر صحيحة وفاسدة، وصلاحيةُ الأعمال لقبول الحذف والزيادة دليل على نقصها، وإقرارُ الأشياء الناقصة كهذه هو اتباع نظام ناقص غير مكتمل.

وإذا كان الإسلام جاء بشريعة عادلة مكتملة لا تقبل النسخ ولا التبديل، تَهُوْنُ أمامها كلُّ الشرائع والأديان الناقصة الضارة، فيجدر به وحده أن يُحذِّر شديد التحذير أمته وأتباعه من جميع الأشياء الضارة والأعمال الفاتكة بالأخلاق الفاضلة والسلوك العالي، ويدعوها إلى معاني الإباء والغيرة التي ترفض النظرة الطامعة إلى بضائع الآخرين، ومن أجل ترسيخ هذه المعاني (اكتمال الدين الإسلامي ونقص الديانات الأُخرى) أقام الإسلام مبدأ "التشبه بالكفار" لينهى الأمةَ الإسلامية عن التورط في مشابهة الكفار أو الامتزاج بين الحق والباطل، فإن إغماض هذا المبدأ أو

تقليل شأنه قد يؤدي إلى أن الإسلام كأنه يبرِّر استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويصم بدوره شمولَه واتزانَه واكتماله واعتداله بنقص وعيب، عياذاً بالله منه.

فلا يوجد في الدنيا دين غير الإسلام يستحق أن يؤصِّل مبدأ التشبه بالكفار، وكأن هذا المبدأ لم ينزل من السماء إلا للإسلام.

وتأكيدُ الإسلام على هذا المبدأ يحكي تأكيدَ الأطباء على تحصيل النفع واجتناب الضرر من خلال إعمال الحيطة واستعمال الأدوية.

و هكذا كان تأكيد الإسلام على الالتزام بما جاء به من المعتقدات والشرائع واجتناب مشابهة الأقوام الضالين في محله، بعد أن حوى جميع جوانب الخير، وترك كل شرارة من الشر، لينتفع الإنسان بما في الدين الإسلامي من خيرات وبركات، ويتجنب ما في الديانات الأخرى من شرور ومضارّ.

فالإسلام لا يهدف وراء تأصيل هذا المبدأ "مبدأ التشبه بالكفار" إلى المساس بالمشاعر الإنسانية، ووضع الحد من حرية المسلمين؛ بل يرمي إلى تطهير المشاعر من دوافع الشر، وشحنها بأمور الخير وحدها؛ فإن الخير والشر متناقضان لا يجتمعان.

إن تُركت النفس البشرية المتعطشة على رسلها أقبلت بسرعة عجيبة على ما تجد من مطعوم رديء ضار، وحُرمت أكلاتٍ شهية نافعة طيبة.

وإن شبعت من أكلات البدع والمحدثات المبثوثة في مائدة الأغيار فلا بد أن تتنكر؛ بل تنفر من أكلات الأنبياء الطيبة، فإن الشبع يقضي على الشهية، ولو كان الطعام ألذ وأشهى ما يكون.

ومن ثم قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- "ما ابتدع قوم بِدعة في

دينهِم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يومِ القيامة".[1]

فإن من المشاهَد أن متعاطيَ الزنا والفواحش ينفر من النكاح وبنات الحلال؛ فإن طبيعته اتخذت طريقاً لإشباع الغرائز، فتبرأ من طريق آخر.

وكذلك إنَّ مُدْمِنَ القصص العجيبة والروايات المكذوبة وأساطير الملوك والسلاطين لا يرغب عامةً في سير الأنبياء ومآثر الصالحين؛ فإن حب الاطلاع التاريخي إذا سار في اتجاه بشكل مفرط عَدِمَت الرغبة في الاتجاه الثاني.

وكذلك من يغالي في زيارة ضرائح الأولياء وقبور الصالحين مغالاة تصل بهم إلى التعبد، لا يعير اهتماماً كبيراً بزيارة البيت الحرام ومشاعر الحج.

فإنَّ هذه العاطفة عاطفة السير والزيارة إذا توغلت كل التوغل في جانب واحد، لم يبق لها رغبة في الجانب الآخر.

ومن يعتبر الأحوالَ الخاصة بأولياء الله وتُرَّهات الصوفية وشطحاتهم أكبر برهان وأقوى حجة لا تستقطبُ اهتمامَه نصوصُ الكتاب والسنة وما ينبثق عنها من أسرار وحِكم.

مئاتٌ من الرجال الذين يحسبون الاطلاع على ما بلغ إليه أرسطو وأفلاطون من اكتشافات وفلسفات منتهى الفوز والسعادة، فهم وأمثالهم لا يُقبِلون بنفس الرغبة والنهم على الآيات القرآنية وما تَحُفُّه من بحر زاخر بالمعاني والعلوم المعجزة.

ويُستخلص مما ذكر أن المشاعر الإنسانية المادية والروحانية يتعاقبها جانب

(١) الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، **مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي**، تحقيق: نبيل هاشم الغمري، (بيروت: دار البشائر، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)، رقم ١٠٦.

الخير وجانب الشر، فإذا اتجهت إلى جانب واحد، استغنى عن جانب آخر، فلا مبرر لانتقاد الشريعة الإسلامية على هذا المبدأ، وهي حريصة على السلوك بالناس الصراط المستقيم، بعيدين عن جميع السبل المتفرقة المتعرجة وما فيها من نقص وغبش ومضارّ.

وقد بسطَتْ بغاية الشفقة والكرم مائدةً ربانية مليئة بأشهر الأغذية وألذ المطعومات الطاهرة عن جميع المضار، الشاملة لجميع المنافع.

وعن عبد الله بن مسعود[1] مرفوعا: "إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم".[2]

ومائدة الشريعة الإسلامية لا تنطوي على أغذية الفوائد الدينية وحسب؛ بل تشتمل على ألوان الفلاح الدنيوي بشكل منتظم؛ فإن الدنيا ليست بشيء منفصل عن الدين في نظرة الإسلام، فإنه يحيط بجميع نواحي الحياة قانوناً وتشريعاً.

فكما أن مبدأ التشبه بالكفار يحوي جميع أصول الدين كذلك يشمل كل مناحي الحياة الإنساني؛ إذا تدبرت عميق التدبر تبين لك أن الحاجة إلى منع التشبه

---

(١) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، حليف بني زهرة، أسلم مبكرا في مكة حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وقيل: إنه أسلم سادس ستة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة حتى أوذي في ذلك، خدم الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد بدرا وأحدا وسائر المشاهد، من أعلم الصحابة بالقرآن والتفسير، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بذلك، وجهه عمر بن الخطاب إلى الكوفة يعلم الناس، واستقدمه عثمان إلى المدينة، وتوفي بها عام ٣٢هـ. راجع: **أسد الغابة**، ج٣، ص٢٥٦ – ٢٦٠، **والإصابة**، ج٢، ص٣٦٨ – ٣٧٠.

(٢) أخرجه البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ)، ج٢، ص٣٢٥، رقم ٧٧٩.

بالكفار في جانب الدنيا والمدنية أكثر منها في جانب الدين؛ فإن أديان الملل السابقة لا تستطيع بمثالبها البارزة أن تجتذب عناية المسلمين؛ حتى يقعوا في التشبه بالديانات الأخرى؛ ولكن من الإمكان بكثير أن ينبهروا ببريق الشهوات ووميض الملهيات التي هي جوهر المجتمعات غير الإسلامية.

ومعلوم أن هذه الحظوظ الدنيوية ربما تسلك بالقلوب السذج الناقصة التربية سبيلاً، تُزِلُّها عن غاية الرجوع إلى الله، التي من أجلها خُلق الإنسان، وهذه القلوب تتناسى أن هذه المسرات المغرية العاجلة قد تسبب في الآخرة آلامًا وهمومًا خالدة.

ولعلهم لايعلمون أن هذه الملذات الدنيوية (وما هي إلا وسائل) قد تعوق عن المسير في سبيل الربانية، الذي يُشكّل غايةً عظيمةً؛ فكأن هذه القلوب وضعت الغايات في منزلة هي أحط من الوسائل، يا للعجب!

ثم إن هذه القلوب العمياء كيف تجاهلت هذا الشيء البديهي المتمثل في أن المجتمع المادي مهما بلغ من الأناقة غايتها ومن البهاء قمته إلا أن نواته وأساسه تلك القلوب المليئة بقذارة الكفر والفسوق والغفلة، وإذا القلب – وهو سلطان الجسد- يلفظ نَفَسه الأخير بسبب مرض الكفر، فلا بد أن يتأثر الفرع – الأعضاء كلها- بفساد الأصل، وتصير الأعضاء كلها وما يصدر عنها من أعمال وأفكار مصير القلب. ألا وهو الهلاك كما قال الشاعر الهندي:

أخشى -أيها القلب الحي – أن تموت، فذهبت الحياة كلها؛ فما حياتي إلا حياتك".

ومن هنا يأتي قطع التشابه بالمجتمعات الكافرة الخلابة (التي مصيرها إلى الدمار حتماً) مفروضاً على كل مسلم لم يُرزق عيناً تبصر وحدها؛ بل رُزق قلباً واعياً

ينظر بعين الفراسة والبصيرة، وهو بحمد الله ليس كالكفار العمـي، عميـت قلـوبهم التي في الصدور، فهم في توغلهم في العاجل لا ينظرون إلى الآجل الباقي.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧﴾ [سورة الدهر: ٢٧].

ولأجل وضع الحد من انتشار العمى والضلال والبدع والفساد أقام الإسلام مبدأ "منـع التشـبه بالكفـار" في جانـب العبـادات وجوانـب المعـاملات والاجـتماع والاقتصاد وما إليها، من جميع مناحي دنيوية، كما يتضح من خلال السطور الآتيـة إن شاء الله.

وهذا الكتاب يهدف إلى إثبات حقائق تالية:

١- الإسلام يريد من خلال هذا المبدأ وقاية الشرائع الإسـلامية وحـدودها من اللّبس والغبش والفناء.

٢- الإسلام وحده يستحق وضع هذا المبدأ؛ فإنـه وحـده حـوى الخـير كلـه والكمال كله والنفع كله، فهو أولى بالحرص على الإبقاء عـلى جـوهر النفـع والخيريـة وإبعاد كل ما يورث غبشاً وشطَطاً.

٣- وهذا دلَّ على أن مصدر هـذا المبـدأ: مبـدأ التشـبه بالكفـار هـو شـمول الإسلام وكماله وخيريته المطلقة ونقص الأديان الأخرى وضررها (وإثبـات المصـدر هو موضوع هذا الباب).

فإن الشريعة الإسلامية لو نقصت لكان للمسلم أن يأخذ من الخير والحكمـة حيثما وجد، ويتشبه بأي قوم شاء.

ولكن الأمر إذا جاء على عكس ذلك حُرم على المسلم أن يمارس التشبه؛

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [سورة يونس:٣٢].

ويقول الشعر الفارسي:

من سلك غير طريق المصطفى، فمستحيل أن يدرك الغاية[1].

وبعد ما تجلى مصدر منع التشبه بالكفار وحاجة المسلم إليه أبحث في الفصل القادم في ماهية التشبه وآثاره ونتائجه من منظور عقلي وحسّي، ثم أَكِلُ النتيجةَ إلى قارئ الكتاب، أبالحظر أولى التشبه بالكفار أم بالسماح؟.



(١) سعدي الشيرازي، **بوستان**، (الهند: دار الكتاب ديوبند، ط٥، د.ت)، ص٤.

الفصلُ الثاني:

مسألة التشبه من منظور عقلي وحسي

كل شيء في الكون يتميز بشكله وهندامه، فكل خارج إلى عالم النور يظهر بشكله ولونه وهيئته وبِنْيَتِه التي تعرّفه وتميزه عن غيره، ومن شواهد قدرة الله وحكمته أنه خلق كل شيء على أنسب صورة وأقوم خلقة، وألبس كل معنوي ثوباً ظاهرياً ملائماً، وأظهر كل حقيقة خفية بهيئةٍ سارّةٍ مناسبة.

وهذه قاعدة هامة تشمل كل شيء مستور وكل كائن منظور، وكل سِرٍّ مطوي وكل لُغْز منغلق، وتعم كل حيوان يمشي ويتحرك كالإنسان والأسد والفرس وما إليها وكل نبات ينبت وينمو كالأشجار والأعشاب والكروم وما إليها، وكل جماد يثبت ويرسخ كالأحجار والرمال والترب والآجر ،كل هذه الأشياء إذا ظهرت ظهرت بما خلقها الله عليه من صورة وهيئة.

إن كان زيد يختلف عن عمرو، ومكان يختلف عن مكان آخر، وثوب يختلف عن ثوب آخر، فهذا الاختلاف ناشئ عن الهيئة المميزة التي لا يستوي فيها الجميع؛ فإن صورة المكان الأول غير صورة المكان الثاني، وهكذا الثياب تختلف فيما بينها برقة الخيوط وغلظتها ونعومتها وخشونتها، وهكذا نفرق بين زيد وعمرو بتشكيلة الوجه والقامة وألوان البشرة والأعضاء، وما إليها.

وهذا الاختلاف في الظاهر والصورة كما جرى في الجواهر والأعيان جرى في الأعراض، فالنور له صورة، والظلام له صورة، والنهار له من الضياء والإشراق ما

ليس لليل، والليل له من السواد والظلام ما ليس للنهار، وهكذا الألوان، فالأحمر له صورة مختلفة عن الأسود والأخضر والأبيض وغيرها فكلٌّ متميز بصورة تختص به، وتميزه عن غيره، والفرق بين كليات العالم وجزئياته ناشئ عن اختلاف الهيئات والأشكال، كما أن التمييز بين كلي وكلي حبيس هذا الاختلاف الشكلي، فالتمايز بين جنس وجنس، وبين نوع ونوع، وبين صنف وصنف صادر عن خصائصه ومميزاته.

وإذا خرجنا نبحث عن الأحجار من بين الجمادات فلا نأخذ الرمال والأخشاب خطأً، فإن الله خلق الأحجار في صورة تُعرف بها، فلا تلتبس الأحجار بالآجرّ، ولا الآجر بالأحجار.

وفي النباتات نميز الأنبج عن التفاح والرمّان بصورها الخاصة المعلومة.

وفي الحيوانات إذا أردنا البحث عن الإنسان فبأي شكل نبحث عنه؟ أ بشكل الحمير أم بشكل الأسود أو بشكل الحيوانات الأخرى؟ كلا! بل نبحث عن الإنسان في شكل الإنسان، ونبحث عن الأسود بأشكالها، فإن طبيعة الأسود المتمثلة في الافتراس والصيد ومزاجها وألوانها وهيئتها مختلفة عما أوتي الإنسان من قوة الذكاء والإدراك وقوة الاختراع والإيجاد وصفة النظافة والنزاهة، والتزين باللباس الجميل والتفنن في المأكولات الشهية، وجمال الوجه وحسن الهندام وما إليها مما يجعل الإنسان متميزاً عن الحيوانات كلها، وإن سُلب الإنسان هذه التشكيلات والخصائص يبقى حيواناً فاقد الشعور، عجيب الهيئة، أو حيواناً لايعرف غير التحرك.

ثم إذا تقدمنا خطوة وجدنا النوع الإنساني يتقاسمه اختلاف الخصائص والمؤهلات والأوصاف والأفكار.

الرجل والمرأة حقيقة واحدة، قد تتحد بينهما المشاعر الإنسانية والنفسية؛ ولكن هناك حاجز كبير يفرق بينهما، ويجعل منها صنفين مختلفين، يظهر هذا الاختلاف باختلاف الأسماء والأحكام والحقوق والفرائض.

وقد أدى التمايز الصنفي بما فيه القامة واللطافة، والصغر والكبر وهندام الجسم وأعمال الظاهر والباطن والأخلاق وما إليها إلى أن هذين الصنفين رغم اتحاد الحقيقة والطبيعة خضعا للاختلاف والتنوع.

إن سلبناهما هذه المميزات الصنفية لذهبت الفوارق، وقُضي على الاختلاف الصنفي بينهما.

فالحاصل أنَّ كلَّ شيءٍ في الكون أرضيٍّ وسمائيٍّ، نابتٍ وجامدٍ وإن خُلِقَ من مادة واحدة، ورُزق من مائدة واحدة أودعه الله -تعالت حكمته- عنصرَ الاختلاف والتميز؛ حتى يُعرف ويُميَّز، ويؤدي كل شيء دوره في هذه الدنيا.

وإن كان أحد من الأنواع المعروفة دَلَّس بهيئته، وتزيَّا بزي النوع الآخر بشكل مُريب، اضطررنا إلى اعتبار هذا الفرد من النوع الآخر دون نوعه الأول الأصيل.

فلو فُرض أن الحمار تشكَّل بشكل الإنسان، ووافقه في القامة والهيئة، فهل يُعدَّ بعد هذا الشكل الإنساني حماراً من الحمير؟ كلا؛ بل هو إنسان، فإن الحمار الذي تشكل بشكل الإنسان تماماً ينادَى بالحمار، وهكذا ينادَى الإنسان "حمارا" إذا اختار شكل الحمار، فبأي سبب ينادَى الإنسان بالإنسان، وهو في هيئة الحمار؟.

وإذا كان ساحر مشعوذ أخفى حبله في السلّة، ومال إليها بالعصا ثم أخرج الحبل حية تسعى، فبماذا نَصِفُ هذا الحبل؟ أوَ لا ندعوه بالحية الساعية؟ فإن الحبل له

شكل وهيئة، والحية لها شكل وهيئة، فإذا ظهر الشيء في هيئة الحية، يُدعى باسم تلك الهيئة، فالحبل الذي ارتقى إلى هيئة الحية يُسمّى "الحية" دون الحبل، ويخاف منها الناس خوفهم من الحية.

والحاصل أن الله تعالى خلق كل شيء في صورة حسنة مميزة، بها تظهر الأشياء، وتُعرف، وبها تُسمّى وتُميّز.

﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [سورة طه: ٥٠].

إن الدنيا مهما ارتقت فيها موضة توحيد الأشياء والتقريب والمساواة بينها؛ ولكنها لا تعترف بالوحدة النوعية بين الأشياء، حتى إن واحداً من المجانبين والسوقيين لا يحب أن تذوب الفوارق بين النهار والليل، وبين النور والظلمة، ويلتحف العالـمُ كله بلباس موحد، تجمعه وحدة المقاس والحجم والذات والاسم، ولم يبق الجميع جميعاً؛ بل يمثل شيئاً واحداً، يطلق عليه "لفظ الجميع" إطلاقَ تجوز لا إطلاق حقيقة، ويصبح الإنسان هو الحمار، والحمار هو الأسد والخروف، ويطلق على شجرة الأنبج أنها شجرة شائكة، وعلى شجرة الشاشم أنها شجرة الوردة أو الياسمين.

ونصف الحجارة بالطين والآجر، والكل بالجزء، يبدو البياض في السواد، والسواد في البياض، السماء هي الأرض، والأرض هي السماء، يظهر النهار في زي الليل، والليل في صورة النهار، ويصبح العالم ممسوح المعالم، وفاقد الخصائص والمميزات، ومسلوخ الآثار والملامح، فيتولد عالم جديد لا أرض فيه ولا سماء، لا نهار ولا ليل، لا أبيض ولا أسود، لا جزء ولا كل.

ومن المعلوم بداهة أن هذا الامتزاج العجيب بين الأشياء الكونية وهذه الوحدة النادرة التي تقضي على كل فارق ومميز، وتدع الأشياء تتلاشى في منظومة موحدة معدومة الخصائص، إذا تحققت ما كان العالم في حاجة إلى تأليف الأجزاء، ولا الأجزاء في حاجة إلى الكليات، ولا العالم يحتاج إلى هذه الأشياء المختلفة المظاهر والملامح؛ بل لا يحتاج إلى وجوده وبقائه.

فأي عامل معقول إذَنْ دعا اللهَ رب العالمين إلى خلق هذا العالم اللاغي العابث، عياذاً بالله.

فتجلى بما سبق أن العالم إنْ صيغ صياغةً تمحو كل ميزة، وتُذيب كل فارق بين الموجودات تعطَّل العالم ولغا وجوده، وضاعت حكمة الله في خلقه؛ ولكن إذا بقي العالم بمميزاته وخصائصه وتشكيلاته التي بها تتجلى الأشياء وتُعرف ظهر في أحسن شكل، وأسمى هدف، وأقوى دليل على حِكَمِ الله العظيمة في الخلق والتكوين.

فاتضح جليا أن الاختلاط والالتباس والتشبه من شأنها أن تُلغي أساس العالم وتعطل وجوده، وعلى العكس من ذلك فإن الميزة والخصيصة نعمة تُظهر الأشياء وتبينها، فلولا الفصول المميزة بين الأشياء مع الأجناس الجامعة لَتَلَاشى كل شيء في الدنيا واضطرب كل موجود.

وعلى كل فإن الصور المميزة والخصائص المنوعة إذا لامست أشياء جعلتها تمتاز وتنفرد عن الغير، وتعمل عملها وتحقق غرضها، فكأن المميزات الصورية والتشكيلات الطبيعية هي التي تقود في الدنيا عجلة الإفادة والاستفادة، والتعليم

والتعلم، والإفهام والتفهيم، والمعاملات والعقود، والأفراح والأتراح، وكل ما يتم بين الرجلين، فإنه ما دام الفرق بين الواحد والاثنين تجلى الفرق في التعاملات الإنسانية الكثيرة، فإنه لو سُلِخت المادة المميزة والتشخصات الصورية من الأشياء الكونية لما بقي الجزئي جزئيا، ولا الكلي كليا؛ بل يبرز العالمُ كلُّه موحَّدَ الصُّورة، موحَّدَ البنية، وهل هذا إلا قضاء على الفوائد والمنافع والأغراض.

فتجلى ماثلًا للعيان أن الكليات والجزئيات كلها تعتمد في بقائها وإفادتها على هذه الخصائص والمميزات.



الفصل الثالث:

القوميات المختلفة العالمية وسرُّ بقائها وازدهارها

وفيه مباحث:

المبحث الأول: المعنويات تشبه المحسوسات في الميزات والخصائص

إن المعنويات تشبه المحسوسات في الميزات والخصائص، فإن الله تعالى كما كسا الإنسان التشكيلات العديدة والصورة المختلفة، أودعه صفات ومؤهلات وخصائص سبَّبت انقسام الناس إلى فئات وقوميات، فهناك قومية إسلاميه، وقومية آرية، وقومية هندوسية، وقومية يهودية،وقومية نصرانية، وغيرها من القوميات التي انقسم إليها الإنسان، وهو من أب واحد وأم واحدة. ومع هذا الاشتراك العميق المتأصل ظهرت اختصاصات وتنوعات كثيرة.

وإن اختلاف الأقوام وتفرق الملل يعتمد على الآثار والخصائص المودعة في أمة دون أمة.

فهم مختلفون في الأخلاق والعادات والمدنية والثقافة والعواطف والمشاعر، وهذه الخصال أي العادات والمؤهلات، والثقافة والمعاشرة، والمشاعر والخواطر والأعمال والأخلاق وآداب السلام والكلام، وأنواع الملابس والثياب، وهيئة الأكل والشُّرب خصائص تميز أمة من أمة، وتعطي أمةً ما كياناً مستقلاً.

إن اختلاف الآسيويين عن الأوربيين (وهم سواء في الإنسانية) ناشئ عن اختلافهم في الأخلاق والعادات، وأسلوب التعامل والمعاشرة، وهذا الاختلاف أقام حاجزاً بينهم، فكما أن اختلاف الخصائص والمميزات فرّق بين الأمور الكونية، فرّق بين الأقوام والملل، وجعل كلا منها قوما وأمة متميزة، وقد تكون الخصائص العنصرية هي الأخرى مؤثرة في هذه الفوارق القومية؛ ولكنها غير مهمة في الموضوع لكونها صفة غير اختيارية لا يضبطها علم ولا قانون.

فلا مندوحة من الاعتراف بأن الفوارق القومية عمادها الخصائص الروحانية المعنوية المتنوعة لا غير.

فإن الخصائص الروحانية هي الفوارق القوية التي قد تذيب المميزات العنصرية واللونية والعرقية الإقليمية، وتشكل الكيان القومي الموّحد.

والخصائص الروحانية هي الدين نفسه إذا عُمل فيها التهذيب والتربية؛ بل هي أساس القوميات والديانات، فكما أن الخصائص والميزات تكسو الأشياء الكونية بما فيها الحيوان والنبات والجماد كيانا متميزا، تعطي الحقائق الشرعية والدينية صورة واضحة.

والمعنى أن الدين إذا قام قام بصورته وهيئته ومميزاته دون الصور المصطنعة، فإنه إذا ظهر في صورة غير صورته ،كان غير الدين المعروف بصورته، المميَّز بخصائصه.

المبحث الثاني: صور أركان الإسلام

ارجع بصرك إلى أعظم دين شهده العالم: الدين الإسلامي الحنيف تبين لك أنه حدَّد النطاق الروحاني وأجزاءه مما جعله شامّاً ممتازاً من بين المذاهب والديانات.

خذ أي جانب من جوانبه الشاملة كالعقائد والعبادات والأعمال والمعاملات

والسياسيات، والمعاشرة والسلوك والربانية تجد كلها مصوغة بصبغة خاصة تميزها عن أخواتها ونظائرها.

هيئة الصلاة مختلفة عن هيئة الصيام، والحج له صورة، والجهاد له صورة، ومستحيل أن تتمثل الصلاة في الجدل والنزاع والمشي والهرولة، وكذلك مستحيل أن تؤدي الصلاة مهمة الجهاد.

إذا وُجد الحج وجدت له صورة متمثلة في التلبية وثياب الإحرام والوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الأحجار بمنى، ولا غير.

والصيام يحمل صورته الخاصة المعينة، إذا وُجد وُجد في صورته، وهي الإمساك لا في صورة الأكل والشرب وارتياد الملذات.

وهكذا مكارم الأخلاق كالجود والشجاعة والمروءة والحلم والحياء والإيثار؛ ومساوى الأخلاق كالحسد والحقد والطمع والبخل إذا ظهرت بصورتها، فالبخل يتمثل في إمساك المال، والجود يتمثل في البذل والإنفاق، ولن تجد أن عاطفة الأخوة والألفة لبست ثوب القتل والسفك، كما أن عاطفة النزاع والصدام لن تكتسي رداء الأمن والحب والإخاء.

انظر في المعاملات والسياسيات، تجد لكل منها صورة مخصوصة، فالبيع لايوجد في صورة السرقة والابتزاز، كما أن النكاح والطلاق لهما لون يخصهما، وبه يوجدان ويظهران، والاقتصاد الإسلامي يمتاز بصورته وهيكله عن غيره.

وهذه هي أركان وأجزاء الإسلام المنتشرة، التي حددها الشرع، وهذه الأشياء – إذا تم تأليفها وتنسيقها- هي الدين الإسلامي، كأعضاء الإنسان نحو اليد

والرجل والصدر والظهر والوجه وغيرها إذا جُمعت كان المجموع هو الإنسان نفسه.

فالإسلام تكونت صورته الشاملة بترتيب صور الأجزاء المتناثرة، وبهذا التكون المتكامل تتألف صورة روحانية دينية، وإذا كان الإنسان يُدعى "إنسانًا" بتألف أجزائه وانسجام أعضائه، فهو يُدعى "مسلماً" إذا اختارت هذه الصورة الروحانية، والجماعة التي تتقبل هذه الصورة الروحانية تُطلق عليها أمة إسلامية.

فالأمة الإسلامية تبقى إسلامية ما دامت متمسكة بالصورة الحقيقية للإسلام وإذا فقدت الصورة الحقيقية للإسلام أو التبست صورة الإسلام بصور الأديان الأخرى في المعتقدات والسلوك، سُميت الأمة باسم الأديان الأخرى التي اتصلت بها دون الإسلام الحقيقي المتميز. فثبت بوضوح وجلاء أن الصورة هي التي تُبْقِيْ الحقيقة، وهي ميزة الأديان، بها تمتاز كل أمة، وبها يدوم كل كيان.

المبحث الثالث: المميزات القومية واختلاف الأديان

وقد بلغت منتهى التحقيق الدعوى القائلة: إن اختلاف العلوم والعقائد واختلاف الشرائع والأحكام هو الداعي إلى تفرق الأشياء المتحدة الماهية، وجعل كل شيئ ممتازاً عن غيره. وهذه الخصائص المميزة بين أمة وأمة مكمونة في عقائد كل ديانة وشرائعها، فإن كل الأديان لو اجتمعت على العقائد والأعمال المتحدة، وفقدت الخصائص الخلقية المختلفة لما كانت أدياناً؛ بل كانت ديانة واحدة، وما كانت قوميات؟ ولكن قومية واحدة، وما كانت ملل؛ ولكن ملة واحدة، في طول العالم وعرضه.

فالقومية تعني طائفة من الناس، التزموا بملة خاصة ومذهب خاص أو منهج فكري خاص، وهذه الخصائص المذهبية في العقائد والأعمال ميَّزتهم عن

غيرهم من الطوائف والجماعات، ولـولا ميـزات القوميـات وخصائصـها أو التـبس أمرها بغيرها لما حدثت قومية، ولما وُجدت ملة على الأرض.

فكـما أن النصـارى في نطـاق خصائصـهم الدينيـة مختلفـون عـن اليهـود والمشـركين، وأن اليهـود في نفـس النطـاق مختلفـون عـن النصـارى والـوثنيين، وأن الوثنيين بممارساتهم الشركية مختلفون عن النصارى والمجـوس، كـذلك يختلـف كـل مسلم ومسلمة عما عداهم مـن النصـارى واليهـود والـوثنيين والمجـوس والزنادقـة والملحدين، كما اختلف النور عن الظلمة، والبصير عن الأعمى، والشـمس المحرقـة عن الظلال، والحي عن الميت، وذلك نظراً لما دانه المسلمون من دين إسلامي حنيف، وما اعتقدوه من عقيدة صافية نزيهة، وماتبنَّوه من منهج سليم، وفكر مستقيم، وخلق كريم، وعمل صالح جميل.

فالبصير ما دام يستوفي خصائص البصر لا يكون أعمى، والنور مـا دام نـوراً لا يكون ظلاماً، والشمس لا تتحول ظلاً مادامت فيه خصائصـها، والحـي لا يكـون ميتاً ما دام تنبض عروقه بالحياة.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [سورة فاطر: ١٩-٢٢].

وكالتي قلتها سابقاً إن المسلم ما دام يتمتع بالخصائص الإسـلامية لا يُـدعى كافراً، وما دامت تمسكت الأمـة الإسـلامية بخصائصـها وميزاتهـا فاقـت كـل أمـة، وتميزت عن غيرها.

وقد توصلنا – وبكل وعي وبصيرة- إلى نتيجة بدهيـة، وهـي أن خصـائص

القوميات ناشئة عن خصائص الأديان، وبقاء هذه الخصائص يعني بقاء الأديان ذاتها، كما أن اندراس هذه الخصائص والتباسها بالغير يعني القضاء على الأديان تماماً.

والامتزاج بين عقائد الأديان وتشريعاتها وسلوكها هو الذي نسميه بالتشبه بالغير، ونحكم بأن هذه العقدة المعضلة (عقيدة التشبه بالغير ولبس الحق بالباطل) إذا استحْكمت في أمة ودين أعيا كُلَّ حكيم حلُّها، وقضت على الأمة بتاتًا، فزوال الأمم العظيمة والأديان الكبيرة موصول الحبل بهذه الفتنة العمياء: فتنة التشبه بالغير.

إن هذا التشبه حرم العرب ضوء الدين الإبراهيمي الحنيف منذ قرون، ومحا الدين العربي الحقيقي؛ فالمعروف أن عمرو بن لحي بن قمعه بن خندف أحد سادات العرب سافر إلى الشام، فرأى الشاميين مُولعين بعبادة الأصنام، وقد زينها لهم الشيطان، فرجع إلى الحجاز، ووضع الأصنام في داخل الكعبة وسن للعرب عبادتها.

وإذا قامت عبادة الأصنام وازدهرت في مكة: البلد الحرام، خضعت لها سائر البلاد العربية، العرب رحبوا بالوثنية أكرم ترحيب؛ حتى انتشرت جراثيمها في الجزيرة العربية كلها، وانطفأ سراج الدين الإبراهيمي الحنيف.

فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم-: "رأيت عمرو بن لحي قمعه بن خندف أخا بني كعب يجر قصبه في النار".(1)

وهي قصة تثير العجب؛ فإن ارتداد العرب الموحدين كلهم إلى الشرك والوثنية وتحوُّل الدين الحنيف إلى دين، أبرز سماته "الجاهلية" ثورةٌ سيئة خطيرة،

(1) أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله ، **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر،(بيروت: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ)، ج2، ص171، رقم3521.

أقامها -بسهولة- التشبه بالغير، وهو الذي أدَّى إلى حدوث دين وثني على حساب الدين الحنيف، ونشوء قومية على قومية أخرى.

ودع هذه القصة القديمة، وسرِّح طرفك إلى جمهورية تركيا، كيف سلبها تقليدُ الغرب والتشبهُ بهم مزاياها الإسلامية، ووصل بشعبها المثقف إلى أن أصبح لا بالإسلام له عناية، ولا بالانتماء إليه فخر واعتزاز[1].

(١) ألف الشيخ هذا الكتاب عام ١٠٣٠م، عند ما كانت دولة تركيا تكتوي بنار القومية والعنصرية، التي أججها مصطفى كمال أتاتورك، فالمعلوم لدى الجميع أن تركيا كانت مركزًا للحكم العثماني الإسلامي حتى عام ١٩٢٢م، وفي سنة١٩٢٢م تم خلع آخر السلاطين العثمانيين محمد السادس، وألغى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة نهائيًا في عام ١٩٢٤م، ودخلت تركيا مرحلة جديدة، وهي مرحلة الردة الفكرية الجامعة، فبعد الحرب العالمية الأولى قاد مصطفى كمال أتاتورك حركة قومية، ذهبت برواء الدولة، وسلخت شعبها كل الخصائص والمميزات، وتحولت الدولة إلى دولة علمانية جمهورية، وعمل مصطفى كمال أتاتورك بكل تفان وإتقان على إحلال نظام علماني في البلاد، وأرسى أيضًا عددًا من العادات الغربيّة إلحاقًا للبلاد بأوروبا، ومنها استبدال الكتابة بالأحرف العربية إلى اللاتينية؛ حتى في طبع المصحف الشريف، وإلغاء الشريعة الإسلامية وفرض قوانين الأحوال الشخصية، وتحريم تعدد الزوجات، وجعل القضاء وحده هو الفصل في طلب الطلاق، والتعديل الجائر في قوانين المواريث الإسلامية، وإباحة النكاح للمرأة المسلمة مع من تشاء، من أي دين كان، ونشر الإباحية والرقص والسفور، ومنع التعليم الديني والأذان بالعربية، وما إليها من الأحكام الجائرة الكثيرة؛ ولكن ظهرت دعوات مخلصة ورجال مخلصون، حاولوا مقاومة الفكر العلماني، ومنهم العلامة بديع الزمان سعيد النورسي، الذي له جهود مشكورة في الإبقاء على الجذور الإسلامية في تركيا في تلك المرحلة الخطيرة، وتسلسلت هذه الجهود الإصلاحية المصيرية، حتى قامت بفضل الله للإسلاميين قائمة، واستطاع حزب الرفاه الإسلامي الفوز بأكثر من ١٩٪من الأصوات في الانتخابات البلدية عام ١٩٩٤م، وشكل الحزب حكومة جديدة في عام ١٩٩٦م، ومع الأيام ظهر للعالم أجمع أن الإسلام متجذر في قلوب الشعب التركي، ولايمكن فصلها

وهذا التشبه بالغير هو الذي جرَّ على كابل (عاصمة أفغانستان) ويلات كثيرة، ومَهَّد الطريق لإلغاء الشعائر الإسلامية، وإن لم يتم إلجام هذه المساعي الخبيثة في مهدها فليس ببعيد أن تُحرم هذه الدولةُ العريقة في الإسلام كل ميزة إسلامية واحدةً واحدةً، عياذاً بالله منه.

فالتشبه بالغير جرثومة فتَّاكة إذا أصيبت بها أمة وقوم، نخرت في جسدها، وفتّت في عضدها؛ حتى استأصلتها.

وبنظرة إجمالية فيما جرّ التشبه بالغير على الأقوام والبلاد على مدار التاريخ يتبين أن التشبه بالغير يعني تخريب الحدود وإلغاء الخصائص الذاتية، وبكلمة أخرى التشبه بالغير يرادف مجاوزة الحد الفطري أو إقصاء الحدود الحقيقية، فإن الشيء إذا تشبه بغيره، فَقَدَ شكله؛ حتى إن تخريب الحدود هذا يؤدي –بشكل تدريجي– إلى القضاء على الصورة الحقيقية وحدوث صورة جديدة مكانها، فإن التخريب إذا مس أساس شيء كوني أو شرعي، لا يبقى ما يقوم عليه.

هَبْ أن حقيقة الإنسان تتمثل في "الحياة والإدراك"، والحياة لها حد ومظاهر، الحياة هي التي توفر للإنسان الحسَّاسيةَ، فليس الإنسان جماداً، وهي التي تهبه الانطلاق الاختياري، فما هو بحجر ساكن، وهي التي تهبه النمو والنشوء، فهو ليس بخشبة جافّة بَليت، فالحياة تتوقف على حد، ولها آثار ومظاهر تميز الإنسان عن الجماد.

عن الإسلام، وكل محاولات لإبعاد الشعب التركي عن الإسلام ستذهب سدى إن شاء الله؛ وانظر: رضا هلال، **السيف والهلال: تركيا من أتاتورك إلى أربكان**، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٩م/ ١٤١٩هـ)؛ وأنور الجندي، **يقظة الإسلام في تركيا**، (القاهرة: دار الأنصار، د.ط. د.ت).

وكذلك العنصر الثاني لحقيقة الإنسان "النطق والإدراك" جعله يُدرك الأمور العقلية، و يتكلم بفصاحة وبلاغة، ويتمتع بالتحضر والمدنية، و حسن النظام، والنزاهة والعفة، كما أنه بهذا العنصر يخترع الكثير من الاكتشافات والتسهيلات، ويفوق أبناء جنسه ويمتاز عنهم، فهذا العنصر الثاني ميَّزه عن الحمار والفرس وجميع الحيوانات الأخرى، فالإنسان يبقى إنساناً ما دام يتوفر فيه هذان العنصران.

ولو فرضنا أن الإنسان نُزع منه الحياة والحيوانية، وسرى فيه دبيب الموت، لتحول الإنسان الحي صاحب الإرادة إلى جماد ميت مفقود الشعور والإحساس، وحلَّ الجمود محل النمو، والاضطرار محل الاختيار، وفقدان الشعور محل الشعور والعاطفة، فهو لا يسمَّى إنسانا إلا مجازاً.

وإذا بقيت فيه الحياة، وسُلب النطق والإدراك، فهو حيوان بلاشك، إلا أن الجهل يحل محل العلم، والغفلة محل التعقل، والبهيمية محل الإنسانية، وإذا تمكنت هذه العوارض الخارجية في الإنسان على حساب الخصائص الإنسانية المتميزة قضت على إنسانيته، فإن الشيء إذا أُلغي كنُهه، ومُحيت حقيقته، يلزم حتماً أنه لم يَعُدْ جامعاً لجميع أفراده، ولا مانعاً عن دخول أفراد الغير.

وكما أن الإنسان أشرف أنواع الخليقة فَقَدَ إنسانيته الحقيقية بسبب الاختلاط بالعوارض الخارجة عن الإنسانية، فكذلك حال الأقوام والأديان في الأمور التشريعية، فإنها إذا أصبحت لا تمتنع عن قبول خصائص الغير، لا تبقى هي جامعة لخصائصها المتميزة.

وعَدَمُ الجمع والمنع يؤدي إلى إلغاء الحقيقة الصحيحة، وحتى تبقى كل أمة

على خصائصها ولا تندمج في الأخرى يجب عليها أن تتجنب التشبهَ بالغير، وتخريبَ الحدود، ولاتُلغي الخصائص، ولا تفسد الحقائق.

ودرءً لهذه المخاطر العظيمة والمفاسد الجسيمة جاء في ديننا الإسلامي وعيد شديد للمتشبهين والمتشبهات، ولعنة وويل للمأخوذين بسحر التشبه، ومن مظاهره ما يلي:

١- فقد لعن النبي –صلى الله عليه وسلم- المتشبهات من النساء بالرجال في عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم، كما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، فإن حدود الرجال غير حدود النساء، والمقاصد والمصالح المتعلقة بالصنفين متعارضة، فكأن الذي يتشبه بغيره يتجاوز حده، ويرتع في حد غيره، ويُلغي جميع المصالح المربوطة بذاته الصنفي، فإن الالتباس كما يأتي على شكله الظاهري الطبيعي، يأتي على مصالحه وأغراضه.

تأمل تجد أن أخطر الأمراض التي أصيبت بها الحضارة الغربية الراقية هي الاختلاط العجيب بين الصنفين، فالمرأة الغربية التي خُلقت لتكثير النوع الإنساني وتربيته وسكينة القلب وأنس الروح، ولتكون أما مربية وزوجة عفيفة، وزينة للبيت وجمالاً للأسرة، وربّة البيت الناظرة في شؤئنه، هذه المرأة قد خرجت اليوم من البيت مترجلة تبحث عن وظيفة وخدمة في أحد المصانع والمتاجر ومكاتب التذاكر، وترغب في أن تصبح جمال الشوارع والمتنزهات، وتتكاتف مع الرجال في المدارس والكليات، أفرأيت أن هذه المرأة تحقق هدف خلقتها، أوَ لم تحل كثير من الصفات الرجالية محل الصفات النسائية؟ بلى، فلم تبق إذًا هذه المرأة امرأة خالصة، ولم تتحول رجلاً خالصاً؛ فهي صنف ثالث بين الصنفين، ما خلقه الله؛ بل أنشأه ضلال الإنسان

وأخرجه إلى الدنيا؛ حتى لم يبق لهذه المرأة: امرأة الصنف الثالث عاطفة نسائية أودعها الله كل امرأة، وليس عليها فرائض خلقت لتحملها، فتغير شعورها، وتبدل فكرها وخيالها بشكل لافت، فلا وجه كوجه المرأة، ولا قلب كقلب المرأة، فهي تنكرت لقلبها وقالبها، واقتحمت في صنف يختلف عن كل من الرجال والنساء، فكأن الله سبحانه أخطأ في خلق الرجال والنساء صنفين، ووضع الحواجز بينهما، وجاء مفكرون غرب ليصلحوا هذا الخطأ، ويقيموا بينهما مساواة وحرية- عياذاً بالله -.

إن هذا الخروج على الصنف الفطري، وتغييرَ القلوب والقوالب ناشئ عن كسر الحواجز الطبيعية التي قامت على مبدأ ترك التشبه، المبدأ الذي أوضح في أول أمره أن الاختلاط بين الصنفين - ولو أشاد به الملحدون واعتبروه أساس الحرية والمساواة- عملية شنيعة ملعونة في نظر الإسلام، فقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم- وبلهجة عنيفة بالغة- عن التشبه، ولعن صاحبه، فقد صح أنه -عليه السلام- قال: لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل[1]، وفي رواية: ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه بالنساء من الرجال[2].

٢- ومن أجل ذلك لُعِن المصورون بلسان النبي - صلى الله عليه وسلم-؛ فإن المصورين وصُناع الأصنام والتماثيل بممارسة هذه العملية يرفضون حد المخلوق، ويدخلون في حدود الخالق، ويريدون أن تذوب الحواجز بين الحدين.

---

(١) أخرجه السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي، **سنن أبي داود**، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي(بيروت: دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م)، رقم ٤٩٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم٦٨٧٥.

يقول الحديث النبوي الشريف: " إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون، فيقال لهم أحيوا ما خلقتم "[1]، وفي رواية: أشد الناسِ عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله"[2].

٣- ومن نفس السبب جاء نهي شرعي شديد عن تشبه الشيوخ بالشباب كقمع الشعر الأبيض، أو صبغه بالأسود، أو الذي يشبه سلوك الشباب، فالشيخ يرغب بهذا السلوك الشاذ في كسر حد الشيخوخة (التي يتصل بها عديد من المقاصد والمصالح) واقتحام ميدان الشباب، وهو استبدال الذي هو شر بالذي هو خير، نعم إذا تشبه الشباب بالشيوخ، فهو ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، كتشبه الفاسق بالصالح، وتشبه الكافر بالمسلم، أجل، إن التشبه بالخير محمود ومطلوب، فجاء في الحديث: خير شبابكم من تشبه بكهولكم[3].

٤- ومن أجل ذلك كره أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق[4] أن يتشبه العبد

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم٢١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٥٩٥٤؛ ومسلم في **صحيحه**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت) رقم٢١٠٧.

(٣) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ج١٥، ص٧٧٦، رقم ٤٣٠٥٥.

(٤) هو الصحابي الجليل عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وله السفارة فيهم، ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره. وهو أحد العمرين اللذين كان النبي صلّى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع. قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن

بالحر، أو تتشبه الأمة بالحرة، تشبهًا قد يدعو إلى اللبس وذوبان التميز، فقد زجر سيدنا عمر أمة اسمها "وفاء" قائلاً: ألقي عنك الخمار يا وفاء! أتشبهين بالحرائر"[1].

نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر. وقال عكرمة: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر. وكانت له تجارة بين الشام والحجاز. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر (سنة ١٣ هـ بعهد منه. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق، وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة. حتى قيل: انتصب في مدته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام. وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجريّ، وكانوا يؤرخون بالوقائع. واتخذ بيت مال المسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة فبنيتا. وأول من دوَّن الدواوين في الإسلام، جعلها على الطريقة الفارسية، لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات عليهم. وكان يطوففي الأسواق منفردا. ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكتب إلى عماله: إذا كتبتم لي فابدأوا بأنفسكم. وروى الزهري: كان عمر إذا نزل به الأمر المعضل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم. وله كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة. وكان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان أول ما فعله لما ولي، أن ردَّ سبايا أهل الردة إلى عشائرهن وقال: كرهت أن يصير السبي سبة على العرب.

وكانت الدراهم في أيامه على نقش الكسروية، وزاد في بعضها " الحمد للهَّ " وفي بعضها " لا إله إلا الله وحده " وفي بعضها " محمد رسول الله ". له في كتب الحديث ٥٣٧ حديثا.

وكان نقش خاتمه: " كفى بالموت واعظا يا عمر " وفي الحديث: اتقوا غضب عمر، فإن الله يغضب لغضبه.

لقَّبه النبي صلى الله عليه وسلّم بالفاروق، وكناه ب أبي حفص. وكان يقضي على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم. قالوا في صفته: كان أبيض عاجي اللون، طوالا مشرفا على الناس، كث اللحية، أنزع (منحسر الشعر من جانبي الجبهة) يصبغ لحيته بالحناء والكتم. قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسيّ (غلام المغيرة بن شعبة) غيلة، بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح، وعاش بعد الطعنة ثلاث ليال، وتوفي عام ٢٤هـ، ودفن في حجرة عائشة مع النبي –صلى الله عليه وسلم– وسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله، فطاب حيا وميتا، رضي الله عنه؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص٤٥.

(١) انظر : علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ج٦، ص٦٩٤، رقم ١٧٤٤٩.

والحاصل أن الله سبحانه فرَّق بين كل صنف ونوع، وبين كل أمة وجماعة، أعطى كل شيء كوني خلقه وصورته، ورسم له حدًّا خاصاً، به يُعرف كل شيء، وبه يُنادَى، كذلك وهب الأمة المسلمة في الأمور التشريعية الحدود المميزة، والخصائص الباهرة، التي تجعل منها أمة مستقلة تمتاز عن غيرها؛ حتى تتحقق المقاصد المتصلة بكل أمة وقوم.

ولا يخفى أن تشبه الشيخ بالشاب، والرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والأمة بالحرة يندرج في إطار تشبه المسلم بالمسلم؛ ولكن مع هذا كرهه الشارع، فالشريعة حريصة على إبقاء كل حدود صنفية، ليكون كل شيء متميزاً، ولا يلتبس بالآخر التباساً يذيب التميز، ويقضي على المقاصد المطلوبة من كل صنف.

إن المثير للانتباه أن الدين الذي يرفض تشبه المسلم بأخيه المسلم في الإطار الصنفي والنوعي، هل يرضى بأن يتشبه المسلم بالكافر، ويتشبه محب الله بعدو الله، ويتصل المطيع بالعاصي، ويكسر الرجل الرباني حدوده الطيبة، ويقرع أبواب الباطل، هل يقره الشرع الإسلامي؟كلا، وهل يستيسغ من له مسكة عقل وذرة خير، وشائبة الخير والحياء أن يدعي المسلم بلسانه حب الله ورسوله، ويلغي بيده الحدود الإسلامية ويكسرها ويبطل مصالحها الحكيمة الراشدة، ويقيم على أنقاضها حدوداً غير إسلامية؟.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النساء:١٣-١٤].



الفصل الرابع:

التشبه بالكفار في نصوص الكتاب والسنة وآثار علماء الأمة

المبحث الأول: موقف القرآن من التشبه بالكفار

وقد سعى القرآن الكريم زعيمُ الوحدة والائتلاف (الذي يعتبر المجتمعَ البشريَ كله أسرة واحدة من أب وأم، ويدعو الجميع إلى وحدة العقيدة: عقيدة التوحيد) إلى إبقاء الصور المميزة بين الأديان (ما دامت هذه الأديان باقية)؛ حتى يُعرف كل قوم وأمة بحدودهم وخصائصهم، فقد نادى الإنسانية كلها بقوله: "ولا تفرقوا"، ومن جهة أخرى وصف نفسه بالفرقان الذي يفرق بين الحق والباطل، وحثَّ الإنسانية كلها إلى الاتحاد والتعاون، ثم يسمى نفسه بالقول الفصل، الذي من شأنه أن يفصل بين الرشد والغي، والهدى والضلال، وفعلاً قد قام القرآن (ذلك الفرقان والقول الفصل) بالفصل بين الإيمان والكفر، وبين الأمانة والخيانة، وبين الدين الحق والأديان الباطلة.

فإن أمم العالم كلها لدى نزول القرآن كانت قد التبس عليها الحق بالباطل، واتصلت عندها حدود الخالق والمخلوق، فآمن البعض بتواجد الصفات الإلهية في الخلق، وزعم البعض أن صفات الخلق الناقصة توجد في الإله الخالق، فجاء القرآن

ليفرق بين ظلمات الكفر ونور الإيمان تفريقاً أزال اللبس، فكان المعروف والمنكر اتحدت مظاهرهما وآثارهما؛ حتى لا يُعرف أحدهما عن الآخر، فالقرآن هو الذي حدد المعروف، وحدَّد المنكر، وخطَّ لهما حدوداً، وأَمَر بالمعروف، ونَهى عن المنكر.

كانت الأمم نسيت ما بين الطيب والخبيث من فرق وميزة، فميَّز القرآن الطيب عن الخبيث، وأحلَّ الطيبات وحرّم الخبائث.

وكذلك أقام حدوداً فاصلة بين الأمة المسلمة والأمم الأخرى، ونصَب حاجزاً سميكاً بين الخير والشر؛ حتى لايتسرب الالتباس بين السعيد والشقي والمطيع والعاصي والمسلم والكافر وأولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فقال مرة: ﴿**أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ٣٥**﴾ [سورة القلم: ٣٥].

ووضع حدًّا واضحاً بين المؤمنين والمفسدين، فقال: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ٢٨**﴾ [سورة ص: ٢٨].

وقال: ﴿**أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١**﴾ [سورة الجاثية: ٢١].

وأظهر في موضع أن الصالح يمتاز عن الطالح امتيازَ البصير عن الأعمى، فلا يستويان: ﴿**وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨**﴾ [سورة غافر: ٥٨].

وبين في مواضع أن العبد المؤمن والعبد المشرك لا يستويان، حيث قال: ﴿**ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٩**﴾ [سورة الزمر: ٢٩].

وقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [سورة النحل: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النحل: ٧٦].

وقد حث القرآن الأمة المسلمة على التفريق بين الحق والباطل في العادات والسلوك، إشعاراً بالتمييز الطبيعي بين الحق والباطل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[سورة البقرة: ٤٢].

فالقرآن الكريم –مع كونه داعياً إلى الوحدة والاعتصام– يحرص على بقاء الحد والتميز بين الأديان والأقوام، أجل، إن الوحدة التي ينشدها القرآن هي أن تنضم الأمم كلها إلى الإسلام، فلا تبقى الأديان؛ ولكن دين واحد، ولا تختلف الأقوام إلا أمة واحدة ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾[سورة الأنفال: ٣٤].

ولا يريد الإسلام بالوحدة أن يتحد الخير والشر، وهما باقيان في صورتهما وأشكالهما، ولا يريد أن تكون الظلمة على ما هي عليه، ثم تلتبس بنور الإيمان، فيحدث شيء ثالث مؤلَّف من النور والظلمة، فلا نور خالص، ولا ظلمة خالصة، فلا خير صافياً، ولا شر واضحاً.

فإن القرآن لو اعترف بهذا النحو من الوحدة التي أبرزُ عناصرها لَبْس الحق بالباطل لرضي بأن لا قرآن ولا أمة قرآنية، لا إسلام ولا أمة مسلمة؛ فإنه قد تحقق أن

الالتباس هو الظلام الحالك الذي يذهب بجمال الأشياء، ويستر خصائصها، ثم تتحول هي من الخير إلى الشر ومن الحق إلى الباطل.

فإن الالتباس إذا تسرب إلى العلم الحقاني ذهبت الميزة بين العلم الحق والعلم الباطل، وإذا دبّ دبيبه في مجال العمل مزج العملَ الصالح بالعمل الفاسد، ويؤدي بشكل تدريجي بكل أمة ذات علم وعمل إلى التنكر لكيانها القومي والاندماج في أمة أخرى، ولبسِ نفسها بشعائرها العلمية والعملية، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

فالتشبه والاختلاط بالباطل خطوة أولى في طريق إزالة الحق والصدق، ومن ثم جاءت الآية المذكورة أعلاه بالنهي عن اللبس أولاً، ثم عن كتمان الحق الذي هو أحد آثار اللبس، فإن اللبس يكتم الحق ويُضرمُ الباطل.

فالقرآن أوضح هذه المسألة كل الإيضاح؛ حيث كره لبس الحق بالباطل وكتمان الحق في آيات كثيرة، ثم صرّح بالنهي عن التشبه والالتباس، ثم تقدم خطوة فرسم منهجاً عملياً متكاملاً يحيط بالمسألة من جميع الجوانب، ويضع الحد –سداً للباب– من كل وسيلة، بوسعها أن تؤدي إلى التشبه بالكفار؛ حتى لا يحدث تشبه صوري ومعنوي بين المسلم والكافر.



المبحث الثاني: مظاهر ترك التشبه في القرآن

وأسوق فيما يلي مظاهر المنهج القرآني فيما يتعلق بالتشبه:

المظهر الأول: ترك الموالاة

نهى القرآن –في أكثر من آية– المسلمين عن موالاة الكفار واتخاذهم أولياء وبطانةً من دون المؤمنين؛ فإن القلب –والموالاة من أعمال القلب– سلطان الجسد، إذا مال إلى شيء، خضعت له سائر الأعضاء، فالموالاة القلبية تدعو إلى التشبه الكامل بالكفار في المظهر والمخبر والقلب والقالب، وهذا التشبه يتعارض مع الهدف القرآني الأسمى، ففي آية نهى عن موالاة اليهود والنصارى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥١**﴾ [سورة المائدة: ٥١].

وفي أخرى نهى عن موالاة أهل الكتاب والمشركين والكفار والذين يتخذون الدين الإسلامي هزوًا، فقال: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧**﴾ [سورة المائدة: ٥٧].

وفي ثالثة صرّح بأن لا يجوز للمسلم أن يُوادَّ من حادّ الله ورسوله سواء بالكفر أو الفسق بالمجاهرة أو الابتداع: ﴿**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾[سورة المجادلة: ٢٢].

ومن الواقع المشاهد أن عظمة الإسلام وحب الله ورسوله ينقصان في القلب بقدر ما فيه من موالاة الكفار وحب الملحدين، فإنه لولاه لذهب تعارض الكفر والإيمان، وهذا ما يقوله العارفون: إن مودة الكفار تُفسد على المرء إيمانه؛ بل يقول الشيخ سهل بن عبد الله التستري: "لايحب المبتدعَ – فضلاً عن الكافر – من في قلبه إيمان خالص"، وبهذه الآية استدل مالك على معاداة القدرية وتحريم مجالستهم، وإذا خَلَتْ القلوب المسلمة عن التشدد في موالاة الكفار حَلَّت محله المودة القلبية.

والمودة القلبية ليست إلا بريداً إلى انضمام المسلم إلى جماعة الكفار والانسجام معهم في الصورة والسيرة والقلب والعاطفة.

وقد ذكر القرآن بدوره هذه النتيجة للمودة القلبية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾[سورة المائدة: ٥١].

فأول ما يجب على المسلم تجاه هذه القضية البالغةِ الحساسية أن يقطع – عملاً بالآية – كل صلة بالكفار، كما قطع أبو عبيدة بن الجراح(١) صلته بأبيه؛ حتى قتله بيده،

(١) هو الصحابي الجليل عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب الفهري القرشي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وسماه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأمين هذه الأمة، أسلم مبكرا، وشهد سائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو الذي نزع الحلقتين من وجه الرسول الله يوم أحد، فسقطت ثناياه رضي الله عنه، هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة، ولاه عمر بن الخطاب قيادة جيوش الشام بدلا من خالد بن الوليد، فكان رضي الله عنه من الأبطال

وقتل مصعب بن عمير[1] رضي الله عنه أخاه عبيد بن عمير في غزوة أحد صدوراً عن نفس المبدأ (الشدة على الكفار)، وقتل عمر بن الخطاب[2]

الأفذاذ، توفي بطاعون عمواس عام (١٨ هـ) ، وقد توفي أولاده فلم يعقب؛ وانظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٣ ص ٤٠٩- ٤١٥؛ وابن الأثير، **أسد الغابة**، ج٣ ص٨٤ - ٨٦ ؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٧، ص٩٤.

(١) هو الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، القرشي، من بني عبد الدار، صحابي، شجاع، من السابقين إلى الإسلام. أسلم في مكة وكتم إسلامه، فعلم به أهله، فأوثقوه وحبسوه، فهرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة. وهاجر إلى المدينة، فكان أول من جمع الجمعة فيها، وعرف فيها بالمقرئ، وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد ابن معاذ. وشهد بدرا. وحمل اللواء يوم أحد، فاستشهد. وكان في الجاهلية فتى مكة، شبابا وجمالا ونعمة، ولما ظهر الإسلام زهد بالنعيم. وكان يلقب "مصعب الخير"؛ وانظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، **الأعلام**، (القاهرة: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م).

(٢) هو الصحابي الجليل عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصح أبي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وله السفارة فيهم، ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنذاره. وهو أحد العمرين اللذين كان النبي صلّى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع. قال ابن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر. وقال عكرمة: لم يزل الإسلام في اختفاء حتى أسلم عمر. وكانت له تجارة بين الشام والحجاز. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ١٣ هـ بعهد منه. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق، وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة. حتى قيل: انتصب في مدته اثنا عشر ألف منبر في الإسلام. وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجريّ، وكانوا يؤرخون بالوقائع. واتخذ بيت مال المسلمين، وأمر ببناء البصرة والكوفة فبنيتا. وأول من دوَّن الدواوين في الإسلام، جعلها على الطريقة الفارسية، لإحصاء أصحاب الأعطيات وتوزيع المرتبات عليهم. وكان يطوففي الأسواق منفردا. ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم. وكتب إلى عماله: إذا كتبتم لي فابدأوا بأنفسكم. وروى الزهري: كان عمر إذا نزل به الأمر المعضل دعا الشبان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم. وله كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة. وكان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر. وكان أول ما فعله لما ولي، أن ردَّ سبايا أهل الردة إلى عشائرهن وقال: كرهت أن يصير السبي سبة على العرب.

رضي الله عنه خاله العاص بن هشام، وقتل حمزة[1] وعلي[2]

وكانت الدراهم في أيامه على نقش الكسروية، وزاد في بعضها " الحمد للهَّ " وفي بعضها " لا إله إلا الله وحده " وفي بعضها " محمد رسول الله ". له في كتب الحديث ٥٣٧ حديثا.
وكان نقش خاتمه: " كفى بالموت واعظا يا عمر " وفي الحديث: اتقوا غضب عمر، فإن الله يغضب لغضبه.
لقَّبه النبي صلى الله عليه وسلّم بالفاروق، وكناه ب أبي حفص. وكان يقضي على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلم. قالوا في صفته: كان أبيض عاجي اللون، طوالا مشرفا على الناس، كث اللحية، أنزع (منحسر الشعر من جانبي الجبهة) يصبغ لحيته بالحناء والكتم. قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسيّ (غلام المغيرة بن شعبة) غيلة، بخنجر في خاصرته وهو في صلاة الصبح، وعاش بعد الطعنة ثلاث ليال، وتوفي عام ٢٤هـ، ودفن في حجرة عائشة مع النبي – صلى الله عليه وسلم- وسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فطاب حيا وميتا، رضي الله عنه؛ وانظر: الزركلي ، **الأعلام**، ج٥، ص٤٥.

(١) هو الصحابي الجليل حمزة بن عبد المطلب بن هاشم. أبو عمارة، من قريش: عم النبي صلّى الله عليه وسلم وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام. ولد ونشأ بمكة. وكان أعز قريش وأشدها شكيمة.
ولما ظهر الإسلام تردد في اعتناقه، ثم علم أن أبا جهل تعرَّض للنّبيّ صلّى الله عليه وسلم ونال منه، فقصده الحمزة وضربه وأظهر إسلامه، فقالت العرب: اليوم عزّ محمد وإن حمزة سيمنعه.
وكفوا عن بعض ما كانوا يسيئون به إلى المسلمين. وهاجر حمزة مع النبي صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة، وحضر وقعة بدر وغيرها. قال المدائني: أول لواء عقده رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان لحمزة. وكان شعار حمزة في الحرب ريشة نعامة، يضعها على صدره، ولما كان يوم بدر قاتل بسيفين، وفعل الأفاعيل، وقتل يوم أحد، فدفنه المسلمون في المدينة؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٢، ص٢٧٨.

(٢) هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أبو الحسن: أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشيدين وأحد العشرة المبشرين، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاما بعد خديجة. ولد بمكة، وربي في حجر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه.
وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد. ولما آخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه قال له: أنت أخي، وولي الخلافة بعد مقتل عثمان ابن عفان (سنة ٣٥ هـ فقام بعض أكابر الصحابة يطلبون

وعبيدة بن الحارث[1] ذويهم: عتبة ووليد بن عتبة وشيبة بن ربيعة[2]، وضربوا بذلك

القبض على قتلة عثمان وقتلهم وتوقي عليّ الفتنة، فتريث، فغضبت عائشة وقام معها جمع كبير، في مقدمتهم طلحة والزبير، وقاتلوا عليا، فكانت وقعة الجمل (سنة ٣٦ هـ وظفر عليّ بعد أن بلغت قتلى الفريقين عشرة آلاف، ثم كانت وقعة صفين (سنة ٣٧ هـ وخلاصة خبرها أن عليا عزل معاوية من ولاية الشام، يوم ولي الخلافة، فعصاه معاوية، فاقتتلا مئة وعشرة أيام، قتل فيها من الفريقين سبعون ألفا، وانتهت بتحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاصي فاتفقا سرا على خلع عليّ ومعاوية، وأعلن أبو موسى ذلك، وخالفه عمرو فأقر معاوية، فافترق المسلمون ثلاثة أقسام: الأول بايع لمعاوية وهم أهل الشام، والثاني حافظ على بيعته لعليّ وهم أهل الكوفة، والثالث اعتزلهما ونقم على علي رضاه بالتحكيم، وكانت وقعة النهروان (سنة ٣٨ هـ بين علي وأباة التحكيم، وكانوا قد كفروا عليا ودعوه إلى التوبة واجتمعوا جمهرة، فقاتلهم فقتلوا كلهم وكانوا ألفا وثمانمائة، فيهم جماعة من خيار الصحابة، وأقام عليّ بالكوفة (دار خلافته) إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في مؤامرة ١٧ رمضان المشهورة، واختلف في مكان قبره، روى عن النبي صلّى الله عليه وآله الملك " وجمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سمي " نهج البلاغة " والاكثر الباحثين شك في نسبته كله إليه. أما ما يرويه أصحاب الأقاصيص من شعره وما جمعوه وسموه " ديوان علي بن أبي طالب " فمعظمه أو كله مدسوس عليه. وغالى به الجهلة وهو حيّ: جيء بجماعة يقولون بتأليه فنهاهم وزجرهم وأنذرهم، فازدادوا إصرارا، فجعل لهم حفرة بين باب المسجد والقصر، وأوقد فيها النار وقال: إني طارحكم فيها وترجعوا، فأبوا، فقذف بهم فيها. وكان أسمر اللون، عظيم البطن والعينين، أقرب إلى القصر، وكانت لحيته ملء ما بين منكبيه، ولد له ٢٨ ولدا منهم ١١ ذكرا و ١٧ أنثى؛ والزركلي، **الأعلام**، ج ٤، ص ٢٩٥.

(١) هو الصحابي الجليل عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، أبو الحارث: من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام. ولد بمكة، وأسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وعقد له النبي ثاني لواء عقده بعد أن قدم المدينة، وبعثه في ستين راكبا من المهاجرين، فالتقى بالمشركين وعليهم أبو سفيان بن حرب، في موضع يقال له " ثنية المرة" وكان هذا أول قتال جرى في الإسلام.

ثم شهد بدرا، وبارز فيها عتبة من المشركين، فاختلفا ضربتين فتوفي على إثرها رضي الله عنه؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٤، ص ١٩٨.

(٢) عتبة وشيبة هما ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيان، والوليد هو ابن عتبة بن ربيعة

أروع أمثلة للحمية الإسلامية والصلابة في الدين، ستظل نبراساً للأمة في كل زمان.

المظهر الثاني: دعوة البراءة من الكفار

والقرآن لا ينتهي إلى هذا الحد؛ بل أمر المسلمين بالمجاهرة السافرة بالبراءة عن الكفار ورفض موالاتهم القلبية؛ حتى لا يطمع الكفار في قلوب المسلمين وقوالبهم، كما أعلن الله ورسوله هذه البراءة: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ١٥٩**﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩].

فرسم خط التفريق بشكل بارز، فقوله تعالى: "لست منهم" ينافي القول بـ"أنت منهم" وهذا معقول، فإن زيدا وعمراً ما داما اثنين، لا يجتمعان في شخص واحد، وإذا قيل: أنت مني وأنا منك، فمعناه: أنا من نوعك، وأنت من نوعي، أنت شريكي وأنا شريكك، وبمثل هذه الكلمات بيّن الله سبحانه ما بين المسلمين من ائتلاف وانسجام، فقال تعالى: "بعضكم من بعض" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت مني وأنا منك، إشعاراً بوحدة الهدف والحقيقة.

وعليه فقول الله تعالى: "لست منهم" ينافي ما قيل سابقاً من وحدة الحقيقة واشتراك الأمور، فأنت وإياهم حقيقتان متضادتان، ولذا قال الله تعالى: "لست منهم في شيء" "في شيء" يقطع كل خيط من خيوط الوصلة والارتباط، فأنت من نوع، وهم من نوع متباين.

المذكور،كانوا من عتاة المشركين وأشدهم على رسول الله وعلى المؤمنين حربا وإيذاء، فكانوا ممن دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأعيانهم، قتلوا في بدر، وألقوا في قليب بدر صاغرين.

أعلنت سورة "الكافرون" هذه البراءة بأسلوب لا مزيد عليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون: ١-٦].

وهذه البراءة تُشْبِهُ براءة إبراهيم من قومه: "﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾[سورة الزخرف: ٢٦].

وكما جاهر إبراهيم والذين آمنوا معه بالبراءة من الكفر بما حكاه الله سبحانه في القرآن: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[سورة الممتحنة: ٤].

فالبراءة من الكفار ظلت سنة الأنبياء والرسل، فيجب على متبعي منهجهم أن يحذوا حذوهم، ويذهبوا مذهبهم في الولاء والبراء؛ حتي يكونوا أتباعهم بمعنى الكلمة.

فدُعي المسلمون إلى إظهار البراءة القلبية واللسانية من الكفار والمشركين، والقلب واللسان هما أصل الإنسان، كماقال الشاعر:

لسانُ الفتى نصف ونصفٌ فؤادُهُ فلم ... يَبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدَّمِ [1].

(١) القائل هو زهير بن أبي سلمى أحد الشعراء الجاهليين؛ وانظر: الزيات، أحمد حسن، **تاريخ الأدب العربي**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ط. د.ت)، ص٥٥.

المظهر الثالث: اجتناب سبل الكفار والمشركين

إن الشريعة الإسلامية حاولت أن تفصل بين طريق المؤمنين وطرق الكفار والمشركين، حتى يتميز المسلمون عن غيرهم لا في القلوب واللسان وحسب؛ بل في الأعمال والأخلاق والسلوك أيضًا، فلا يتبعوهم في المنهج، ولا يقلدوهم في العمل، فقد أُمِر سيدنا موسى وسيدنا هارون -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام- بعدم اتباع سبيل الكفار. قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة يونس: ٨٩].

وبذلك أوصى سيدنا موسى أخاه هارون قائلاً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢].

ولما تأكَّد أن سبيل الأنبياء هو الصراط المستقيم، الذي التزموا به عن علم وبصيرة وصلاح واستقامة. فأي حاجة بعد هذا تدعو أتباعهم إلى سُبُل الكفار الفاسدة الجاهلة؟.

فقد أوتيَ المسلمون هذا المبدأ الذهبي:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾)[سورة الأنعام: ١٥٣].

المظهر الرابع: ترك المعاملات مع الكفار

ولم تقف الشريعة الإسلامية على هذا الحد من المجانبة ورفض الاختلاط؛ بل أوضحت هذا الابتعاد والامتياز إيضاحاً أكثر، حيث نهت عن التعامل مع الكفار.

فإنه إذا قامت السلطة الإسلامية، ورفرفت رأية الحكومة الإسلامية، وأقيمت محاكم إسلامية، فلا يجوز للمسلم اللجوء إلى الكفار والاستعانة بهم في أي

أمر، وإشراكهم في الأمور السياسية وغيرها من الشؤون العملية.

فإن الاشتراك الظاهري في الأعمال قد يسبب تلك الموالاة القلبية الممنوعة، وقد أوضحت سياسة أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق هذا المبدأ كل الإيضاح؛ حيث كتب إلى أمراء المدن ووُلاتها: " أن لا تكاتبوا أهل الذمة، فتجري بينكم وبينهم المودة، ولا تكنوهم، وأذلوهم ولا تظلموهم "[١].

كما أن الحوار الذي جرى بين أمير المؤمنين عمر الفاروق وأبي موسى الأشعري[٢]

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل (بيروت: دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م)، ج١، ص٣٦٧.

(٢) أَبُو مُوسى الأَشْعَري (٢١ ق هـ - ٤٤ هـ = ٦٠٢ - ٦٦٥ م)، هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار ابن حرب، أبو موسى، من بني الأشعر، من قحطان: صحابي، من الشجعان الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى إلى أرض الحبشة. ثم استعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلم على زبيد وعدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧هـ، فافتتح أصبهان والأهواز. ولما ولي عثمان أقره عليها. ثم عزله، فانتقل إلى الكوفة، فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم، فولاه، فأقام بها إلى أن قتل عثمان، فأقره عليّ.

ثم كانت وقعة الجمل، وأرسل عليّ يدعو أهل الكوفة لينصروه، فأمرهم أبو موسى بالقعود في الفتنة، فعزله عليّ، فأقام إلى أن كان التحكيم، وخدعه عمرو بن العاص، فارتد أبو موسى إلى الكوفة، فتوفي فيها. وكان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة، خفيف الجسم، قصيرا. وفي الحديث: سيد الفوارس أبو موسى. له ٣٥٥ حديثا؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١١٤.

رضي الله عنهما يعطي صورةً واضحة للموقف الإسلامي الحقيقي تجاه الكفار في العلاقات والمعاملات، وهذا الحوار أخرجه الإمام أحمد[1] في مسنده بسند صحيح.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: " قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتبا نصرانيا.

قال عمر: ما لك؟ قاتلك الله، أما سمعت الله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥١]، ألا اتخذت حنيفا؟

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، لي كتابته وله دينه.

قال: لا أُكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله"[2].

وأفاد هذا الحوار المليئ بتوجيهات أمير المؤمنين عمر الفاروق أموراً تاليةً:

١- الأصل رفض العلاقات مع الكفار والاستعانة بهم، إلا إذا كانت هناك حاجة ملحَّة، لا سيما التعامل الذي يضمن احترامهم مرفوض شرعاً وعقلاً.

---

(١) هو: الإمام بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله، ولد سنة (١٦٤ هـ) ببغداد، وطلب العلم وهو صغير، ورحل إلى سائر الأقطار وأخذ عن علمائها حتى اشتهر بالحفظ والإتقان، إلى أن صار إماما من أئمة الحديث والفقه، مع التقى والصلاح والقوة في الحق واتباع السنة، وبلغت شهرته الآفاق خاصة بعدما وقف وقفته المشهورة أمام بدعة القول بخلق القرآن، تلك الوقفة التي قهقرت المعتزلة وسائر الفرق اليوم، والإمام أحمد هو إمام المذهب الحنبلي في الفقه، وله مؤلفات كثيرة في السنة، والتفسير، والتوحيد، وغيرها، أشهرها المسند، وقد توفي رحمه الله سنة (٢٤١ هـ)؛ وانظر: **أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، البداية والنهاية،** (بيروت: دار إحيار التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، ج١٠، ص ٣٢٥ – ٣٤٣.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم،** ج١، ص١٨٥.

٢- والعذر القائل: "لنا خدمتهم ولهم دينهم" عذر مرفوض، فإن الاستخدام يستلزم الصحبة والمعية التي قد تقلل من تلك الشدة والغلظة التي يجب أن تكون شعاراً للمسلمين، وهذا التقليل سبباً للمداهنة في الدين والإعراض عن الدين، وبالتالي سبباً لظهور المنكرات والفواحش الكثيرة.

٣- ومعلوم أنه لن يبلغ أحد بعد سيدنا عمر الفاروق وسيدنا أبي موسى الأشعري مَدَاهما في التدين والتقوى، وإن سلمنا أنه بلغ أحد إياه فلا بد أن يُمنع هو مما مُنع منه سيدنا أبو موسى الأشعري من استخدام الكفار، سلمنا أن هناك رجلاً كامل الإيمان راسخ اليقين، ولا يضره مشاركة الكفار في الأعمال والعقود؛ ولكن هذه المشاركة قد تشجع عامة المسلمين على المشاركة الكبيرة والاستعانة المحرمة، باعتبارهم عملية ذلك الرجل القائد حجةً شرعية، فيتورطون فيما لا تُحمد عقباه ويستعصي تداركه.

٤- لا يجوز لعباد الله الخالق أن يُكرموا من أهانهم الله، ويُعِزوا من أذلهم الله، ويحبوا من طردهم الله، فهو ينافي غيرة الإيمان وحمية الإسلام، فإن تكريم أعداء الله من قِبَلِ المؤمنين به يُفضي إلى إهانة الشريعة الإسلامية، وتكذيب أفعال الباري.

٥- الإسلام لا يريد السياسة المحضة؛ وإنما يبتغي إقامة الدين، وقد يتحمل الإفرازاتِ السياسية بحجة أنها طريق إلى إقامة الدين، إلا أنه إذا كان جانب سياسي يستهدف الدين وإفساده أو يتذرَّع إلى كتمان الحق ولبسه بالباطل يجب إبقاء الدين وقطع ذلك الذراع السياسي، وإلا يلزم قلب الموضوع وانقلاب الماهية؛ حيث ترتقي الوسيلة إلى منزلة الغاية، وتتنزل الغاية إلى درجة أحط من الوسيلة.

المظهر الخامس: ترك المجالسة

وحفاظاً على الاستقلالية ودرءً للمفاسد أوصت الشريعة الإسلامية المسلمين بترك مجالسة الكفار ومنادمتهم، فإن المجالسة والمخالطة إذا عمَّت وانتشرت أدَّت بشكل تدريجي مستمر إلى موالاتهم ومودادتهم، وبالتالي إلى محو الخصائص القومية والشعائر الدينية، وذهاب الدين كله، فإن الكفر بالله والاستهزاء بآياته وزرع الشكوك في قلوب المسلمين، هي الطابع الممتاز لنوادي الكفر والشرك، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [سورة النساء: ١٤٠].

ومما يدعو إلى التفكير أن المنافق إذا حمل اسم "المسلم" بالمخالطة الظاهرة والتنميق اللساني أفلا يُطلق على المسلم الحنيف أحكام الكفر والنفاق بهذا السبب: المجالسة والمخالطة، وقد قال القرآن: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾.

المظهر السادس: ترك الأهواء

وبعد كل هذا حرَّمت الشريعة الإسلامية على المسلمين أن يتبعوا الكفار في أهوائهم وجهالتهم أو يميلوا إلى رغباتهم وعواطفهم، فإن اتباع هوى من أهوائهم وعاطفة من عواطفهم يسبب اتباع الأهواء والعواطف الكثيرة، وقبول آرائهم الكثيرة، وبالتالي يؤدي إلى ما لا يُدرَى مصيره، ولا تُحمد عقباه، فأوضح القرآن أن اتباع هؤلاء الجاهلين هو اجتناب سبيل الحق، فقال الله تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ثُمَّ

جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الجاثية: ١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة المائدة: ٤٩].

وقال في موضع في أسلوب الإنذار والتهديد: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الرعد: ٣٧].

وأشارت هذه الآيات الكريمات الداعيات إلى رفض اتباع أهواء الكفار بما يحتوين عليه من ألفاظ "الحق" و"شريعة" و"ما أنزل الله" إلى أنه بعد هذه الشريعة الجامعة لا تبقى حاجة إلى اتباع شيئ دونها فضلاً عن اتباع الكفار، فإن اتباعهم يُوَرِّط في الجهل مكان العلم، والباطل مكان الحق، والسبل المتفرقة المتعرجة مكان الشريعة، ونزعات الشيطان بدل "ما أنزل الله"، "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير".

المظهر السابع: إعلان البغض والعداوة

وبعد قطع كل خيط من الصلة القلبية والقالبية تقدمت الشريعة الإسلامية خطوة أخرى، فأوصت بأن علاقة المسلمين أحباء الله مع أعداء الله هي علاقة بغضٍ وعِداءٍ لا علاقة حب وولاء، فإن الكفار أعداءَ الله يريدون هم ورئيسهم الأكبر الشيطان أن يدفعوا المسلمون إلى هاوية جهنم دفعاً.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [سورة فاطر: ٦].

وما قامت هذه العداوة بدافع نفساني؛ بل لكونه -الشيطان- حامل لواء الباطل ضد الحق.

فهذه العداوة أساسها صدق وحق، ولذا تجب المجاهرة بالعداوة؛ حتى ييئس أعداء الله من استمالة المسلمين، كما فعل إبراهيم وقومه عندما جاهروا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة: ٤].

ثم الأمر لم ينته إلى حد المجاهرة؛ بل أوصت الشريعة بأخذ الأهبة وإعداد المستطاع من حيلة وسلاح وعمليات حربية، لتشتعل نيران العداوة، ولا تبرد إلا أن يتوبوا من الكفر، ويرجعوا إلى الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

والحاصل أنَّ المسلمين لُقِّبُوا بـ"أشداء على الكفار" بسبب عداوتهم مع الكفار وإعلان العداوة وإبقائها؛ فأصبحوا جنودًا من جنود الله، اختارهم الله لكفاح أعداءه، فالمسلمون والكفار جيشان متحاربان، يُمِدُّ أحدهما الملائكة، وآخرهما الشياطين، ودائماً لقي الجيش الأول الفوز والفلاح، وكان نصيب الثاني هو الذل والعار والمهانة والانكسار.

المظهر الثامن: ترك التشبه

كيف يتم التشابه بين فئتين متضادتين وقومين متحاربين، وهل يُعقَل أنَّ الشريعة الإسلامية التي تؤكد على المسلمين ترك موالاة الكفار؛ بل المجاهرة بالعداء والخصام، وترك المخالطة والمجالسة واتباع هواهم من بعيد، تسمح للمسلمين بعقد

التشابه مع الكفار في الصورة والسيرة، وأن يكون المسلمون في هيئتهم وملابسهم وسيرتهم ومعاشرتهم كالكفار؟ كلا، فهو مستحيل ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [سورة الأعراف: ٤٠].

فإن تحارب الجماعتين وعداوتهما بدورهما يقتضي أن لا يكون التخالف من القلب والباطن فحسب؛ بل لا بد من المنافرة والتباعد في الظاهر والقالب، في الهيئة والملابس، في السيرة والسريرة؛ فإن الهيئة الظاهرة والملابس هي التي تميز القريب من البعيد، والصديق من العدو، عندما حمي الوطيس وتلاقي الجيشان، وعملت السيوف وتضاربت الأسلحة، وارتفعت الصيحات، وذهبت المميزات القلبية.

فإنه في خضم هذه المعركة الضارية إذا ارتدى جندي مسلم لباس جنود الكفر، واقتحم الميدان، يُحكم بأنه من جنود الكفر، ويُقتل، ولو أطلق ألف صيحة عميقة بأنه مسلم، وليس من جند الأعداء، فإن "من تشبه بقوم فهو منهم"، فيُعامَل معاملة الجنود الكفار.

وعلى العكس من ذلك إذا ارتدى كافر لباسَ جندي مسلم لا تضربه السيوف اللامعة المسلمة؛ بل تظله وتحميه؛ حتى يتبين كفره ونفاقه.

ومن أجل ذلك يجب أن يكون الجيشان: حزب الله وحزب الشيطان اللذان ما زالا في صراع مستمر وعراكٍ دائم في الأمور الدينية يجب أن يكونا متميزين في الملابس والأسلحة والأوسمة ؛ حتى يُعرف كل منهما في الزحام البشري العالمي بالنظرة الأولي، وَيُعتبر من الغير مَنْ يتبنى هيئة الغير وملابسه.

فقد اختار الله لباس التقوى لحزبه، ولباس الجوع والخوف لحزب الشيطان؛ فإن همَّ الحزب الأول: حزب الله ليس سيادة العالم ولا خيرات الأرض ولا كنوز

المال؛ بل همه الدائم الوحيد إعلاء كلمة الله، فهو لا يخشى إلا الله، ولا تغُرُّه مظاهر الدنيا وشوكة الخلق، وهو لا يسلك إلا سبيل التقوى، فيشع التقوى والتدين من عزائمه وأفكاره وأفعاله ومظاهره، فكأن لون التقوى ساد قلبَه وقالبه، ﴿**وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ٢٦**﴾ [سورة الأعراف: ٢٦].

بينما يستهدف حزبُ الشيطان جوعَ الأرض وحظوظَ الدنيا على حساب الدين، فهو يخشى كلَّ شيء في الدنيا غيرَ ربه، ﴿**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ**﴾ [سورة المنافقون: ٤].

فهو يلوذ بالجدران، ويلجأ إلى القلاع ويتظاهر بالقوة. ﴿**لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ**﴾ [سورة الحشر: ١٤].

فجوع الأرض يدفعه إلى القتال، وخوف الخلق يجعله يلوذ بالفرار، ويرضى بالخسران، فكأن الجوع والخوف شملاه في المظهر والمخبر كاللباس، ومن هنا تجري جميع أعماله وممارساته ومظاهره في ظلال الجوع والحرص والطمع والخوف، فالقرآن مُلِحٌّ على قطع التشابه الظاهري بين الحزبين؛ حتى يتميز المطيع من العاصي، والصادق من الكاذب، ولم يبق للكفار حجة في علم المسلمين وعملهم، قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ١٦**﴾ [سورة الحديد: ١٦].

وقال في موضع آخر: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ٦٩**﴾ [سورة الأحزاب: ٦٩].

وقال في موضع: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦].

الآية الأولى تحذر المؤمنين من مماثلة أهل الكتاب، والآية الثانية تمنع عن التشبه باليهود، والآية الثالثة تؤكد قطع كل خيط الصلة والتشابه مع الكفار وموافقتهم واتباع هواهم.

والمنع عن أن يكون المسلم كالكفار يعني المنع عن المماثلة والمشابهة، فإن المنع عن الكفر يتم بقوله: "لا تكفروا" وأمثاله، فإن الكفر شيئ، والتشبه بالكفار شيء آخر، إن الكافر المجاهر بالكفر، البعيد عن المناهج الإسلامية في كل شيء لا يضر بالإسلام، بمثل ما يضر به المسلم الذي يتشبه بالكفار، ويزعم الإسلام؛ فإنه في الصورة الأولى يتمايز الإيمان والكفر، وفي الصورة الثانية يلتبس الإيمان بالكفر، فلا يظهر وجود كل منها بشكل واضح، واللبس قد يدعو إلى العدم والفناء، فإن الوجود عماده الامتياز.

فالآيات السابقة أقامت حواجز ومميزات بين المسلمين والكفار بالدعوة إلى ترك التشبه والالتباس، لئلا يختلط نور الإسلام بظلمة الكفر، وكل يتميز في مكانه بمميزاته وخصائصه.



المبحث الثالث: التشبه والأحاديث النبوية

وإذا ذهبت تبحث عن أهمية منع التشبه بالكفار وضرورته بعد كتاب الله فارجع إلى الأحاديث النبوية: التفسير الحقيقي الأول لكتاب الله؛ حيث ترى خاتم النبيين محمدًا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول في خطبته العظيمة أمام جمع كبير من أصحابه: "ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع"[1].

وقد تحدثت بالتفصيل عن الجاهلية في فصل مستقل، وأثبتت أن الجاهلية هي عنوان كل دين غير الإسلام، فمعنى الحديث أن كل حكم وديانة كانت سائدة آنذاك غير الشريعة الإسلامية قد تم دوْسُه بالأقدام، وقُطع أصله بالإسلام، فلم يبق لها وزن ولا اعتبار، ولا يجوز الآن أن يبتغي أحد غير الإسلام ديناً ومنهجاً، ويرجو النفع والخير.

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم-: "أبغض الناسِ إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرمِ، ومبتغٍ في الإسلامِ سنة الجاهلية، ومطلب دمِ امرئ بغير حق ليهريق دمه"[2].

وابتغاء المنهج الجاهلي في الإسلام واتباعه هو التشبه بالأغيار، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- بكل صراحة ووضوح: "من تشبه بقوم فهو منهم"[3].

---

(١) أخرجه النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط. د.ت)، رقم ١٢١٨.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٦٨٨٢.

(٣) أخرجه السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، **سنن أبي داود**، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، صيدا، د.ط. د.ت)، رقم ١٤٣١.

وهذا الحديث هو الأصل الجامع في موضوع التشبه، والحديث يبين أن التشبه سواء تـمَّ بالأبرار أو بالفجار، في الخير كان أو بالشر، بالمعاشرة كان أو بالأخلاق والثقافة، يؤدي تدريجيًا إلى أن المتشبّه يصطبغ بصبغة القوم الذين تشبه بهم.

ففي ضوء هذا الحديث يتجلى أن التشبه بالغير كما يشكل وسيلة المحو والفناء في الأمور الحسية التكوينية يمثل كذلك ذريعة إلى زوال الشرائع في الأمور الشرعية، فكل شيء في الكون حسي أو شرعي يحتاج في وجوده وبقائه إلى مبدأ ترك التشبه، فإن التشبه يذيب استقلالية الذات، ويحوِّله إلى قالب المتشبه به صورة وسيرة وحكماً.

فصرّح فقهاء الأمة بأن الجنَّ إذا تشكّل بشكل الحية لا بأس بقتله "من قُتل دون ماهيته هدر".

فإن الشرع الحنيف لم يجعل الحية والعقرب آمنا حتى في الحرم، وإذا تشبه الجن بمن هو مباح الدم، فصار منه، وأطلق عليه حكم الجية.

ولأجل هذا الحديث كره الصحابة والتابعون والسلف الصالح جميع أنواع التشبه بالغير من الهيئة والمعاشرة والأخلاق.

دُعي الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان[1] -رضي الله عنه- إلى وليمة، فحضرها

(١) هو حذيفة بن حِسل بن جابر العبسيّ، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل: هو الصحابي الجليل، من الولاة الشجعان الفاتحين. كان صاحب سر النبي صلّى الله عليه وسلم في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره.
ولما ولي عمر سأله: أفي عمالي أحد من المنافقين؟ فقال: نعم، واحد. قال: من هو؟ قال: لاأذكره. وحدث حذيفة بهذا الحديث بعد حين فقال: وقد عزله عمر كأنما دُل عليه.
وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة، فان حضر الصلاة عليه صلى عليه عمر، وإلا لم يصلّ عليه. وولاه عمر على المدائن (بفارس) وكانت عادته إذا استعمل عاملا كتب في عهده (وقد بعثت

ورأى هناك بعض التقاليد العجمية، فرجع وقال: "من تشبه بقوم فهو منهم"[1].

وسُئل الإمام أحمد بن حنبل: هل يجوز حلق شعر القفا؟ قال: "هذا فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم"[2].

وكان سيدنا الحسين بن علي[3] –رضي الله عنه- يقول: "قلما تشبه رجل بقوم إلا كان منهم"[4].

فلانا وأمرته بكذا) فلما استعمل حذيفة كتب في عهده (اسمعوا له وأطيعوه، وأعطوه ما سألكم) فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين، فقرأ عهده. فقالوا: سلنا ما شئت، فطلب ما يكفيه من القوت. وأقام بينهم فأصلح بلادهم. وهاجم نهاوند (سنة ٢٢ هـ فصالحه صاحبها على مال يؤديه في كل سنة. وغزا الدينور، وماه سندان، فافتتحهما عنوة (وكان سعد بن أبي وقاص قد فتحهما ونقضتا العهد) ثم غزا همذان والري، فافتتحهما عنوة. واستقدمه عمر إلى المدينة، فلما قرب وصوله اعترضه عمر في ظاهرها، فرآه على الحال التي خرج بها، فعانقه وسرَّ بعفته. ثم أعاده إلى المدائن، فتوفي في المدائن عام ٣٦ هـ، كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الخير، وكان يسأله عن الشر مخافة أن يقع فيه، له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثا؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٢، ص١٧١.

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٣٦١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٠٥.

(٣) هو: الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، سبط رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وريحانته، وابن بنته فاطمة، وكان كثير الشبه به، وحضر مع أبيه الجمل وصفين، وقتال الخوارج، وفي سنة (٦١هـ) ، خرج من المدينة قاصدًا الكوفة لأخذ البيعة من أهلها؛ لكنهم خذلوه، وقاتله جيش عبيد الله بن زياد بكربلاء، فقتل بها يوم عاشوراء من سنة (٦١هـ)؛ وانظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **الإصابة في تمييز الصحابة**، (بيروت: دار الجبل، ط١، ١٤١٢هـ)،ج١، ص٣٣٢-٣٣٥.

(٤) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، تحقيق: محمد عثمان الخشت،(بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م)، ج١، ص٦٠٣.

واستدلالًا بالحديث المذكور قال الخطاب بن معلى المخزومي لابنه وهو يعظه: "تشبه بأهل العقل تكن منهم، وتصنع للشرف تدركه"[1]

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم　　　إن التشبه بالكرام فلاح

فهذا الحديث هو دليل قوي على حرمة التشبه بالغير، وإن جمدنا على ظاهره فهو يجعل عملية التشبه بالكفار كفرا صريحاً، والمتشبه بهم كافراً مارقاً عن الملة، كمقتضى آية موالاة الكفار: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وإن كان الكفر له درجات تختلف شدة وضعفاً، فلا شك أن مطلق التشبه بالكفار يجعل الإنسان المسلم قريبًا من حد الكفر، فإن الحدود الإسلامية إذا انكسرت بسلاح التشبه سواء كان التشبه بهم في المعاشرة والحضارة أو في العبادة والأخلاق، قامت الحدود الكفرية مقام الحدود الإسلامية، وعما قليل ينهار القصر الإسلامي لدى الرجل المتشبه، عياذاً بالله من ذلك.

۞۞۞

(١) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط. د.ت.)، ج١، ص٢٠٠.

المبحث الرابع: التشبه وسلفنا الصالح

المطلب الأول: التشبه في عهد الصحابة

وبعد تأصيل مبدأ التشبه في ضوء نصوص الكتاب والسنة يطيب أن أذكر ذلك المنهج العملي المتكامل الذي تبناه سلف هذه الأمة وخيارها فيما يتعلق بالتشبه، حتى يتضح المسطور من خلال المنظور.

ولا شك أن خير القرون في هذه الأمة هم الصحابة، ولا يخفى مكانة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب من بين الصحابة وسياسته الحكيمة الراشده، فكان من رشيد سياسته وحكيم قضائه أنه أكدَّ على منع التشبه حفاظاً على جوهر الإسلام، فهو لم يحافظ على المبادئ والأصول؛ بل سعى السعي الحثيث في الحفاظ على الجزئيات والفروع بشكل أكثر ، فإن النقص في الفروع يسبب الخلل في الأصول، فكانت السيدة عائشة[1] تقول: "إياكم ومحقرات الذنوب"[2].

---

(١) هي السيدة عائشة الصديقة: أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق، زوج الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، تزوجها في مكة وعمرها ست سنين، ودخل بها في المدينة، وعمرها تسع في السنة الثانية للهجرة، ولم يتزوج بكرا غيرها، وهي أحب أزواجه إليه، أنزل الله براءتها من الإفك من السماء، حفظت من السنة كثيرا، وهي أعلم النساء، أخبرها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوما أن جبريل يقرئها السلام، توفي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعمرها ١٨ سنة، وأخبر أنها أفضل النساء، وأنها زوجه في الجنة، توفيت رضي الله عنها سنة ٥٨هـ، وعمرها ٦٧سنة؛ وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية، ج**٨ ،ص ٩١- ٩٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** مرفوعا عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، رقم ٣٨١٨.

فإن الصغائر بريد إلى الكبائر، وطريق إلى اقتحام حماها، فأمر سيدنا عمر الفاروق بترك التشبه بالأغيار حتى في توافه الأمور، وأَنْقُلُ هنا عدة جمل من رسالته الطويلة إلى عامة المسلمين في آذربيجان، حثهم فيها على الإبقاء على الخصائص القومية وذكرهم بها:

" أما بعد، فاتزروا، وانتعلوا، وارموا بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وزي العجم! وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، وتمعددوا[1]، واخشوشنوا[2] واخلولقوا[3]،واقطعوا الركب، وارموا الأغراض، وانزوا[4]"[5].

إن الدعوة إلى البقاء على الطريقة السابقة في اللباس والمعاشرة وسائر جوانب الحياة تهدف أساسًا إلى إقامة المميزات القومية وهدم التشبه بالأعداء، وهذه الكلمات مشيرة إلى مدى اهتمام الصحابة بالمرابطة حتى على الثغور الإسلامية الفرعية، التي تُصنَّفُ اليوم ضمن الأصولية والتعصب وضيق الأفق.

تأملوا عظم ثورة فكرية حدثت في الأمة الإسلامية؛ حيث تعتبر اليوم

---

(١) وتمعددوا: تمعدد الغلام إذ شب وغلظ والمراد: دعوا التنعم وزي العجم.

(٢) واخشوشنوا: إذا لبس الخشن.

(٣) واخلولقوا: أصل الخلق التقدير قبل القطع من أخلاق الثوب وتقطيعه.

(٤) وانزوا: نزوت على الشيء أنزوا نزوا إذا وثبت عليه.

(٥) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ج١٥، ص٤٧٢، رقم ٤١٨٧٠.

الالتزامَ بالفروع والتحفظ في باب التشبه –الَّذَيْنِ كانا بالأمس ضمان التقدم والرقي ومناط السعادة والازدهار– تعتبره العصبية وضيق النظر ضد المصالح القومية.

انظر في الكتب التاريخية تجد أن المتقدمين كلما التزموا تقليد المذهب وتحديد المسلك والتقيد بالأفكار والرؤى الإسلامية الأصيلة كثرت سطوتهم وعظم شأنهم وسطع ضياؤهم من مطلع ما يسمّى اليوم بـ"ضيق الخيال".

ثم و زِنْ بينه وبين حال الأمة المسلمة في هذه الأيام، تبين لك أنه كلما اتسع نطاق المداراة الاصطلاحية والتنوُّر الفكري وسعة الفكر والخيال ضاقت دائرة المجد القومي والوقار الإسلامي وعزة الإسلام والمسلمين.

فلو كانت المداراة والمجاملة والسماحة هي أمارة العز والرقي لنال المسلمون اليوم فوق ما نال سلفهم (الذي يزعمه مسلمو اليوم أنه ضيق الصدر والخيال) من العز والمجد والشوكة، مع أن الواقع عكس المتوقع، فالمسلمون مع كل هذه السعة الفكرية والسماحة القلبية في ضعف وتلاحق مستمرَّيْن.

فإن ضربنا الحاضر في الغابر كانت النتيجة أن كل أمة وقوم في الدنيا لا تقوم لها قائمة ما لم تحافظ على أصول البقاء والتحفظ :مبدأ رفض التشبه.

وليس من القول المبالغ فيه أن أقول: إن الإسلام هو الذي أحكم صياغة هذا المبدأ بكل حكمة واتزان، وهو حقيق بأن ينفرد بحدوده وثغوره، ويلغي الحدود الأخرى لما فيه من سعة ومرونة وشمول وصدق.

فإنه إن اتبع الإسلامَ في استقلاليته واعتداده بذاته دينٌ باطلٌ لاغٍ رغم ما به من نزعات التفاضل الطبقي والتمايز العرقي افتضح أمره سريعًا.

وفي العهد الفاروقي عندما اتسعت الفتوحات في البلدان العجمية، وكثر اختلاط العرب بالعجم، ركَّز أمير المؤمنين اهتمامه بالحفاظ على هذه الحدود؛ فإنه لا يُستبعَد إقبال العرب على المعاشرة العجمية الباهرة رغبةً عن سذاجتهم وصفائهم وعربيتهم الجافة.

فأوسع أمير المؤمنين – من جهة- الفتوحات الإسلامية، ومن جهة أخرى عمل بحكمته السياسية وحنكته الإدارية على الإبقاء على المميزات الإسلامية والخصائص الدينية، وإبعاد المسلمين عن التشبه بالغير، كما تجلى برسالته السابقة، كما نبه الكفارَ أهل الذمة على الابتعاد عن زي المسلمين ونهج حياتهم ما داموا كفارًا؛ حتى ينفرد الجميع بخصائصهم ويقام سَدٌّ أمام الالتباس الفاتك.

فقد أخذ أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق على أهل الذمة في مرسومه الذي اشتهر في طول الخلافة الإسلامية وعرضها الميثاق التالي:

"أن نوقر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا، إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم قلنسوة، أو عمامة، أو نعلين، أو فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نحمله، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقادم رءوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كان، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، ولا نظهر صليبا ولا كتبا، في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيا، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين"(١).

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٣٦٣.

(وفي رواية حرب زيادة، رواها الخلال) " ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وأن لا نخرج صليبا ولا كتابا في سوق المسلمين، ولا نخرج باعوثا - والباعوث: يخرجون يجتمعون كما يخرج يوم الأضحى والفطر - ولا شعانينا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وأن لا نجاورهم بالخنازير، ولا نبيع الخمور"(١).

وهذا المرسوم الفاروقي يبين وجوب الحاجز القوي بين أمتين؛ ليتم تقييم ما بكل أمة وقوم من حق وباطل في صورته الصحيحة، ولا تتداخل مبادئ ومميزات كل الأمتين، كما جاء التنبيه على الفرق بينهما في الأمور التعبدية كالصلاة ورفع الصليب وصلاة النصارى والاستسقاء، وإظهار النيران للمجوس، وفي أمور المعاشرة كالزي والأسماء والكُنى والمراكب وشعر الرأس والكلام، كما أصدر أمير المؤمنين مرسوماً عاماً في كل البلاد: "ولا يلبسوا لبسة المسلمين؛ حتى يُعرفوا"(٢).

فكأن التمييز بين الأمة المسلمة وغيرها من الأمم من مقاصد الشريعة الإسلامية؛ حتى اختير هذا التأكيد الشديد على هذا، وذلك حرصًا على إبقاء كل قوم على خصائصهم ومعرفتهم باسمهم، فتتميز مميزات الحق والباطل لدى الأقوام، فكما أن المسلمين يجب عليهم الابتعاد عن التشبه بالكفار ظاهرًا وباطناً لئلا تلتبس مقومات الحياة الإسلامية بغيرها، يجب على الحكومة الإسلامية أن تجبر الكفار على عدم ارتداء الزي الإسلامي وهم كفار؛ حتى لا يطفئوا بظلمتهم نور الإسلام.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٦٦.

إن المرسوم الفاروقي يعطي مبدأ واضحًا في منع التشبه، ويؤكد أن الإسلام يهدف إلى إقامة شوكة الإسلام ومحو قوة الكفر من الأساس.

فالإسلام يعتقد أن العزة والمجد والشوكة مما يختص بالحق وأهله، ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ۝٨﴾ [سورة المنافقون: ٨].

والذلة والمسكنة هي نصيب الباطل، والباطل هو القاسم المشترك بين جميع ملل الكفر "والكفر ملة واحدة".

الإسلام يسعى أن يسود الحكمُ الإلهيُّ الأرض كلها، ويُطَبَّق "ما أنزل الله" ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ۝٤٤﴾ [سورة المائدة:٤٤].

ومَثَلُ من يتمسَّك بالشرائع المنسوخة أو يناصر الدساتير البشرية الأرضية على حساب الإسلام كمثل رجل ينشغل عن جسدٍ، هو قمة في الحسن والجمال بالتفكير في تحسين منظر هو غاية في القبح والبشاعة، أو مثله كمثل رجل يذر النور الكامل، ويتمنى إشراق النور من الظلمة الحالكة.

فالإسلام أعمل السيف، ورسم المبادئ السياسية لتحطيم هذه الأمنية المتزايدة في قلوب الكفار.

فإنه لو أراد الإسلام محو الكفر من الأساس لما شرع هذا المبدأ: مبدأ الحرية في الاعتقاد: ﴿**لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ**ۖ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]؛ و﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ۝٩٩﴾ [سورة يونس: ٩٩]؛ و﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ۝٦﴾. [سورة الشورى : ٦].

فالإسلام لا يريْد إلغاءَ الكفر بشكل إجباري؛ ولكن يرغب في كسر شوكته كما يرغب الصدق في محو الكذب أو يرغب النور في قشع الظلام.

وبذلك يحرم على المسلمين ممارسة كل عمل، منْ شأنه أن يرفع شـأن الكفـار ويعزهم، ويشجعهم، فتتطور العزائم الكفرية.

ومن أجل ذلك فقد خصَّ المرسومُ الفاروقيُّ كل معاني العز والمجد بالإسلام والمسلمين، وتَرَكَ كُلَّ مراتب الذل والضعف لاصقةً بالكفار.

وبما أن منع التشبه بالكفار يحقق أسمى أهـداف الإسـلام فقـام سـيدنا أمـير المؤمنين عمـر الفـاروق – رضي الله عنـه- بإقامـة الحـواجز العمليـة بـين المسـلمين والكفار، فمنع المسلمين عن الاختلاط بشعائر الكفار، كما منـع الكفـار عـن ممارسـة الشعائر الإسلامية الطاهرة، وهم كفار.

فإن التشبه من أي جهة كانت يكفي للالتباس وإذابة الفروق، والالتباس هو الداء العضال الذي يضمن زوال الأمم وفناء الأديان.

فمبدأ منع التشبه بالكفار يضمن بقاء الدين الحـق وبقـاء عـزه وإبائـه، وفيـه دلالة كافية على أهمية هذا المبدأ في نظر الإسلام.

ومما تجب الملاحظة هنـا أن الإهانـة شيء، والظلـم والإجحـاف شيء آخـر، فالتذليل والإهانة منشؤه الفرق بين المراتب؛ بينما يعتمد الظلم عـلى العصـبية المقيتـة، والإسلام يريد بإعزاز المسلمين وإذلال المشـركين أن تتضح معـالم الإسـلام والكفـر ومراتبها، ولا يعني هذا أن يعامِل الخلفاء المسلمون معهم معاملةَ الجور والظلم، كلا؛ فلا يجوز بحال أن يُحْـــــرَم أهلُ الذمة حقوقَهم الأساسية التي منحهم الإسلام إياها كرعية وشعب، فهم والمسلمون سواء في حقوق الدماء والأموال والأنفس، فلا يجوز ترويعهم والقضاء بالباطل في أمورهم الخـلافية، وأكلُ أمـواهم بـالبـاطل وقتلُهم إلا

بالحق، كما لا يجوز إكرامهم كإكرام المسلمين أو بشكل يوَطِّد عزتهم في قلوب المسلمين، فالعدل للجميع، والعزة لله وأهله.

المطلب الثاني: التشبه في عهد التابعين

إن السياسة الرشيدة للخلفاء الراشدين في القرن الأول فيما يتعلق بمبدأ منع التشبه بالكفار، والتزامَ الصحابة -رضي الله عنهم - هذا المبدأ واعتصامَهم بحبله أرسَتْ -من جانب- دعائمَ منع التشبه بالكفار، وجعلت الدنيا-من جانب آخر- تقرأ أنصع صفحات المجد والإباء والعزة، وتتمتع بخيرات ذلك القرن والإنجازات الباهرة، وجرى التابعون تلامذة الصحابة في القرن الثاني على دروبهم، وحذوا حذوهم.

فكان الخليفة عمر بن عبد العزيز[1] صورة حية صادقة لما عليه الصحابة من فكر وعمل وسياسة وتدبير، فإنه اختار في منهجه السياسي والعملي أسوة الصحابة أجمل الاختيار، وأتاح للدنيا مرة ثانية أن تنتفع بالثمار التي كانت ميزة الخلافة الراشدة، فلم يدَّخر وسعًا في التفريق بين الحق والباطل والتمييز بين الحسن والقبيح، وبين الخالص والمغشوش.

(١) هو: الخليفة العادل، أمير المؤمنين، عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، ويسمى: الخليفة الراشد الخامس؛ لصلاحه وعدله، ولد بالمدينة المنورة سنة ٦١هـ، وتولى إمارتها في عهد الوليد بن الملك، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وعهد إليه بالخلافة بعد وفاته سنة ٩٩هـ، فرفع المظالم وولى على الناس خيارهم وعم في عهده الأمن والرخاء والعدل رغم قصر عهده، توفي سنة ١٠١هـ؛ وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٩ ،ص١٩٢ – ١٩٦؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٥، ص٥٠.

وجعل مبدأ الشدة على الكفار والشفقة على المسلمين رائدَهُ في كل أعماله.

وحسبك القصةُ التاليةُ شاهدةً على منهجه المتميز، وتقشفه في الدين وصلابته في الإسلام والتزامه الشديد مبدأَ منع التشبه.

فقد سلك عمر الثاني في هذا الالتزام مسلك عمر الأول رضي الله عنهما:

" دخل ناس من بني تغلب على عمر بن عبد العزيز، وعليهم العمائم كهيئة العرب، فقالوا يا أمير المؤمنين! ألحقنا بالعرب، قال: فمن أنتم؟ قالوا نحن بنو تغلب، قال: أولستم من أوسط العرب؟ قالوا: نحن نصارى، قال: عليّ بجلم[1]، فأخذ من نواصيهم، وألقى العمائم، وشق رداء كل واحد شِبْرًا، يحتزم به، وقال: لا تركبوا السروج، واركبوا على الأكف، ودلوا رجليكم من شق واحد"[2].

هذه القصة دلت على اهتمام عمر بن عبد العزيز بشيئين:

الأول: قطع التشابة بين المسلمين والنصارى، فكان ذلك العهد عهد الخير، رفرفت فيه رأيات الإسلام، فكان المسلمون لا يجعلون في قلوبهم أي عظمة للنصارى، وعاطفة التشبه بهم، إلا أنه جرياً على سنة اتِّباع الأمم المغلوبة الأمةَ الغالبة في كل شيء حَرَصَ النصارى على ارتداء ملابس العرب وعمامتهم، وفتح الحزمة والزنار وإيفاء شعر الرأس.

فكان المسلمون أغلقوا باب التشبه؛ ولكن فتحه الكفار، وكانوا يريدون وراء هذا التشبه والتلبيس أن يدبروا للحصول على الحقوق الدينية والسياسية كالمسلمين،

(١) الجلم: هو ما يجز به الشعر ونحوه، وهو آلة كالمقص.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٣٦٧.

فقطع عمر بن عبد العزيز هذه المكيدة في مهدها؛ حيث أصدر حكمًا عامًّا، وسلبهم شعار العرب في نفس الجلسة.

والأمر الثاني: أنه بهذه العملية أقام عزَّ الإسلام وكَسَرَ شوكة الكفر وهيبته، كما هو واضح من الأمر بقص الشعر وإلقاء العمامة وركوب الأكف، وأصدر مثل هذه الأوامر والمرسومات في البلاد الإسلامية كلها.

يقول معمر[1]: كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى أحد ولاته:

" أن امنع من قِبَلك، فلا يلبس نصراني قباء، ولا ثوب خز، ولا عصب، وتقدم في ذلك أشد التقدم، واكتب فيه؛ حتى لا يخفى على أحد نهيٌ عنه، وقد ذكر لي أن كثيرا ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم، وتركوا لبس المناطق على أوساطهم، واتخذوا الوفر[2] والجمام، وتركوا التقصيص، ولعمري إن كان يصنع ذلك فيما قبلك، إن ذلك بك ضعف وعجز، فانظر كل شيء كنت نهيت عنه، وتقدمت فيه، إلا تعاهدته وأحكمته ولا ترخص فيه، ولا تعد عنه شيئا"[3].

(١) هو: معمر بن راشد بن أبي عمر الأزدي، إمام حافظ ثقة متقن للحديث، وفقيه، ولد بالبصرة عام (٩٥ هـ) ، وسكن اليمن، وأقام واشتهر بها، حتى توفي عام (١٥٣ هـ)؛ وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية** ج٩ ،ص ٢٦٦- ٢٦٧.

(٢) الوفر: جمع وفرة، وهي: الشعر المجتمع على الرأس، وما جاوز شحمة الأذن منه؛ وانظر: القاموس المحيط، فصل الواو، باب الراء، ج٢، ص١٦٠؛ والجمام: جمع جمة، وهي: مجتمع شعر الرأس؛ وانظر: المرجع السابق، فصل الجيم، باب الميم، ج٤، ص٩٢- ٩٣.

(٣) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، (بيروت: دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

وهذه الأحكام تشابه قصة بني تغلب في إحكام الميزة الإسلامية وترك التشبه بالغير، ورفض هذه الفكرة التي تذهب بكيان الوجود القومي، وبذلك يتجلى مدى اهتمام العلماء والخلفاء برفض التشبه في القرنين الأول والثاني، وهذا التأكيد هو العامل الأساس وراء انتصارات المسلمين وفتوحاتهم المتوالية وانهيارات الكفار وانحطاطهم في كل مجال.

المطلب الثالث: التشبه في قرون الاجتهاد

ويبتدئ عهد الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب المتبوعة منذ تبع التابعين، والتزم بمذاهبهم الفقهية خلقٌ كثيرٌ، وحفظوا دينهم من الاختلاف والتعارض والهوى النفساني، وقد لقيت قضية التشبه في هذه العهود نفس الاهتمام الذي لقيته في القرن الأول والثاني، فالمذاهب الأربعة كلها أكَّدت كلَّ التأكيد على رفض التشبه بالغير.

الحنابلة:

إن المذهب الحنبلي في قضية التشبه بالكفار يتبين بالنظر في "اقتضاء الصراط المستقيم"، يقول الشيخ الدمياطي[1] في حسن السير: إن الحافظ ابن حجر[2] نقل فتوى

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر: من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان (بفلسطين) ولد بالقاهرة، وتوفي فيها عام ٩٠٧ هـ، اشتهر في صباه بولعه بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، قال السخاويّ: "انتشرت مصنفاته في حياته، وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر" وكان فصيح اللسان، راوية للشعر،

للمذهب الحنبلي من "كتاب الانتصار" تقول: "من تزيا بزي كفار من لُبس غيارٍ أو شد زنار أوتعليق صليب بصدره حرم ولم يكفر"(١).

وجملة القول أن حرمة التشبه ثابتة إذا كان التشبه في الشعائر الدينية المخصوصة.

عارفا بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه. وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل. وهو أحد العلماء المؤلفين الكبار، التي شرقت كتبهم وغربت، وسارت مسير الركبان، وطارت في الآفاق، ومن مؤلفاته العظيمة: "الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" و "لسان الميزان" في التراجم، و "الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام" "فتح الباري في شرح صحيح البخاري" و "ديوان شعر" و "الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف "و "ذيل الدرر الكامنة" و "ألقاب الرواة "و "تقريب التهذيب" في أسماء رجال الحديث، و "الإصابة في تمييز أسماء الصحابة "و "تهذيب التهذيب" في رجال الحديث، و"تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة" و "طبقات المدلّسين"، و "المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس" "تحفة أهل الحديث عن شيوخ الحديث" و "نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر" في اصطلاح الحديث، و "المجالس"، و "القول المسدَّد في الذب عن مسند الإمام أحمد" و "ديوان خطب" و"تسديد القوس في مختصر الفردوس للديلمي" و "تبصير المنتبه في تحرير المشتبه" و "رفع الإصر عن قضاة مصر" و "إنباء الغمر بأنباء العمر" و "إتحاف المَهرة بأطراف العشرة " و " الإعلام في من ولي مصر في الإسلام " و "نزهة الألباب في الألقاب " والديباجة" في الحديث، و "التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير"و (بلوغ المرام من أدلة الأحكام" مع شرحه "سبل السلام في شرح بلوغ المرام" لمحمد بن إسماعيل الأمير، و "تغليق التعليق "في الحديث، ولتلميذه السخاوي كتاب قيم في ترجمته، وهو "الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر"في مجلد ضخم؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص١٧٩.

(١) بحثت عن الكتاب، فماتمكنت منه.

المالكية:

وقد شدد المالكية في هذا الأمر؛ حتى لم يحرّموا التشبه بالكفار وحسب؛ بل حرموا الحلف بالله بغير العربية والدعاء بلغات العجم، وذكر الله والتعبد في لغاتهم، حتى إنهم -كما نقله الحافظ ابن تيمية(1)- اعتبروا ذبح البطيخ في أيام عيدهم كذبح الخنزير في الحرمة.

وجاء في الكتاب المالكي الشهير: " مختصر الخليل ": " كُفِّر المسلم بصريح قوله: عزير ابن الله، أو لفظ يقتضيه كقوله: الله متحيز، أو فعل يتضمنه كشد زنار، ونحوه مما يختص بالكافر، كلبس برينطة نصراني"(2).

(1) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام ومفخرة أهل الإسلام، ولد في حران عام٦٦١ هـ الموافق عام١٢٦٣م، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطُلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها، فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلا بقلعة دمشق عام٧٢٨هـ، الموافق عام ١٣٢٨م، فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين. آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان. وفي الدرر الكامنة أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير، وأفتى ودرّس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص١٤٤.

(2) انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطر ابلسي المغربي ، المعروف بالحطاب الرُّعيني (المتوفى : ٩٥٤هـ)، **مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل**، تحقيق: زكريا عميرات(بيروت: دار عالم الكتب، د.ط، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م)، ج٨، ص٣٧١.

الشافعية:

يقول الشيخ ابن حجر نقلاً عن الدمياطي: وحيث لبس زي الكفار، سواء دخل دار الحرب أم لا؛ بنية الرضاء بدينهم أو لميل إليهم أو تهاوناً بالإسلام كفر.

الحنفية:

وقف الحنفية أيضًا في هذا موقف الحذر والشدة، فجاء في "الحاوي" والفتاوى الهندية: "يكفر بوضع قلنسوة المجوس على رأسه على الصحيح"[(١)].

ومحصول الكلام أن المذاهب الأربعة متفقة على تحريم التشبه بالكفار، وهنا قد ينشأ في بعض القلوب سؤال: كيف يكَفَّر من لبس قلنسوة النصارى والمجوس أو شد زناراً أو اختار وضعهم الظاهري مع أنه لا ينكر التوحيد والرسالة والمعتقدات الإسلامية الأخرى كالجنة والنار؛ فهو مؤمن بقلبه، ومتشبه بهم في الوضع الظاهري؟ نكتفي في الإجابة عن هذا السؤال بنقل كلام العلامة البيضاوي[(٢)] في تفسير سورة البقرة:

(١) لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي، **الفتاوى الهندية** (بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣١٠هـ)، ج٢، ص٢٧٦.

(٢) هوعبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو الخير، ناصر الدين البيضاوي: قاض، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز، وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها.
من تصانيفه " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " المعروف بتفسير البيضاوي، و "طوالع الأنوار " في التوحيد، و" منهاج الوصول إلى علم الأصول" و "لب اللباب في علم الإعراب " و"نظام التواريخ"،كتبه باللغة الفارسية، ورسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها" و"الغاية القصوى في دراية الفتوى" في فقه الشافعية؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١١٠.

" وإنما عُدَّ لبس الغيار وشد الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدل على التكذيب، فإن من صدق الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يجترئ عليها ظاهرا لا لأنها كفر في أنفسها"[1].

فتجلى أن هذه الأشياء ليست كفرًا بذاتها (حتى إن مارسها أحد استهزاءً بالكفار فلا بأس) إلا أنها تُعدُّ من عمليات الكفر؛ لأن ممارستها على رؤوس الأشهاد والجرأة على المجاهرة بها تدل على رغبة القلب عن الأوضاع الإسلامية؛ وحلول الأوضاع الكافرة محل الوضع الإسلامي، ولما اختار برغبته القلبية الوضعَ غير الإسلامي، فلم يعُدْ له حاجز عن وصول الكفر إلى قلبه، ومن هنا صرَّح بعض الفقهاء الأحناف بأن هذه العمليات مكفِّرة؛ بينما ذهب الآخرون إلى أنها أمارات الكفر.

وإن سلمنا أنها أمارات الكفر فما هي إلا قشور تتضمن لُب الكفر.

الصوفية:

إن الصوفية[2] جماعة ربانية ومن خواص رب العالمين، فهم بذلك لا يتمتعون بالتيسيرات الشرعية، وهم في حياتهم العادية فوق الخاصة والعامة؛ فإن دستورهم هو اتباع الحياة النبوية، وقدوتهم هو سيدنا أبوذر الغفاري رضي الله عنه.

فكل تشدد تبنَّوه في موضوع التشبه هو معقول، وقليل بالنسبة إلى نزعاتهم المتصلبة، وربما يرفضون كل وضع وهيئة لا تتطابق مع الوضع النبوي، وإن لم تكن

(١) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ)، ج١، ص٤١.

(٢) يريد الشيخ بالصوفية: الصوفية الربانيين المنضبطين لا الخرافيين المشعوذين والحلوليين.

من المحرمات الشرعية، ولعل كثيراً من الأمور التي تجيزها الفتاوى يحرِّمها تقواهم؛ حتى صرحوا بأن على المسلمين أن يلتزموا زيَّ العرب ووضعهم، فهو وضع النبوة، وما عداه من أوضاع وأطوار فهي أوضاع أعجمية، يجب تركها، يقول رأس الصوفية أبو محمد الشيخ عبد القادر الجيلاني[1]:

"ويكره كلما خالف زي العرب وشابه زي العجم"[2].

خلاصة الكلام: والحاصل أن القرآن هو أول من دعا إلى ترك التشبه بالكفار وفصَّلته الأحاديث النبوية، واختاره الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعلموه الناس، ثم أيَّده والتزمه علماء الظاهر (الفقهاء والمجتهدون) وعلماء الباطن (الصوفية)[3] ثم هذا الموضوع ليس بنقلي محض؛ بل رضي به العقل السليم ورغب فيه، أَوَ ليس للمسلمين في هذا العصر نصيبٌ وحظٌّ في شيء، تأكد ثبوته بالكتاب والسنة والآثار والفقه والعرف والعرفان؛ بل بالمعقول والمنقول، ونفَّذه الخلفاء الراشدون في البلاد الإسلامية بكل عناية واهتمام، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية قديماً

---

(١) هو: الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيلي ثم البغدادي، عالم فقيه صالح زاهد، ولد سنة (٤٩٠ هـ) ، وتوفي سنة (٥٦١ هـ) ، وكان من الفقهاء الوعاظ وله كرامات، إلا أن المتصوفة زادوا فيها وبالغوا، ونسبوا إليه بعض الحكايات الباطلة والتي لا يقرها الشرع وتنافي الاعتقاد السليم، وتخل بالتوحيد، وكل ذلك كذب عليه ومحض افتراء؛ وانظر: ابن رجب الحنبلي، **الذيل على طبقات الحنابلة**، ج١ ، ص٢٩٠- ٣٠١.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٤٠٠.

(٣) علماء الظاهر وعلماء الباطن تعبير سار في اللغة الأردية ، يطلق الأول على الفقهاء، والثاني على الصوفية، وليس المراد بعلماء الباطن الباطنية ، المنكرة لما تقوله النصوص في ظاهرها.

وحديثاً؟ أوَ لا ينبغي لهم أن يكون لهم شيء من نصيب عملي في هذا الحكم الصادق الطاهر؟ لا أقول: بلى؛ ولكن على المسلمين أن يجيبوا بأعمالهم، ويُحكموا هذا الأمر أمام غير المسلمين بدل الاعتراف اللساني؛ فإن الالتزام بهذا هو الالتزام بالإسلام، ولا يتأتى هذا إلا بمحو كل ما يتم به التوافق والتشابه مع الكفار؛ فإن مخالفة الكفار هي إحدى الثوابت الإسلامية المتميزة، وأدعو طلبة العلوم الإسلامية إلى أنهم لا يعتبروا هذا السطور صرخةً في واد؛ فهي حكمتهم الضالة، وباستقامتهم يستقيم العالم، وبزلتهم يزل العالم كله، فهم عمود العالم، فإذا تحركوا اهتز قصر العالم وانهار.

"إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا   فشيمة أهل البيت كلهم الرقص"[1]

فإن تقصيرهم الطفيف يكون مدعاة للعامة إلى الفسوق والفجور، كما قال الشاعر الفارسي: "إن كان الملك يبيح لنفسه نصف البيضة، فالجيش يستبيح ألف دجاجة".



(١) من أبيات الشاعر سبط ابن التعاويذي، (٥١٩هـ-٥٨٣هـ).

الفصل الخامس:

هل مخالفة الكفار هي عماد الإسلام وأساسه؟

وهنا ينشأ سؤال: هل عماد الإسلام هو مخالفة الكفار وحدها، ولا يحمل الإسلام أي رصيدٍ من الحقيقة والواقع غيرَه؟ أو يكفيه دينًا أن يخالف المسلمون كل ما صنعه الكفار؟.

فمثلاً: إذا كان المشركون في الجاهلية يمارسون الحج حسب آرائهم، فهل الحج الإسلامي أن يخالف المسلمون الكفار في حجهم بنوع من التغيير والتعديل، ويقوم بذلك الإسلام؟ إن كان الإسلام هو هذا فهو أمر لاغٍ، فإنه يعني أن الأديان كلها غير الإسلام مستقلة بذواتها ووجودها، والإسلام يقوم على فتات مائدة الأديان وتفريق ما التأم، وتجميع ما تشتت فيها، وليس هذا بوجود حقيقي متكامل.

والواقع أن هذا السؤال سفسطة لا صلة له بالواقع؛ بل الواقع أن الإسلام لم يقم قصره على أنقاض الكفر؛ وإنما الكفر قام على خلاف الإسلام؛ فالإسلام لم يخالف ملةً أو دينًا؛ بل اجتمعت الأمم والملل على خلاف الإسلام، ﴿**كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴿٢٦﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٦].

في العالم الأزلي كان آدم وإبليس على ملة واحدة: فمن بدأ المخالفة ورفع رأية الجحود قائلاً: أنا خير منه؟ هو إبليس وحده لا آدم، فآدم أثبت بدعائه ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ** ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف: ٢٣].

عبوديته لله وخضوعه لأوامره، وعلاقته بالإسلام الحق، فإبليس أقام دينًا ضد الطاعة والاستسلام، قِوَامُه عبادة النفس والكبر وجحود الحق والاعتزاز بـ "أنا خير منه".

فيمكن القول بأن ملل الكفر قائمة ضد الإسلام منذ الأزل، دون العكس، ثم بقي آدم –بعد هبوطه إلى الأرض– على الإسلام الأصيل والعبودية الخالصة، التي بها هبط من السماء، بينما ثبت إبليس على ذلك الوضع الكفري الذي تمسك بذيلها في السماء.

ففي بداية العالم الأرضي هو الآخر كانت الحقيقة مع الإسلام، والشذوذ والانحراف نصيب الكفر، ثم لم يتمَّ انتشار الكفر في أولاد آدم إلا على ضد الإسلام، فظهر الكفر أولا في البطن السابع من آدم وحواء، حيث قام قابيل بن آدم بما يخالف دين آدم: دين الإسلام، وبُعِث سيدنا نوح– عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام– لاستيصال هذا الكفر، وجلب أنظار القوم إلى نفسه ودينه.

فلو لا انحراف القوم عن الإسلام وإقامتهم دينًا غير الإسلام لما كانت أية حاجة إلى الدعوة إلى الإسلام.

فثبت أن الإسلام هو الذي كان دينًا حقيقيًا لدى بعثة أول رسول إلى الدنيا؛ وما كان الكفر إلا أمور مستحدثة ضد الإسلام.

ثم كلما قام أئمة الكفر بتسويغ الباطل وتزيين الكفر والممارسات الكفرية، قاومهم الإسلام أشد المقاومة، وكلما بلغ ظلام الكفر والتمرد والطغيان ضد الإسلام منتهاه، أُرسل إلى الدنيا نور النبوة الساطع، ليبدد ظلام الكفر ويقشع سحاب الباطل.

وأعلن كل نبي أنه مسلم، جاء بالإسلام الذي انحرف عنه قومه.

فأعلن إبراهيم أمام قومه أنه مسلم، ثابت على الإسلام القديم الأصيل:

إسلام آدم ونوح، يقول القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣١].

وجاء في دعوات إبراهيم وإسماعيل بعد بناء الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٨].

وبالثبات على الإسلام وصَّى إبراهيم ويعقوب أبناءهما: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٢].

وأقر بها ذرية يعقوب شاهدين على أنفسهم بالإسلام: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة البقرة: ١٣٣]

ودعا يوسف ربه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف: ١٠١]؛ ونادى موسى قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة يونس: ٨٤].

ونسب القرآن هذا الإسلام إلى أنبياء بني إسرائيل كزكريا ويحيى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [سورة المائدة: ٤٤].

وكان في رسالة سليمان إلى بلقيس: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النمل: ٣١].

وقالت بلقيس لما أسلمت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل: ٤٤].

وأشهد الحواريون اللهَ سبحانه بأنهم مسلمون: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة المائدة:١١١].

وختاماً أعلن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم- ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [سورة البقرة: ١٢٠-١٢١].

وأطلق رب العالمين إعلانا عاماً: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾[سورة آل عمران: ١٩]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

وشرح الحديث النبوي الشريف هذا المبدأ الهام: مبدأ وحدة دين الأنبياء أجمعين، حيث قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"(١).

وبذلك اعتبر القرآن تكذيب نبي واحد تكذيب الجميع في آيات عديدة، فدينهم واحد، وصراطهم واحد، وصدَّق كلُّ نبي مَن قبله ومن بعده من الأنبياء والمرسلين، ودعوا أقوامهم إلى هذا التصديق.

فثبت أن دين الإسلام واحد من لدن آدم إلى سيدنا محمد خاتم المرسلين- عليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام-، وحدث تغيير طفيف في المنهج والشرائع حسب الظروف والأمم؛ ولكن أصل الدين ما زال واحدًا، فالإسلام بحر زاخر تتفجر منه أنهار مختلفة لتَبْعَثَ الحياةَ، وتُرْوِي الإنسانية، وهو جسم وسيم يرتدي الملابس الفاخرة العديدة.

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٣٤٤٣.

كما قال الشعر الفارسي: "هو بحر زاخر متلاطم، يتمثل في أشكال مختلفة من المطر والصدف والدر وماإليها، فمصدر كل هذه الأمور واحد، يتقمَّص الملابس العديدة".

وبذلك لا تنافيَ بين الإسلام والأديان السماوية الحقة الأخرى، فكل مذهب حق مثَّل الإسلامَ الحق في عصره.

وأدى هذا المعنى شاعر عربي فأجاد:

وما البحر إلا الموج لا شيء غيره وإن فرقته كثرة المتعدد

فالإسلام أول دين ظهر في العالم، وكل ديانة غيره نشأت لتخالفه وتكافحه، فالإسلام من سيدنا آدم إلى سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم- لا يقوم على أساس غير الإسلام؛ بل وعلى العكس من ذلك فإن مخالفة الإسلام هو العنصر الأصيل في كل دين، فدعوة الإسلام أتباعَه إلى قطع التشبه بدين غيره، والتمسك التام بحبله تعني منعَه عن مخالفة الإسلام، فالإسلام له كيان مستقل، وغيره من الأديان مجموعة فتات منتشرة في حديقة مجدبة، وكل حبة ذات لب توجد في غير الإسلام فهي مستعارة من حديقة الإسلام، وإن لم يعترف به اللصوص.

فكم هو عجيبٌ أمرُ أولئك الذين زهدوا في اتباع الإسلام الأصيل المستقل، ورغبوا في ديانةٍ فاقدة الأصول وفاسدة الفروع، ورضوا بالتشبه بالشياطين على حساب التشبه بالأنبياء.

وفي أمثالهم قال النبي – صلى الله عليه وسلم-: "إن الله أظهر لشكايته من أمتي، وقال: إني طردت الشيطان لأجلهم، وهم يعصونني ويطيعون الشياطين"[1].



(١) ما عثرت على مصدره.

الفصل السادس:
المراتب الفقهية للتشبه

وإذا ثبت أن الحظر على التشبه بـالغير يهـدف إلى حفـظ الأمـة المسـلمة مـن الالتباس، وقطع الصلة بين المسلم وغيره بات من الضروري إثبات أن هـذا المبـدأ ليس مما يوقع الخلق في حرج وضيق، ويقضي على العاطفـة الطبيعيـة؛ فهـو يُسِـيْغ إلى جانب التفريق والامتيازِ المشاركةَ في بعض الأعمال؛ بل يتحمل التشـابه في كثـير مـن الشؤون الفطرية، فأعْرِض فيما يلي المراتـبَ الفقهيـة للتشـبه، التـي توضـح تفاصـيل التشبه بذكر مواضع جوازه وعدمه، وحرمته وكراهيته واستحسانه وعدم استحسانه، وإمكانه وعدم إمكانه، فأقول:

إن الممارسـات الإنسـانية تنقسـم إلى قسـمين: الممارسـات الاضـطرارية والممارسات الاختيارية.

الممارسات الاضطرارية:

هي ما لا خيار للإنسـان في إيجـاده وإلغائـه، كالأوضـاع الخَلْقِيَّـة للإنسـان، والمقتضيات الطبيعية، نحو أعضاء الجسد، وأسارير الوجه وتقاطيع البـدن وغيرهـا، والعوارض الذاتية له كالجوع والظمأ، واندفاعه نحو الأكل والشرب، أو عاطفـة التستر بالملابس، وكونه مدنيَّ الطبع، اجتماعيَّ المزاج ، ولجوءه إلى خالقه، ومـا إليهـا، فهي أمور لا خيار فيها للإنسان، فهي تطرأ عليه مهما رفضها وكرهها، وتسـيطر عـلى أعماله وأفكاره، ويحمل الإنسان هذه العواطف منذ زمن لا يعـرف حقيقـة الاختيـار والاضطرار.

أحكام الأمور الاضطرارية:

من البديهي أن الشريعة لا تسمح بالتدخل في الأمور الاضطرارية، فإن حدث تشبه بين المسلم والكافر في هذه الأمور فلا بأس به، فإن كان الكافر يأكل فليس على المسلم أن يموت جوعا، أو يجدع أنفه، ويقطع أذنه إذا كان الكافر يُبقيها، أو يصير حيوانا لا يعقل إذا كان الكافر يعقل، فإن الإنسان لا يقدر على إلغاء القواسم المشتركة الفطرية بين المسلم والكافر، ثم لا ضرر في إبقائها، ولا خشية لضياع الحدود وتخريب الحقائق منها؛ فليس بوسع الإنسان أن يكون حمارًا، أو لا يصير حسَّاسا ناميا؛ بل يرتد حجراً وآجراً.

وإذا ثبتت هذه الحدود الفطرية بهذا القدر من الثبات والامتياز فلا يُلْغِيْهَا أي حركة إنسانية، ولا يلبسها بغيرها، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعۡلُومٍ ۝٢١﴾ [سورة الحجر: ١٦]. ويكون الأمر بترك التشبه لإلغاء اللبس والاشتباه أمراً لاغياً، وشيئًا يتنافي مع الحكمة.

فالشريعة تُهَذِّبُ الأفعال الإنسانية بأوامرها ونواهيها؛ ولكن لا يخاطب الإنسان بتعديل الأمور التي دبَّرها الله بحكمته البالغة.

فهي لا تأمر بترك الأكل خوفاً من التشبه بالكافر، فالأكل ليس عملية مكتسبة؛ وإنما هي تأمر باختيار الأسلوب الصحيح للأكل والشرب، الذي يندفع به التشبه بالغير؛ فطريق الأكل والشرب من أعمال القصد والإرادة.

الشريعة لا تكلف المسلمين بترك اللباس خوفا من التشبه بالكفار، فهم يلبسونه؛ فإن التلبس وستر العورة شعار فطري للإنسان، نعم! الشريعة تدعو إلى أن تكون ملابس المسلمين متميزة بوضعها وتقاطيعها عن ملابس الكفار، فهذا مما يقدر عليه الإنسان المسلم.

الشريعة لا تنادي بقطع الأعضاء الجسدية تفادياً من التشبه بالكفار؛ فهذا ليس من صنع البشر، أجل؛ توجه الدعوةَ لمخالفة الكفار في الوضع التجملي والعادة التزيينية للأعضاء، فمخالفتهم في ذلك عملية هينة ممكنة.

والشريعة لن تأمر بترك العبادة بحجة أن الكفار يعبدون، فالعبادة عاطفة فطرية مركوزة في طبيعة الإنسان؛ ولكنها توصي المسلمين بتمييز عباداتهم المتكاملة المعالم عن عبادات الكفار الناقصة، فمن الإمكان هذا التمييز.

وكما أن الشريعة لا تأتي بما يفيد الابتعاد من التحضر والتمدن، نظراً لحضارة الأقوام والملل الكافرة، فالتحضر والمدنية ورفض الوحشية من الأمور المودعة في فطرة الإنسان، ولا يمكن الانتزاع منها؛ نعم؛ تؤكد على التمسك بالحضارة الإسلامية ومبادئها وتمييزها عن الحضارات الأرضية المشبوهة الأخرى.

وكفى بهذا شاهدًا على جهالة من قال (وهم أناس خُلقوا ليتعمدوا إثارة الفتنة والقلاقل)[1] : "إن كان التشبه بالغير حراماً فاقطع أذنك؛ فلهم أذان، ودعَ النومَ والراحة فهم ينامون ويستريحون"، يوهمون بذلك أن ترك التشبه عملية مستحيلة، والتشبه أمر فطري بُحْتٌ؛ فإن من البديهي أن الشريعة تريد التفريق بين المسلم والكافر في الأمور التشريعة الاختيارية لا في الأمور الخلقية الكونية، وتريد حفظَ الأعمال الإنسانية من الالتباس والذوبان دون الأفعال الربانية.

ويمكن أن نقول لهؤلاء الحمقي المتنورين على سبيل الالزام: إن القول بجواز التشبه بالكفار في الأمور الاختيارية قياساً على التشبه في الأمور الاضطرارية يشبه

(١) وسيأتي أسماء هؤلاء، وفكرتهم في باب التشبه.

الاستدلال بجواز جماع الزوجة على جواز الزنا المحرمة، فإنهما متشابهان في الصورة والكيفية، فإن كان هذا الرجل المتنور أفتى بجواز الزنا مستدلاًّ بجواز وطء الزوجة أو بحرمة وطء الزوجة مستدلاًّ بحرمة الزنا بجامع الاتحاد الصوري نفكر في هذه الفتوى أيضاً.

الأمور الفطرية:

فالحاصل أن التشبه يتعلق بالأمور الاختيارية، لا بالأفعال الاضطرارية والأمور التكوينية؛ ثم الأفعال الاختيارية نوعان: الطبيعية، والقسرية.

والمراد بالأفعال الطبيعية ما يصدر عن الإنسان بالخيار بدافع ذاتي منه لا بدافع خارجي من التعليم والتلقين، كالأكل والشرب وما إليها فهي أمور اختيارية؛ إلا أن منشأها (الجوع والظمأ) أمر اضطراري، فهي – مع كونها اختيارية- اضطرارية من هذه الحيثية، فنحن غير مكلفين بترك التشبه في هذه الأمور أيضاً.

الأمور التعبدية:

والأمور القسرية ما يصدر عن عاطفة قلبية؛ إلا أنها ناشئة عن آثار وتوجيهات خارجية، ثم هي الأخرى تنقسم إلى قسمين: التعبدي، والتعودي.

والمعنى أن هذه الآثار والتوجيهات إما أن تتصل بالدين أو بالعرف والعادة، والتشبه بالغير في الأولى حرام، كتعليق الصليب كالنصارى، وشد الزنار وصبغة الجبهةكالهندوس، ولبس سوار الذهب كالسيخ، فإن هذه الحرمة تميز الإسلام عن غيره من الأديان، وتقيه شؤم الالتباس والاشتباه.

الأمور القبيحة:

وإن كانت من الأمور التي لها صلة بالعرف والعادة فهي إما أن تكون قبيحة بذاتها أو مباحة بذاتها، إن كانت قبيحة فالتشبه حرام كالإزار تحت الكعبين، أو ثوب مكفف بالحرير، أو عملية تُظهر عظمة ما يعبدون من دون الله وأمثالها، فقد وردت في تحريمها نصوص كثيرة – مع ما فيها من تشبه بالغير- كإسبال الإزار، وتكفيف الحرير وتعظيم الأصنام وغيرها مما هو محرم بنصوص صريحة.

شعار الأقوام:

وإن كانت مباحة فهي إما أن تكون شعار الأقوام أولا، إن كانت شعاراً فهي قريبة من الحرام، وهو ما عبر عنه الفقهاء بالكراهة التحريمية، كملابس الأقوام المخصوصة التي تُنْسَبُ إليهم وتُعْرَفُ بهم، كقلنسوة النصارى، أو الشعار الكلامي لقوم وغيرها.

الأشياء البديلة:

وإن كانت غير شعائرهم فهي إما أن تكون مما له بديل في الشريعة الإسلامية أولا، وإن كان لها بديل في الإسلام، فالتشبه مكروه في هذه الأمور، فإن الغيرة الإسلامية ترفض أن نتَّبِع الأقوام الآخرين في أمور لها بديل عندنا، فإن اتباعهم في هذا دليل على قلة الإيمان وفقدان الغيرة.

عن علي قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوكأ على قوس له عربية، إذ رأى رجلا معه قوس فارسية، فقال: " ألقها، فإنها ملعونة؛ ولكن عليكم بالقسي

العربية، وبرماح القنا، فبها يؤيد الله الدين، وبها يمكن لكم في الأرض"[1].

وذلك لأن القوس الفارسية لها بديل في الإسلام؛ فمنعه النبي – صلى الله عليه وسلم– عن هذا تمييزًا عن شعائر الأقوام وقطعًا لخيط أدنى التشبه، فإن المسلم إذا رفض عادته وشعائره، واتبع الغير في مثل هذه الأمور يظل مصداقًا لقول الشاعر الفارسي: "ما بالك تحمل على رأسك غرارة مليئة بالخبز، ثم تبحث عن كسرة خبز هنا وهناك، والعجب أن أمامك نهرا فائضا، ثم تهيم عطشان وجوعان في كل سكة وواد".

الأمور غير البديلة:

وإن كانت أشياء الأقوام الآخرين مما ليس له بديل عند المسلمين، كالمخترعات الجديدة الأوروبية والأسلحة الجديدة، والتسهيلات الحضارية فاستعمالها إما أن يكون بقصد التشبه أولا، فالصورة الأولى لاتجوز، فإن قصْدَ التشبه بالكفار في النية لايتم بدون الركون القلبي إليهم،وهذا الركون ليس بشيءفي الإسلام؛ بل هو شيء مخرج عن الإسلام، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾. [سورة هود: ١١٣].

ثم إن التقليد الأعمى للكفار لن يبلغ بالمسلمين علياء المجد والشرف، كما إن اتباع الظلام لا يزيد في النور، واتباع المريض لا ينفع الصحيح، وتقليد الشيء

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٤٠٥.

لأضدادهم لا يزيده قوة ونفعاً، نعم! إذا لم يعمد التشبه بالكفار في هذه الأمور فلا بأس بها ما دعت إليها الحاجة.

الحيطة وسد الذريعة:

ولا يخفى أن هذه الدرجات المتفاوتة للتشبه بالكفار ثابتة من حيث العلم والاعتقاد، وإلا فالأوفق لشأن المسلم والأنسب لتقواه أن يترك التشبه بجميع أنواعه؛ فإن الحضارة -أية كانت- متعددة الحلقات، متواصلة السلاسل، وكل سلسلة تجذب إلى السلسلة الأخرى، فاختيار شيء من الحضارة يمهد الطريق لأخذ الآخر، وبالتالي إلى اتباع الحضارة كلها، فلا بد أن تكون جميع مراتب التشبه متساويةً في الجانب العملي، ومرفوضةً بشكلٍ كاملٍ، فإن من أهم المبادئ الإسلامية أنها تنهى المكلف عن ممارسة المشتبهات بين الحلال والحرام، فالمشتبهات لها صلة بكل من الحلال والحرام، ومن شأنها أن تُوَرِّطَ في الحرام مكان الحلال.

ونصَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في حديث لدى البخاري بـ "ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه"[1].

فَأَمَر بالاقتناع بالحلال؛ حتى إن كثيرًا من أرباب الورع والتقوى والتدين والعفاف يتركون من الأمور ما ليس له نهي صريح ولا تحذير شرعي؛ لأنهم يرون هذه الأمور – بفراستهم- جزءً بعيداً من صور النهي الشرعي، أو شيئا مؤدِّيا إلى

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٥٢.

الحرام، كما جاء في الحديث: "ما أسكر كثيره فقليله حرام"(١)، فحرّم القليلَ مع سلامته من السكر.

وكما جاء في الحديث: " من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه فيما يقول، فقد كفر بِما أنزِل على محمد صلى الله عليه وسلم"(٢).

مع أن الكفر الحقيقي هو اتباع توجيهات الكاهن والعراف والعمل بها، وليس الكفر هو المرور به أو حضوره؛ ولكن هذا الحضور والمرور وسيلة قوية لاتباع العراف والكهان، فجاء نهي صريح عن الإتيان ذاته.

تقول السيدة عائشة الصديقة: "إياكم ومحقرات الذنوب"(٣).

فإن الصغائر قد تكون بريداً إلى الكبائر. ومن ثم نهى القرآن الكريم عن قرب الزنا بقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [سورة الإسراء: ٣٢].

والمعنى: اجتنبوا دواعي الزنا من الخلوة واللمس والتقبيل وشم الرائحة، فهي مقدمات تنتهي بالزنا، وتضيع حدود الله.

وجاء النهي عن مجاوزة حدود الله قائلاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾. [سورة البقرة: ١٨٧].

---

(١) أخرجه أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م)، رقم ١٨٦٥.

(٢) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م)، رقم ١٥.

(٣) قد صح كونه مرفوعا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم، وهو حديث صحيح، تقدم تخريجه.

فالقرب إلى الحدود ليس جريمة في ذاته؛ ولكن مُنِع من القرب باعتباره طريقاً إلى المجاوزة. ولذلك إذا نهى رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– عن السؤال، كره سيدنا أبوبكر الصديق[1] – رضي الله عنه– أن يطلُب إلى أحد سوطه الذي سقط منه وهو راكب فرسه؛ بل كان إذا حدث ذلك نزل وأخذ بيده، مع أن هذا السؤال لم يكن ممنوعاً في نفسه، إلا أنه رآه مندرجًا تحت محامل النهي الصريح، فاجتنبه احتياطاً:

ومن هنا إذا نزل قول الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [سورة الحجرات: ٢]، تخوَّف بعض الصحابة ممن لهم صوت عالٍ، كسيدنا عمر الفاروق وغيره، وأخفتوا في الكلام؛ حتى لا يُسمع لهم صوت، مع أن

(١) أبو بكر الصديق:(٥١ ق هـ – ١٣ هـ = ٥٧٣ – ٦٣٤ م)، هو الصحابي الجليل عبد الله بن أبي قُحَافَة عثمان بن عامر ابن كعب التيمي القرشي، أبو بكر: أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله صلّى الله عليه وسلم من الرجال، وأحد أعاظم العرب. ولد بمكة بعد عام الفيل بسنتين ونصف، ونشأ سيدا من سادات قريش، وغنيا من كبار موسريهم، وعالما بأنساب القبائل وأخبارها وسياستها، وكانت العرب تلقبه بعالم قريش. وحرم على نفسه الخمر في الجاهلية ، فلم يشربها. ولازم الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم قبل البعثة و بعدها، وصحبه في الهجرة و حضر المشاهد كلها، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأفضل الصحابة، فله في عصر النبوة مواقف كبيرة، فشهد الحروب، واحتمل الشدائد، وبذل الأموال. وبويع بالخلافة يوم وفاة النبي صلّى الله عليه وسلم سنة ١١ هـ فحارب المرتدين والمتنعين من دفع الزكاة.

وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق. واتفق له قواد أمناء كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، والعلاء بن الحضرميّ، ويزيد ابن أبي سفيان، والمثنى بن حارثة. وكان موصوفا بالحلم والرأفة بالعامة، خطيبا لسنا، وشجاعا بطلا. مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف شهر، وتوفي في المدينة، في جمادى الأولى سنة ١٣ هـ، وعمره ٦٣ سنة؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١٠٢–١٠٤.

الصحابة –رضي الله عنهم– لم يؤمروا بهذا القدر من الإخفات؛ ولكن الحيطة الناشئة عن التقوى تجعل المؤمن يتورع حتى عن بعض المباحات التي قد تكون سببًا إلى المحرمات.

وكما ورد تحذير صريح في كثير من الأمور المباحة في ذاتها بصفتها وسيلة إلى المحرمات، كالرعي حول الحمي، والسكر، وإتيان العراف، والقرب من الزنا، واجتناب الصغائر واقتراب الحدود ورفع الأصوات والفروع الكثيرة المشتبهة أو المباحة المندرجة في السؤال المباح: كل هذه المسائل إنما نُهي عنها لكونها تبلغ بصاحبها إلى المحرمات الصريحة، فكذلك تماما هناك كثير من النصوص الصريحة والقواعد الشرعية تدل في باب التشبه على ضرورة اجتناب المباحات ذات الصلة بالتشبه،كاجتناب المحرمات الصريحة، والتي من شأنها الإيصال إلى المحرمات، ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

وفي السطور السابقة تحدثت عن تأثير التشبه بالغير في إلغاء الكيان المستقل والخصائص المميزة لكل أمة وقوم، بالتزامن مع ذكر المراتب الفقهية للتشبه، التي ألـمَمْتُ بإيضاحها– رغم بضاعتي المزجاة – في ضوء العقل والنقل والطبيعيات والحسيات، وأرجو أن الموضوع قد تجلَّى بقدر الحاجة من منظور عقلي وشرعي، وثبت أن اهتمام الشريعة بترك التشبه بالغير ليس بناشئ عن التعصب المقيت والاستكبار البغيض؛ وإنما هو قائم على أساس الحمية والاستقلالية، وأنه لا تقوم لأمة وقوم قائمة مالم تتمتع بخصائص ثابتة لا تقبل التغيير، وإذا كان الإسلام يملك من الشرائع والخصائص ما هو أكثر استقلالية، وأدرأ لكل تغيير وتبديل، فهو أكثر الأديان استحقاقاً؛ بل هو وحده يستحق إقامةَ وحدةٍ موسعة متميزة بصبغتها الفريدة

على حساب جميع القوميات والتمايزات، وتمييزَ الأمة الإسلامية عن غيرها من القوميات والجنسيات من خلال مبدأ التشبه بالغير.

فلولا أن الإسلام رسم مبدأ التشبه بالغير (الذي من شأنه إذابة الخصائص القومية، وفتح أبواب الكفر والإلحاد والزندقة على مصراعيها) ووضع له حدودًا معلومةً لكان التشبه ذهب بنور خصائصه، ومسح رُواء وجهه.

ولكن الإسلام كما ظل سليماً من كل شين وعيب بقي سليما عن تهمة النقص في باب التشبه، فأتى بتوجيهات شافية مقنعة في باب التشبه، وسوف أُثبت في الأبواب الآتية أن الإسلام وضع مبدأ التشبه بالغير جامعاً يشمل كل جوانب الحياة (كالعبادات والعادات، وحدود الكفر، والمعاملات، والسياسيات، وشؤون المدنية، وطرق الثقافة، وسبل الأخلاق، وآداب المعاشرة، وآداب الطعام، والشرب، والنوم، واليقظة، وفي جميع الأحوال الطارئة على الإنسان في خلوته وجلوته وانفراده واجتماعه وأنفسه وآفاقه وروحه ومادته وما إليها).

فكأن الإسلام في نظامه المتكامل هو درس معبر لمبدأ التشبه بالغير؛ إلا أن هذا الدرس لا ينتفع به إلا السعداء الذين اختارهم الله منذ الأزل لصعود كل منازل الرقي والتقدم.

وبعد إثبات هذا المبدأ وتأصيله سأعرض في الفصول الآتية ما يتفرع على هذا المبدأ من فروع وأحكام، وبذلك يتبين البرنامج العملي للمسألة:



الباب الثاني:

مبدأ التشبه بالكفار: تفريع وتطبيق
وفيه ثلاثة فصو ل:

الفصل الأول: التشبه وعلامة الذ ات

الفصل الثاني: زوائد البدن و إتمام كلمات الله

الفصل الثالث: الحوائج اللازمة

الفصل الأول:

التشبه وعلامة الذات

إن علامة الذات والتشخص الذاتي أكبر ما يميز الإنسان عن غيره، كالوجه وأساريره، وتقاطيع البدن وبشرته، والأظافير وهيئتها، وبصمات الأصابع وخطوط الجسد، وقد وضع الإسلام أصولاً ومبادئ لتجميل الأعضاء الإنسانية وتنظيفها، تُعني ببقاء الخصائل الفطرية بكل سذاجة ونقاء، وتهب للجسد والأعضاء نوعاً من الزينة والجمال، وتميز المسلم عن غيره في هيئاته الظاهرة.

خصال الفطرة:

وللشرع الإسلامي في خصال الفطرة منهج متكامل الملامح، يُدعي "خصال الفطرة"، يرمي إلى تهذيب الجسد وتنظيف أعضائه، لايتحكم فيه الهوى ولا النزعات الإنسانية، فلا يتغير ولا يتبدل بآراء الإنسان واتجاهاته.

وهذا المنهج يتصل بالجسد وأعضائه معًا، أما الجسد فيظهر تأثيره فيه بإبقاءه على ما فطره الله عليه، وأما الأعضاء فتتقبل هذا المنهج بإزالة ما نبت عليها.

وتفصيل هذا المجمل أن الجسد الإنساني إذا أخذ نصيبه من النمو والترعرع توقف بعض أجزائه عن الزيادة والنمو، كالجسد والبشرة والأعضاء واللون، فهذه الأشياء – بعد ما استوى الإنسان وبلغ رشده- لا تزيد ولا تنقص، نعم! قد تأتي

الزيادة والنقصان بالعوارض الخارجية كالصيف والشتاء والصحة والمرض، مما قد يأتي يتغير طفيف في هذه الأشياء؛ لكنها لا تقبل بذاتها أي زيادة ونقص، بعد ما أدرك الإنسان الحلم، وهذه الأجزاء هي التي عبرنا عنها بأصل البدن.

وهناك أعضاء أخرى، تقبل النشوء والزيادة حتى آخر اللحظة كالشعر والأظفار، فلا لها نهاية ولا حد للوقوف، وهذا ما سميناه بـ"زوائد البدن"، وجاء الشرع الإسلامي الحنيف بأحكام تخص كلا الجانبين من الجسد.

أما أصل البدن فبما أنه سليم من التغيرات الفطرية نهى الإسلام عن إدخال أي تعديل فيه، كتصغير الكبير، وتكبير الصغير، وتعطيل أي جزء من الأجزاء أو صبغه بألوان تشوِّهُ الخلقة، كالمدنية الغربية التي تستحسن تكبير العين الصغيرة من خلال عملية الجراحة، وقلع الأسنان النابتة الملتوية، وزرع الأسنان المصنوعة مكانها، وتغيير خلق الله بالمساحيق وأدوات التجميل المتنوعة.

فهي عمليات خرقاء تعمل في تغيير خلق الله، لا يُقدِمُ عليها إلا الفسقة تلامذة الشيطان، وقد سماه القرآن الكريم بفعل الشيطان، في قوله: ﴿**وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا١١٩**﴾ [سورة النساء: ١١٩].

والتحذير الشديد من تغيير خلق الله يمثل إعلاناً عاماً عن أنَّ "أصل البدن" قد تمت خلقتُه من جهة الخالق، وبلغ غايته في الخلق، فإذا انتهى الخالق عن عملية الخَلْق، فلا يجوز للمخلوق أن يزيد على خلق الله، فإن هذا يعني أن عمل الخالق في حاجة إلي التحسين والإكمال والتعديل، عياذا بالله، فإنه كفرٌ بَوَّاح، وسوء أدب لا يُغتفَر.

أما "زوائد البدن" وما يعتريها من زيادة في النمو والتغيير تنبئ عن أن الخالق لم يجعل لها حدًّا للنمو، فإذا كان الإنسان أدخل فيها بعض التحسينات وفقًا للشريعة الإسلامية لا يُعتبر هذا سوءَ أدب؛ بل هو إكمال مقصد الشارع وعبادة خالصة، فقطع زوائد البدن كتقليم الأظفار وقص الشعر لا يأتي ضمن تغيير خلق الله؛ بل هو -كما قال القرآن الكريم- "إتمام كلمات الله"، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

فالأمور العشرة التي ابتلي بها إبراهيم-عليه السلام- وأتمها بسلامة قلبه وصلاح فطرته، كالختان ونتف الإبط وحلق العانة وقلم الأظفار وأخذ الشارب وما إليها، كلها تصرفات في زوائد البدن، ولما كان أتمَّ هذه الأعمال كلها بأمر من الخالق سُمِّيَت كلماتِ الله، وتشرف سيدنا إبراهيم-عليه السلام- بمنصِب الإمامة العظمى، التي ذكره الله تعالي بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [سورة البقرة: ١٢٤].

والحاصل أن قطع "أصل البدن" أو الزيادة فيه أُعْتُبِر تغييرًا في خلق الله، فنُهِي عنه، بينما اعْتُبِر التصرف في "زوائد البدن" إتمامًا لكلمات الله، فأصبح مستحسنًا، فوجب إبقاء خلق الله في الصورة الأولى، ونُدِبَ إتمام كلمات الله في الصورة الثانية.

ومن هنا تجلَّى ما كنا نحن بصدده، وهو أن التغيير في أصل البدن، والإبقاء في زوائد البدن – خلاف المطلوب- يُفضِي إلى التشبه بالغير، وهو عمل شيطاني في نظر القرآن، وعلي العكس من ذلك يُعتبر إبقاء خلق الله وإتمام كلمات الله من عمل الأنبياء الصالحين، فهو عمل رباني، عمله الأنبياء والصالحون.

فالتشبه بالغير في التشخص الذاتي يتضح بالنظر في ممارسات الأغيار وأعداء الله، وهم قد يغيرون الصورة الخَلْقِيَّة إلى صورة أخرى، وقد يقومون بتغيير جزئي في الصورة الخَلْقِية، فهم يسيرون على خلاف الحق أو خلاف ما أمر اللهُ، والصورة الأولى تعني التغيير في خلق الله، والصورة الثانية تتصل بالتغيير في كلمات الله، والفطرة هي التي خلق الله الناس عليها، فالتغيير في الخلق هو تغيير في الفطرة، فنستطيع أن نقول –بعبارة أخرى– إن الأعداء دائما يخالفون الفطرة في الحركات والسلوك؛ بينما أولياء الله يتبعون الفطرة، فهم يتجملون في زوائد البدن بما أمرت به الشريعة، وعلى هذا يجب على عامة المسلمين مخالفة أعداء الله واتباع أولياء الله؛ حتى تتمثل الفطرة في هيئاتهم وأجسامهم بشكل جميل رائع.

إن الشريعة الإسلامية تُوَفِّرُ لنا منهجًا متميزًا فيما يتعلق بأصل البدن وزوائد البدن، فيه مبادئ وأصول – وقد ذكرتها سابقًا– وفيه جزئيات وفروع سأتناولها في الفصول التالية.



الفصل الثاني:

"زوائد البدن" وإتمام كلمات الله

نبدأ الكلام فيه بـ"الوجه" بصفته أفضلَ أعضاء الجسم وأبرزها، وذلك بالتالي:

اللحية: واضحٌ أنَّ شعر اللحية له تأثير كبير في تجميل الوجه، وبذلك يتميز الحُسْنُ الرِّجالي عن الحُسْنِ النِّسائي، وقد أخذ الشَّعر في هذا العصر اهتمامًا كبيرًا، فتمَّ اختراع الآلات والوسائل الكثيرة لقطعها وتهذيبها، فَفُتِحَتْ لها محلاتٌ، وعُيِّنَتْ لها أجورٌ باهظةٌ، وقرَّر الأثرياء المترفون أجرة تهذيب الشعر وتحسينه وجهاً من وجوه الإنفاق.

إن شعر اللحية هو شعار أكبر للرجال، يزيدُ الوجهَ جمالًا ووقارًا، وذهبت الأقوام والأمم مذاهب شتى في شعر اللحية إبقاءً وحلقًا، صادرين عن دوافع الأديان والحضارة، فاعتبر البعض اللحيةَ روحَ الحُسْن الرجالي، بينما شذَّ قوم عن هذا باعتبار حلقها زينةً للوجه وجمالاً.

يعتبر النصارى والمجوس بالعاطفة الدينية وغيرُهم من الكفار والمشركين بالعواطف الحضارية حلقَ اللحية لازمًا، وترى السيخ واليهود والأساقف إعفاء اللحية ضروريًا، وبغض النظر عن دلائل الفريقين واعتباراتهم وقف الإسلام في اللحية موقفًا وسطًا بين طرفي نقيض، فأمر بإعفاء اللحية لينقطع التشبه بالفريق الأول، ثم وضع للطول والزيادة حداً ليتلاشى التشبه بالفريق الثاني.

وبالنسبة لإعفاء اللحية روى ابن عمر(1) عن النبي – صلى الله عليه وسلم– "خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى"(2)، وفي رواية: " جُزُّوا الشوارب وأعفوا اللُّحى".(3)

دعا الحديث إلى مخالفة المشركين، ومن هنا يُسْتَنْبَط مبدأ إسلامي هام "وهو مخالفة الكفار"، وفيه دلالة صريحة على وجوب إعفاء اللحية، وإشارةٌ إلى حرمة حلق

(1) عَبْد الله بن عُمَر(١٠ ق هـ - ٧٣ هـ = ٦١٣ - ٦٩٢ م)؛ وهو الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: هو الصحابي الجليل،ولد سنة ثلاث من البعثة في أعز بيوتات قريش في الجاهلية، نشأ في الإسلام، وهاجر للمدينة وهو ابن عشر، وأسلم مع أبيه، عرض على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم بدر، ثم أحد فاستصغره، وأجازه في الخندق، وشهد فتح مكة،كان جريئا جهيرا، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى. وغزا إفريقية مرتين: الأولى مع ابن أَبِي سَرْح، والثانية مع معاوية بن حديج سنة ٣٤ه، وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة سنة ٧٣هـ.
وهو من الصحابة المكثرين في الرواية، فله في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثا. وفي الإصابة: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: مات ابن عمر، وهو مثل عمر في الفضل، وكان عمر في زمان له فيه نظراء، وعاش ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير، واشتهر رضي الله عنه بالورع والعبادة وشدة تمسكه بالسنة. رضي الله عنه؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١٠٨؛ وانظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، د. ت)، ج٤، ص١٥٧.

(2) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهراني الأصبهاني، **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ج١، ص٣١٧.

(3) أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهراني الأصبهاني، **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م)، ج١، ص٣١٧.

اللحية؛ فإن القاعدة الفقهية المعروفة تقول: "الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده"[1].

فبدلالة الحديث على وجوب الإعفاء ثبتت حرمة ضده من الحلق والتخفيف المفرط؛ فلولا حرمةُ الحلق لذهب الأمر بالإعفاء عبثًا، والقول بوجوب الإعفاء وجواز الحلق يؤدي إلى اجتماع النقيضين وهو مستحيل.

ففي اللحية (وهو مظهر أكبر للوجه) حرص الإسلام على أن تتميز الوجوه الإسلامية عن الوجوه الكافرة، ولا تتبع الأولى الثانيةَ؛ فالاتباع مظهر الضعف، وعنوان الذل.

وفي ضوء مثل هذه الأحاديث يجب أن يفكر كل من يحلِق لحيته لا بدافع نفساني فقط؛ بل إشعارًا بموادَّة الكفار والتشبه بهم؛ حتى لكأنهم أبوا إلا أن ينقضوا عروة هذا المبدأ الإسلامي الهام، وهو مخالفة الكفار، نعوذ بالله من ذلك.

وحلق اللحية لا يدعو إلى التشبه بالكفار فحسب؛ بل إلى التشبه بالنساء أيضًا، والتشبه بالكفار يذهب بالمميزات الدينية، والتشبه بالنساء يُذيب الخصائص الصنفية، كما أنه – التشبه بالنساء- يحبب إلى الرجال عواطف وحركات نسائية من الدَّلَال واللطف والرقة والتغنج واللفتات النسائية في الكلام والمشية والإشارة؛ فالإقبال على ظاهر الشيئ يدعو الإنسان إلى الرغبة في حقيقته وباطنه؛ بل الإقبال على الظاهر تسبقه الرغبة في الحقيقة والباطن. وإذا ظهرت الحقيقة في صورة أو شكل حدثت الرغبة في ذلك الشكل ثانيًا، فالانتقال من الباطن إلى الظاهر إنما يتم إذا تمكن

(١) عياض بن نامي السلمي، **أصول الفقه الذي لا يسع الفقيهَ جهلُه**، ج١، ص١٨٠.

الباطن والحقيقة في القلب، والقلب يبغى صورته المحسوسة، فإذا ظهرت رغب فيها القلب أيما رغبة، وتحركت نحوها عواطف قلبية.

فيمكن أن يقال: إن المتشبهين بالنساء عن طريق حلق اللحية إما ينتقلون من صورة المرأة إلى حقيقة المرأة، أو أن عواطفهم القلبية المائلة إلى التأنث، انتقلت إلى صورة المرأة، واختاروا لهم وجوها تحكي وجوه المرأة إشباعًا لهذه العاطفة المتركزة في الطبع.

وعلى كل؛ فإن التشبه بالنساء في الظاهر والصورة كما يشير إلى الأنوثة والضعف بدل الرجولة والشهامة، يؤثر كذلك في الباطن؛ فَيَحُل الدلَالُ والرِّقَّةُ محل القوة والمغامرة، وبالتالي تحدث في الطباع صفات نسائية من المكر والخداع والنفاق بدل الشجاعة والشهامة، وتلهف هذه النفوس إلى التنعم والترف والتجمل والموضات والزينة المفرطة.

وانطلاقًا من هذا الأساس حرَّم الإسلام التشبه بالنساء تحريمًا كليًا بلا تخصيص وتقييد؛ حتى لا تندمج خصائص الصنفين ومقتضياتهما.

قال النبي – صلى الله عليه وسلم- "لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال"[1].

فالتشبه بالكفار والنساء يمسخ الوجوه، ويُفْسِد الطبيعة، ويترك آثارا سلبيةً بارزة لا تخفى على أرباب البصيرة والتجربة، فجاء صريح الأمر بإطالة اللحية خلافًا للأقوام المولعين بحلقها.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم٣١٥١.

أما أن الأمر بإطالة اللحية يجعل المسلم يتشبه بأقوام يطيلون اللحى والشوارب كاليهود والسيخ ، فعالجه الشرع الإسلامي بالأمر بقص الشوارب وجزِّها؛ فإن هؤلاء الأقوام لايفرقون بين اللحى والشوارب، فيطيلون كلًّا منهما إطالة مفرطة، فقول النبي – صلى الله عليه وسلم- "أحفوا الشوارب" جاء ليحدد الميزة بين المسلم والكافر، وإن كان قوم اعتادوا قص الشوارب أيضًا، كاليهود و"كايست"[١]، فأباح الإسلام قطع ما يزيد على قبضة من اللحية، ليزول التشبه وتبقى الميزة، فليس عند هؤلاء الأقوام منهج تهذيب الشعر وتنسيقه، يقول سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص[٢] – رضي الله عنه- " أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها"[٣].

فمراعاة هذه الحدود في باب اللحية يجعل المؤمن يتشبه بالأنبياء، ويمتاز عن الأعداء.

---

(١) قوم من الهندوس في الهند.

(٢) هو الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص،(٧ ق هـ - ٦٥ هـ = ٦١٦ - ٦٨٤ م) من قريش: صحابي، من النساك. من أهل مكة. كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية. وأسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلّى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة؛ حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا" (الحديث). وكان يشهد الحروب والغزوات. ويضرب بسيفين. وحمل راية أبيه يوم اليرموك. وشهد صفين مع معاوية. وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة. ولما ولي يزيد امتنع عبد الله من بيعته، وانزوى – في إحدى الروايات – بجهة عسقلان، منقطعا للعبادة. وعمي في آخر حياته. واختلفوا في مكان وفاته. له ٧٠٠ حديث؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١١١.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم٢٧٦٢، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

وإذا كان واحد من الكفار يختار له الوجه كوجه المسلم فهذا يعني أنه يريد الاقتراب من الشريعة الإسلامية، ويتبعد عن حضارته ودينه، فلا حاجة لنا أن نقطع التشبه بأمثاله، فهو الذي يريد التشبه بنا، وإن قطعنا التشبه به قطعنا صلتنا بشعائر ديننا،وهو كما ترى.

شعر القفا: ويتصل بشعر الوجه شعر القفا؛ فإن الوجه يطلق في العرف على ما هو فوق العنق، فالرأس كله من جميع الجوانب يدخل ضمن الوجه، فحكم شعر الوجه هو حكم شعر القفا، واستدلَّ الإمام أحمد بن حنبل على تحريم حلق القفا بأنه عمل المجوس.

قال المروذي[1]: سألت أبا عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عن حلق القفا[2] فقال: هو من فعل المجوس، ومن تشبه بقوم فهو منهم "[3].

وهنا ذكر الإمام صنيعه في القفا تقوية للحكم وبلاغًا للناس فقال: أما أنا فلا أحلق قفاي، وقال: إن حلق القفاء من فعل المجوس"[4].

يقول الشيخ المعتمر بن سليمان التيمي[5] قال: كان أبي إذا جز شعره، لم يحلق

---

(١) هو أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز، أبو بكر، المروذي، من أصحاب الإمام أحمد المقربين إليه فكان يأنس به وينبسط إليه لورعه وفضله، وروى عن الإمام أحمد مسائل كثيرة، توفي سنة ٢٧٥هـ؛ وانظر: **طبقات الحنابلة** لابن أبي يعلى، ج١، ص٥٦-٦٣.

(٢) حلق القفا: المقصود به حلق شعر الرأس من القفا، أي مؤخرة الرأس.

(٣) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٢٠٥-٢٠٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) هو: معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي، أبو محمد، البصري، كان يلقب بالطفيل،ولد سنة ١٠٠ هـ؛ وانظر: **تهذيب التهذيب**، ج١٠،ص ٢٢٧، رقم ٤١٥.

قفاه. قيل له: لم؟ قال: كان يكره أن يتشبه بالعجم"[1].

وورد في كراهة حلق القفا حديث مرسل كما قاله العلامة ابن تيمية، فهذه المرويات تبين لنا ما كان السلف يتبناه من حذر وحيطة في باب التشبه، وقد يكون المتنورون في زماننا لا يعجبهم هذا الالتزام الدقيق؛ ولكن يعرف جيدًا من رُزِقَ حظًا من الفطرة السليمة وبُعد النظر وسعة الثقافة أن هذا سلوك يرمي إلى حماية الحدود وسد الذرائع وإبقاء جوهر الملة، فالجوهر والروح هما أصل متجذر في أي ملة وقوم.

الطرّة (موضة من موضات شعر الرأس): إن الموقف الشامل الذي اختاره الإمام أحمد بن حنبل مستمدًا من النصوص ومقاصد الشريعة يفيد منع المسلمين عن اتباع الإنجليز في الطرة، وهو نوع من الحلاقة، يحرص فيه الإنسان على إبقاء شعر مقدم الرأس وحلق شعر الخلف، وهو طراز إنجليزي متَّبَع، وشعار قومي عندهم، فالإقبال على هذه الموضة يُحدث رغبةً في حضارتهم ونفوسهم، والقرآن يصرح بتحريم موالاتهم والركون إليهم: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣**﴾ [سورة هود: ١١٣].

وهذا لأن الميلان نحو الظالم نوع من الظلم.

القزع: القزع نوع من الحلاقة، يُحلق فيه بعض شعر الرأس ويُترك البعض الآخر، وهذا محظور في الشرع؛ لأنه يحكي المثلة، وقد ابتُلي به أقوام في الحاضر والغابر؛ حتى أصبح شعارًا لبعضهم، فكان الناس في حضارات الروم والفارس يحلقون وسط الرأس، ويتركون الشعر من الجوانب الأربعة، و في هذا العصر

---

(١) العلامة ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٢٠٧.

"الراقي" أُوْلِع أناس بحلق مؤخر الرأس ومافوق الأذنين وترك شعر الوسط والمقدم من الرأس؛ حتى يظهر وسط الرأس بازرًا جميلاً.

وفي ترك التشبه بهؤلاء وأولئك ورد حديث نبوي يقول: "نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن القزع"[1].

الخضاب: كان للشعر دخل كبير في جمال الوجه، فرُسمت في الشرع حدود جمال الوجه بغيةَ تمييز المسلم من غيره، و الشرع قد وضع للشعر – هو الآخر – حدودًا، فلم يرضَ بالتشبه بالكفار في الشعر، فكان المعروف لدى اليهود والنصارى ترك الشيب أبيضَ ناصعًا، فأمر الشرع الحنيف بتغيير الشيب باستعمال الخضاب والحناء، وذلك لإزالة التشبه باليهود في صفة الشعر.

وأخرج النسائي[2] في سننه عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: "غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود"[3].

---

(١) أخرجه الإمام ابن ماجة في **سننه** حديثا يوضح القزع، فعن ابن عمر قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القزع» . قال: وما القزع؟ قال: «أن يحلق من رأس الصبي مكان ويترك مكان" رقم٣٦٣٧.

(٢) هو: أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن نمر بن دينار النسائي، أبو عبد الرحمن، والنسائي نسبة إلى (نسا)، قرية بخرسان، الإمام الحافظ الثقة، صاحب السنن المعروفة بسنن النسائي، أحد الكتب الستة التي اتفقت الأمة على اعتمادها وقبولها، كان إماما مشهودا له بالعلم والفضل والتقى والصلاح، توفي رحمه الله سنة ٣٠٣هـ عن خمس وثمانين سنة؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **تقريب التهذيب**، ج١، ص١٦، رقم ٥٧.

(٣) أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، **سنن النسائي**، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٩٨٦م–١٤٠٦هـ)، رقم ٥٠٧٤.

ورخَّص الإمام أحمد في الاختضاب، فدعا إلى الاختضاب ولو مرة واحدة عملاً بالسنة، مما يدل على مصلحة الأمر بالاختضاب وعدم وجوبه، حيث قال الإمام لأبيه وقد انتشر الشيب في رأسه ولحيته: "يا أبا هاشم[1]! اخضب، ولو مرة واحدة، أحب لك أن تخضب، ولا تشبه باليهود"[2].

فالأمر بالخضاب منشؤه قطع التشبه بالكفار، وكل هذا يدل الدلالة الواضحة على أن مخالفة الكفار مبدأ إسلامي مستقل، وجاء في الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم ما يلي:

"إن اليهود والنصارى لا يصبغون؛ فخالفوهم"[3].

وسياق الحديث يشير إلى لطائف علمية، قد تشكل الأساسَ في مبدأ ترك التشبه بالكفار، وتوضح مدى حساسية الموضوع، وهي كالآتي:

١- لو كان قصد الحديث هو مخالفة الكفار في عملية صبغ الشيب فحسب، لكان نظم الكلام "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فاصبغوا".

فإطلاق "فخالفوهم" مكان "فاصبغوا"، واختيار الأعم بدل الأخص هو إشارة صريحة إلى أن الغرض هو عموم المعنى وشمول المخالفة في جميع الأشياء، وإلا

---

(١) هو: زياد بن أيوب بن زياد البغدادي، أبو هاشم، الملقب بـ (دلويه) ، وكان أحمد يلقبه بشعبة الصغير، وهو ثقة حافظ، من الطبقة العاشرة، توفي سنة ٢٥٢ هـ، وعمره ٨٦سنة، أخرج له البخاري وغيره؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **تقريب التهذيب**، ج١، ص٢٦٥، رقم ٨٨.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٢٠١.

(٣) أخرجه **صحيح البخاري**، رقم ٣٤٦٢؛ و**صحيح مسلم**، رقم ٢١٠٣.

فلم يبق لعموم اللفظ معنى، فعموم اللفظ – وهو مخالفة الكفار- يدل على أن مخالفتهم في الخضاب لا يكفي؛ بل المطلوب هو مخالفة الكفار في حكم الخضاب وغيره، المخالفة الشاملة التي تشتمل على فروع كثيرة، فحديث واحد –كهذا- كفى دليلاً على فرضية كل عمل، يندرئ به التشبه بالكفار.

٢- ومن القواعد الفقهية الشهيرة أن الخاصَّ إذا ذُكِر بلفظ عام كان الخاص سبب ذلك العام، فيدخل هذا الخاص ضمن العام باعتباره سببًا له، كما تدخل الفروع الأخرى فيه، فإن خصوص السبب لا يُبطل عموم اللفظ وشمول المعنى.

ومثاله ما إذا قلنا لرجل يزني: اتق الله، فسبب هذا القول هو عملية الزنا، وهي داخلة في الأمر بالتقوى؛ ومع هذا لا تمنع الفروع الأخرى المتصلة بالتقوى عن الدخول في مدلولها، فقولنا: "اتق الله"كما أُطْلِق على الزاني يمكن إطلاقه على السارق ومدمن الخمر وقاتل النفس وقاطع الطريق وغيرهم من مرتكبي المعاصي والسيئات.

وعلى كل فإن عموم اللفظ يقتضي الفروع الكثيرة مع السبب الخاص، ولا يختص بالسبب.

وعلى هذا فقد جاء الحديث المذكور أعلاه داعيًا إلى مخالفة الكفار، بلفظ عام وهو "فخالفوهم"، مع أن السبب خاص بالمخالفة في الخضاب، فمخالفتهم في الخضاب داخلة في المخالفة الشاملة، وليست بمانعة عن دخول الفروع الأخرى، فإنَّ كلمة "خالفوهم" لفظ عام يقتضي مخالفتهم في كل شيئ تتأتَّى فيه الموافقة، وبذلك أصبح الحديث قاعدة عامة وأساسًا هامًا في باب التشبه، يحرم التشبه بالكفار في جميع جوانب الحياة، سواء في التشخص الذاتي أو العوارض والمميزات.

٣- وإطلاق الشرع كلمة المخالفة العامة على المخالفة في الخضاب أفاد معًا حرمة التشبه وبيان علتها، وهي مخالفة الكفار، مما يجعل مخالفة الكفار موضوعًا شرعيًا مستقلاً.

فإنه من الثابت في أصول الفقه أن الشخص الموصوف بصفة إذا ذُكر بصفته، ولم يُذكر باسمه جاءت الصفة علةً للحكم والإسناد، كما إذا قلنا لأحد: "أكرموا العالم" وكان زيد مثلا عالمًا، لم يفد الأمر إكرام زيد وحسب؛ بل رمز إلى علة الحكم وهو علمه، أي أريد إكرامه بصفته عالما لا مطلقاً.

ومثله تماماً لم يكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليقول: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فاصبغوا"؛ بل ذكر بلفظ عام: وهو قوله عليه السلام: "إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم" مما نبه على علة الاختضاب، ألا وهو مخالفة اليهود والنصارى.

ويُستنبط بالحديث السابق- وربما بسهولة -أن الاختضاب ليس مسألة شرعية مهمة بقدر أهمية المخالفة، فالمخالفة تفوق الاختضاب في الأهمية والخطورة بكثير؛ وذلك لأن الأوامر الشرعية الكلية التي تشمل الفروع الكثيرة تملك نوعين من الاعتبار، فالنوع الأول أنه تدخل ضمنها فروع تحتية كثيرة مختلفة المراتب فيما بينها، والثاني أن الأوامر العامة تحمل القواسم المشتركة بين الفروع، التي تسري روحها في جميع الجزئيات، ويفيد التفكير أن المعنى الكلي أو القواسم المشتركة هو الأصل في الحكم، وتتفرع على هذا الأصل فروع الباب؛ حتى إن المعنى الكلي إذا سُلب من الفروع، أصبحت الفروع محظورةً.

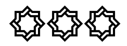
ومثاله ما إذا قال صاحب المنزل لخادمه: "أكرم الضيف، فأطعمه"، فإكرام الضيف هو معنى كلي عام، وهو الأصل في الأمر، أما إطعام الضيف فهو فرع من الفروع الكثيرة التي تندرج في هذا الحكم الكلي،كتسلية الخاطر ومراعاة وقته ومكانته وإراحته بكل طريق ممكن، وحمايته من كل ضرر وما إليها من عمليات وسلوك تفيد الإكرام؛ أما إذا كانت هذه العمليات لا تفيد الإكرام؛ بل تُمارَسُ بشكل يرمز إلى الإهانة تحولت هذه الصفات الحميدة صفات قبيحة، فحسن وقبح هذه الصفات منوطان بذلك المعنى الكلي وجودًا وعدمًا، وهذا كاف في بيان أن المعنى الكلي هو الأصل في الحكم المطلوب بذاته، وإياه تخدم فروع الباب.

فمخالفة الكفار معنى عام يشمل الخلاف في الاختضاب أيضًا، فالمخالفة هي مطلوبة بذاتها، وهو علة حقيقية للاختضاب.

ومحصول الكلام أن جميع فروع ترك التشبه هي ناشئة عن هذا المعنى الكلي العام، وهو مخالفة الكفار في هيئة وطراز، وتعامل وسلوك، مما يجعل المسلم إنسانًا متميزاً، يعرف من يراه من بعيد أنه مسلم محترَم صاحب العزة والنخوة والحقوق.

وقد ذكرتُ هُنا اللحية والقفا والطرة والقزع والخضاب كأمثلة لترك التشبه في أمارات الذات والتشخص الذاتي؛ حتى يتبين أن هذا البحث ليس بنظري محض؛ بل هو نظام عملي، يستوعب كثيرًا من فروع وأحكام القانون الإسلامي.

فلا حاجة لتحديد معناه الشرعي، وقد عينه الشرع بشكل كامل. وبالله التوفيق.



الفصل الثالث:

الحوائج اللازمة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: فلسفة التستر واللباس

" والبسوا ما لم يخالطه إسراف، أو مخيلة "[1]

اختلفت الأقوام والأمم وفئات مختلفة من كل أمة وقوم كالحضري والبدوي، والشريف والرذيل، والمتدين والفاسق، والمثقف والأمي،والعفيف والمستهتر، اختلفوا جميعًا في اللباس وهيئاته اختلافا كثيرًا، فمن لابسٍ اللباسَ الضيق، ومن متجمل باللباس الفضفاص، إلى آخر يرتدي الملابس الفاخرة، إلى مقتنع بالملابس العادية، إلى مؤثِر للملابس الحريرية، إلى مكتفٍ بالملابس الصفيقة الخشنة.

ثم ملابس كل فئة وجماعة ما زالت في تطور وتفنن، ثم هناك من يفضل التجدد اللامحدود في الملابس، بينما هناك من يعيش كل حياته في نوع واحد من الملابس، فأناس عضُّوا على تقاليد قومهم بالنواجذ، ولم يحيدوا عنها قيد شعرة، وأناس تأثروا بالحضارات الأخرى، واعتبروا أن التجدد هو طريق الارتقاء والازدهار.

---

(١) أخرجه ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط. د.ت)، رقم ٣٦٠٥.

فكل فئة وطبقة اختصت بنوع من الملابس جعلها تتميز عـن غيرهـا، وهـذه الملابس المتنوعة كما تُظهِر الفروق الظاهرة بين الأقـوام، تعكـس مـدى اخـتلافهم في الطباع والعواطـف، فلـو كانـت القلـوب والطبـاع متَّحـدة النزعـات والاتجاهـات، مشتركة العواطف والميول لما ظهر هذا الاختلاف الهائل والتنوع الجم في الملابس.

ومن هنا ينشـأ أن اخـتلاف الملابـس خاضـع لاخـتلاف النزعـات النفسـية والميول القلبية، التي تمثَّلت في الملابس المتنوعة والموضات المتطورة في كل شيء؛ فإنـه من المعلوم لدى العقلاء أن كل إرادة إنسانية وعاطفة بشرية تتبـع صـفةً متأصـلةً في جذور الإنسان، فالأعمال اللينة والسلوك الطيـب منشـؤها التواضـع، وحـب الجـاه وابتغاء المنصب ناشئ عن صفة التكبر، والرغبةُ في العفة والنزاهة أساسها هو الحياء، والبذلُ والإنفاق عماده الجود والكرم، وكذلك فإنَّ رغبة النـاس في الملابـس المتنوعـة والتشكيلات الحديثية المتطورة ما حدثت إلا لصفة متعمقة الجذور، تُحرِّك العواطـف وتهُزُّ الوجدان.

وهذا يوضح الحقيقة القائلة بأن مصدر هذا الاخـتلاف والتفـنن في الملابـس هو صفة مركوزة في الطبع، تُؤَثِّر في الملابس والمظاهر، وتُنوِّعها تنويعاً لا يعرف القيـد والحد، فليست الملابس إلا صفة فطرية تجسدت ملابِسَ.

فالملابس تمثل هذه الصفة الطبيعية، وآثارَها ونزعاتَهـا، وتقـف منهـا موقـف ترجمان وممثل، ونسخة طبق الأصل.

وإذا تمركزت في الطباع صفةٌ تُحِّبُّ التفنن في المظهر، نَحَتَتْ للملابـس صـوراً وأشكالاً كثيرة، وتتربى الأمة في أخلاقها وعاداتها على آثار الملابس وملامحها.

وبعد كل هذا يمكن أن أقول: إن الصفات الفطرية نواة أساسية للملابس، وما هذا التنوع في الملابس إلا أزهار وورود، انجلت عنها النواة. فكما أن النواة والجذور تُخْرج أغصانًا تتمثل في شتى الأشكال والألوان، تحدث الصفات الطبيعية كذلك هيئات وأنواعًا تتجمل بكثير من الألوان والمظاهر. فطبيعة البعض تُسَوِّل له السفور والعُرْىَ وإبداء مظاهر الجسد ومفاتن الزينة.

وهذا المثال أشار إلى مسألة دقيقة: وهي كما أن محاسن الفروع ومساوئها تتوقف على محاسن الأصول والمبادئ، فمحاسن الملابس تعتمد كليا على محاسن صفات الفطرة ومساوئها.

فمن المستحيل أن تَحْسُنَ الأصول، وظهرت الفروع القائمة عليها قبيحةً ممجوجةً، أوتتحسن الصفات الداعية للمظاهر، وتقبح المظاهر، أوتطهر دواعي الملابس، وتتنجس الملابس، فلا بد من تطابق وانسجام بين الأصول والفروع، فإذا طهُرت الصفات الطبيعة، يجب أن تطهُر الملابس والمظاهر، وإذا فسدت الفطرة فسدت المظاهر.

وإذا كان منشأ وجود الملابس وظهورها، وقبولها ورفضها هي الصفة الطبيعية المتمركزة في الوجود، اشتدَّت الحاجة أولًا إلى إصلاح هذه الصفات المتجذرة، ليصلح ما ينشأ عنها من مظاهر وآثار وفروع، ومن هنا ركَّزت الشريعة الإسلامية على إصلاح الأصول والجذور، ورسم لها خطاً واضحاً، فأفاد أن الطبيعة والمذاهب الفطرية إن كانت خضعت للوحي والشريعة فحسنةٌ هي وما ينشأ عنها من مظاهر وملابس، وإن اتبعتْ الهوى النفساني، فهي وآثارها جد قبيحة.

فإنا إذا تفكرنا جِدِّيًّا تجلى لنا أن الصفات والأخلاق الفطرية إذا كانت هي العاملة في الملابس وصورها وهيئاتها، فهذه الأخلاق تخلق روحا في اللباس، تناسبه، وتجذب آثاره الصحيحة أو الفاسدة؛ فإن من سنة الله أنه يضع روحا في طبيعة تناسبها، إذا ثبت هذا ثبت أن الخلق الفطري يؤثر في صلة الأرواح بالملابس، مما يترك انعكاسًا صالحا أو فاسدًا في الملابس، فإن كان الخلق الفطري يرتبط بالصلاح والتقى يؤثر تاثيرًا إيجابيًا في الملابس ويودعها الخير والبركة، ويملأها آثاراً صالحةً، فتبرز الملابس مظهر الطهارة والعفاف والهدى والتقى.

وإن كان الخلق الفطري قويَّ الصلة بالهوى النفساني والشوائب المادية، فسرت في الملابس روح شيطانية، تملأها ظلمة ودُجى وقذارة أرضية، فتبرز الملابس أمارة من أمارات الشر والفساد والرعونة والخبث.

وإلى هذه الروح الملكية والشيطانية السارية في الملابس أشار النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم– "اطووا ثيابكم، ترجع إليها أرواحها؛ فإن الشيطان إذا وجد ثوبًا مطويًا لم يلبسه، وإذا وجده منشورًا لبسه"[1].

ولبسُ الشيطان الثوبَ المنشور إشارة إلى حلول الشيطان في الثياب وخروج الروح المودعة في الملابس، التي تُظهر آثارًا صالحة أو فاسدة في الملابس.

---

(١) السيوطي، الإمام جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطي، **الجامع الصغير من حديث البشير النذير**، رقم١١٢٠، وفيه عمر بن موسى، وهو وضاع، وحكم الألباني عليه بأنه موضوع؛ وانظر: الألباني، **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**، رقم ٢٨٤٠.

فمحاسن الملابس ومساوئها تتوقف على هذه الروح، والـروح متوقفـة عـلى الخلق الفطري في الخير والشر، والصلاح والفساد، وبذلك صار الخلق الفطري أكـبر عامل وأقواه في كل ما يظهر في الملابس، ومن هنا عمل الأنبيـاء والرسـل عـلى إقامـة صلة الفطـرة بـالوحي وسـلامة القلـب وروحانيـة الضـمير قبـل صـلتها بالعـادات والتقاليد والعواطـف القوميـة؛ حتـى يكـون الإنسـان الصـالح في مظهـره متمسـكًا بالصفات الحميدة، ومحميًا من ألوف المضار الروحانية والجسدية التي تخلقها المظـاهر القبيحة للملابس.

وقبل الخوض في تفصيل هذه المضار يطيب التفكير في أن الخلق الفطري الفاسـد الذي يخرج الملابس من الحدود الشرعية ويجعلها سبب المضار الكثيرة هو على نوعين:

١- **النوع الأول**: ما له صلة بالباه (وهو عاطفة الجماع والنكاح)، وهذا يدعو إلى الإفراط في التنعم والبذخ والترف، فيتعود الإنسان عـلى طلـب الراحـة والبطالـة والكسل، فتنتهي عنده القوة العملية.

٢- **النوع الثاني**: ما له صلة بالجاه، وهـذا يـدعوه إلى الفخـر والخـيلاء والنخـوة والشدة، فينشأ في الإنسان الإعجاب بالنفس والثقة الزائدة بالذات وحب الظهور؛ حتـى تذهب المعرفة بالنفس وقوة العمل، مما يعرِّض الإنسان لألوف من المشاكل والمصائب.

وهذه العواطف: عاطفة الباه وعاطفة الجاه تسلك بالإنسان مسلك الإفـراط والتفريط؛ فيحل في القلوب الإنسـانية الإسرافُ محـل الاعتـدال، وتتمركـز صـفات تدعو إلى الإسراف والتبذير، فلنا أن نقول: إن حدود الملابس التي يَبْقَى فيها الملابـس ملابس هي حدود الاعتـدال، وإن الآفـات التـي تفـوِّت مقاصـد الملابـس وتمسـخ

حقيقتها هي حدود الإسراف، فإن الإسراف يُحْدِث في النفس الكسل والغفلة وبالتالي الخيلاء والرعونة.

فإن الإنسان إذا ارتدى لباس الإسراف اصطبغ ظاهره وباطنه بصبغته التي تخلق الراحة والكسل والدعة، ظاهره يستفيد من التنعم، وباطنه يأخذ منه إدراك الجمال، والمعنى أن أعضاءه الظاهرة تلتذ بمسِّ هذا اللباس وتقر برؤيته العين، أما القلب فيلتذ بإدراك هذه الزينة والنعمة، غافلاً عما يجره من آثار سيئة.

فالملابس تهب للإنسان ثلاثة أنواع من الراحة:

١- راحة الملمس.

٢- راحة المنظر.

٣- راحة الإدراك.

النوعان الأولان منها يتصلان بظاهر الجسد، والأخير يرتبط بباطنه، وهكذا لم يبق من الراحة إلا نوعان، تهبهما الملابس ظاهرها وباطنها للإنسان ظاهره وباطنه.

أما راحة الملمس من الراحة الظاهرة فهي تعني أن اللباس يريح الإنسان بمسه، وهذا موقوف على لينه ونعومته. ولهذا يجب أن لا تكون الثياب خشنة صفيقة، تؤذي الجسد، فإن إراحة الثياب في الفصول المختلفة تفيد كونها مريحة في ذلك الفصل باللمس.

أما اللين والنعومة فهي قد تكون في ذات الثياب كالحرير (في اللغة العربية، و"الديباج" بالفارسية) فإنه ناعم الملمس، وإن كان رقيقًا؛ بل إذا زاد الحرير غلظة زاد تنعما وتلطفا، وانسجاماً للبدن وإراحةً له. وقد لا تكون هذه النعومة في ذات الثياب؛ بل تُودع فيها من الخارج، كثياب الكتان، فإن الخيوط سداها ولحمتها إذا رُكِّبت وهي على ما

هي عليه جاءت الثياب خشنة صفيقة، وإذا عُملت فيها عملية التوفيق والتحسين وجُعِلَت الخيوط رقيقة ناعمة جاءت الثياب المنسوجة ناعمة سارة، مريحة للبدن.

وقد يحدث أن هذه النعومة لا تكون في ذات الثياب ولا في صفته؛ بل تكون خشنة من حيث الذات والصفات، فلا تقبل نوعاً من النعومة، كالصوف، فإنه وإن قُطعت خيوطه رقيقةً جدا، وعملت فيه عمليات التلطيف والترقيق والتحسين لا يخلو كليًا من الخشونة والصفاقة، ولا يتحلى بنعومة الحرير وليونة الكتان، فهو يخل بالراحة.

وبعد النظر في هذه الأنواع الثلاثة والحديث عن راحة اللمس ومضرته توصَّلتُ إلى أن راحة الملمس تتعلق بظاهر الثياب.

وراحة المنظر -وهي راحة ظاهر البدن- تعني أن تريح الملابسُ النظرَ بجمالها وألوانها وحسن صنعها وتُقِرَّ العين، بحيث زهت ألوانها وتنوعت زخارفها، وكثر رواؤها وبهجتها؛ أو عُملت فيها أعمال تحسينية من الخارج، كخيوط الحرير وتطريز مزخرف ورسم الأشكال والأزهار الفاتنة والأشجار الطويلة المليئة بالثمار أو وضع الحرير في الأطراف مما يجعل الثياب تَسُرُّ الناظرين وتفرِّحُ المنكوبين، أو قُطِّعَت الثيابُ على طراز بديع وصنعة عجيبة، تجذب الأنظار وتلفت القلوب، فراحة المنظر لها صلة بصورة الملابس.

وفي الحديث عن راحة الباطن التي تعني راحة الإدراك أن تريح الملابس القلب بعلو شأنها، سواء كان علو الشأن إضافياً، أو مكتسَبًا بالنسبة العظيمة أو ذاتيًا يحصل من صنع الثياب، فلا يكون الثياب زاهية الألوان ولا بديعة الصنعة؛ بل تكون بمزاياها اللطيفة غاليةٌ وجميلة وعزيزة الوجود؛ فتكون بذلك لطفاً للنفس وسروراً

للنظر ومثار الفخر والعلو، تُحْدث في القلب عاطفة العلو، وتلفت اللابس إلى عظمتها وندرتها، كالملابس والثياب المصنوعة في مصانع أوروبا، التي لا تكون مفرطة في زهو اللون وجذابية المنظر؛ لكنها تُباع بأثمان غالية لحسن الوضع ودقة الصنعة، أو كملابس باريس للهنود، التي تشابه الملابس الهندية في الهيئة والحقيقة إلا أنها تفوقها بجودة التغسيل والتنظيف، فهي تباع بأثمان غالية لهذه الشهرة.

والواقع أن هذه الملابس لا تحمل جمالا في المنظر، ورواءً في الألوان، يدعو النظر ويلفته، ولاتحمل إعلانًا ولافتةً تدل الناظرين على غلاء ثمنها وعظم أهميتها؛ ولكنها مع هذا تُستعْمَل –برغبةٍ وإقبالٍ- صدوراً عن تلك الراحة المتوهمة التي تفيد الإدراك بأهميتها وغلاء سعرها، وأنها ذات صلة بأثرياء القوم ونخبتهم، فالنفس تعلو بعلو الثياب، وفيه نوع من راحة الإدراك المتوهمة، التي لا تتأتى للجسد المحفوف بالملابس ولا للعين الناظرة إليها؛ وإنما يدركها القلب، ولذا قلت: إن راحة الإدراك ليس منشؤها مادة الثياب ولا صورتها؛ وإنما أساسها هي حقيقتها ومعنويتها.

فالمحصول أن الملابس تفيد من هذه الجهات الثلاث:

١- من جهة المادة، وذلك عن طريق نعومتها وليونتها.

٢- من جهة الصورة، وذلك لكونها تسر الناظرين برواء المنظر وجمال اللون.

٣- من جهة الحقيقة، وذلك ناشئ عن أهميتها وغلاء أسعارها. ثم هناك ثلاث قوى إنسانية تدرك هذه الراحة بأنواعها الثلاثة وتتمتع بها:

١- القوة اللامسة، تتمتع باللمس.

٢- القوة الباصرة، تستفيد من منظر الملابس ومظهرها.

٣- القوة المتخيلة: تلتذ بالوهم والخيال.

إن القوتين: الباصرة واللامسة تتصلان بظاهر الجسد وجوارحه، بينما تتعلق القوة المتخيلة بباطن الإنسان، وانطلاقًا من هذا الأساس يمكن أن نقول: إن اللباس له صلة بعلم الإنسان وعمله ومظهر ومخبره، بواسطة هذه القوى الثلاث، وبما أن الظاهر يُجرَى عليه أحكامُ الدنيا، والباطن يحكم عليه بأحكام الآخرة، فإن شئت فقل: إن اللباس الإنساني مرتبط بكل من الدنيا والآخرة.

فإن بناء الدنيا والدين يقوم على آثار الملابس، فاللباس ليس شيئاً دنيويا أو اجتماعياً أو ظاهرًا محضًا تفنى آثاره وتبيد نتائجه إن بَلِيَ وَأَخْلَقَ ، كلا؛ فإن صورة اللباس وإن اتصلت بالجسد لأيام معدودة، اتصلت حقيقته بحقيقة الإنسان فكسبت نوعًا من البقاء، وتجاوزت آثاره إلى الآخرة التي هي خالدة بإذن الله.

وتفصيل هذا الإجمال أن النفس الإنسانية إذا أُطْلِق سَراحُها، وأُتيحت لها فرصة الاستلذاذ براحة المنظر والملمس بَدْلَ أن يتم كبْحُها بلجام السذاجة والتقشف والخشونة، فهي تتوغل في التنعم والتمتع بالمظاهر الجميلة، وتتنكر لصفات البطولة والفروسية، كالصبر وتحمل النوائب ومقاومة الحوادث، وتفقد خشونة الرجال وتقشف الزهاد، وتذهب الصفةُ العظيمةُ "الشجاعة" التي تُعَدُّ منشأ جميع مكارم الأخلاق و الصفاتِ القويةِ، كالهمة والشهامة والصبر، ويحُلُّ محلَّها الجبن الذي هو أساس كل صفات الضعف والخور.

مع أن الشجاعة ظلت مطلوبا شرعيًا؛ فإنها هي التي تذلل الصعاب، وتقتحم المخاطر، وتهز السيف والسنان، وتدير المعركة الضروس إدارةَ طفل لكرته وألاعيبه،

وإذا أخذ اللباس حظاً من الشجاعة ملأ الإنسانَ تقشفًا وخشونةً، وأكسبه من الحلم وتحمل المصائب النفسية والصبر عليها ما جعله يستصغر المصائب ولا يرهبها.

فالشجاعة العملية التي تقذف في قلوب الأعداء الرعب، وتمرِّغ وجوههم، تشبه شجاعة اللباس -وهي خشونته- التي تُرْعِب العدو الأكبر القرين المتمثل في النفس الأمارة بالسوء، وترجفه، وتكسر كل حِيَلِه ودواعيه، ومن هنا ظلَّ الجبن والخور مرفوضًا في نظر الشرع الإسلامي بصفته يدعو إلى التولي يوم الزحف، ويفضح صاحبه أمام الأعداء، كما أنه يفضح صاحبه أيضا أمام العدو الداخلي: النفس الأمارة بالسوء، وذلك لإقباله على تلبية حاجة النفس وإشباع الغريزة النفسانية؛ مما يقضي على عزة النفس، ثم هذا التوغل في التنعم والتلذذ، الذي يمحو كل جزء من الشجاعة والبسالة لا يذهب بنور العزة وإشراقة النفس فحسب؛ بل لا يحظى صاحبه أبدًا بتلك الراحة المتوهمة التي ضحى في سبيلها بأعز ما يملك من أخلاق كريمة وصفات نبيلة،؛ بل خلق الكثير من المشاكل والمفاسد.

فإن التلذذ والترف لا يتم إلا بكسب المال الكثير، فلا بد أن تَحْدُثَ عاطفةٌ مفرطة لجمع المال في قلبٍ مولَعٍ بالتنعم والترف، وهذه العاطفة تفتح باب البخل والإمساك على مصراعيه، وتغلق نافذة التضحية والإيثار.

ثم هذه العاطفة تدعو إلى الشحِّ والحرص، على حساب القناعة والرضى، وإلى الطمع في مال الغير على حساب الجود والكرم، فتكون نفسه ضنينًا بماله، حريصًا على مال الغير.

ثم الطمع يقتضي من صاحبه أن يتقن فَنَّ التملق والمجاملة، فيموت

الاستغناء وغنى النفس، وتقوى سلسلةُ العبودية والاحتياج، ويشتدُّ طولُ الأمل، فيزهد في الآخرة ويرغب في الدنيا.

وكل هذه الأشياء مجتمعة تذهب بكل راحة نفسية وسكينة قلبية مما يزيد الإنسان شرودا في الفكر، وقلقاً واضطراباً وحسرةً وانقباضًا، مما تشعر به القلوب السليمة عاجلا، ولا تتنبه له القلوب الغافلة إلا إذا ظهرت ثماره، وفات أوانه.

فضاعت الراحة التي لأجلها اختِيْرَ اللباسُ الناعم، وكُبِّلَ القَلْبُ الحر بسلسلة طويلة من العواطف القبيحة والأشغال النفسية؛ إضافةً إلى مصائب التشويش والقلق والاضطراب، فأصبح بذلك قلب الموضوع، مع اختلال جميع أهداف العبودية والحب، التي لا تجتمع عادة بدون سكينة وطمانينة.

أفرأيت كيف يرضى الإسلام –وهو دين العز والخلق والحشمة والوقار– بأن يلبس المسلم لباساً مفرطاً في التنعم والترف، يخل بالروحانية، ويُحْدِثُ صفاتٍ ذميمة كالجبن والخور، والإمساك والبخل والحرص والطمع والتملق والمجاملة والعبودية لغير الله، والافتقار وطول الأمل وما إليها، ويُلْقِيْ الذلَّ واضطرابَ الخاطر على كتف الإنسان، فتذهب راحة الدنيا، وتفوت أهداف العبودية لله رب العالمين، وأصبحت العقبى حسرة ووبالاً.

وكفى بهذا دليلاً على أن اللباس الذي يرتضيه الإسلام هو اللباس السالم عن هذه المساوئ والمفاسد وعواملها، والتي من شأنها أن تغرس في جنات القلوب غِراسَ الشجاعة والهمة والخشونة الرجالية والإيثار والقناعة والجود والكرم وغنى النفس والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة؛ مما يعمل في حدوث عزة النفس وسكينة

القلب وخشوع في العبادة، وتحبيبها إلى القلب، فيحوِّل الدنيا إلى جنة فيحاء، وبالتالي يُسعِد الإنسانَ في عقباه أيما إسعاد.

ومن أجل ذلك قد حرَّم الإسلام من اللباس ما هو ناعم بذاته، لين في حقيقته، ويخلق راحةً مفرطةً تنأى عن مكارم الأخلاق كالحرير والديباج، حيث قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة"[1]، وفي رواية: " نهى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم عن لبس الحرير إلا موضع أصبعين، أو ثلاثة، أو أربعة، وأشار بكفه "[2].

وقد يتوهَّم أحد في حلة الحرير المغلظ لغلظته، مع أن الحرير الغليظ هو أكثر نعومةً وأزيد إراحةً، ولذا جاء حديث يحرم الديباج (وهو الحرير الغليظ) فعن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "من لبس الحرير في الدنيا والديباج لم يلبسه في الآخرة"[3].

نعم! إن ثوب الكتان لم يحرَّم، وذلك لكونه غير ناعم الملمس في حقيقته، وكُرِهَ منه اللباسُ الناعمُ الباعث للتنعم، واستُحْسِن اللباسُ الكتانيُّ الخشن، فهو سبب الشجاعة والبسالة، فأتى حديث نبوي شريف بحكم يلي:

(١) أخرجه الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري، **شرح مشكل الآثار**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط،(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م)،ج١٢، ص٣١٧، رقم ٤٨٣٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم ٣٦٥.

(٣) علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٢١٩.

"من رق ثوبه رقّ دينه"[1].

ويقول زياد بن كسيب العدوي: كنت مع أبي بكرة[2] تحت منبر ابن عامر وهو يخطب وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق"[3].

ونوَّه النبي – صلى الله عليه وسلم- بلباس خشن قائلاً: " يا أبا ذر[4]! إلبس الخشن الضيق؛ حتى لا يجد العز والفخر فيك مساغا"[5].

---

(١) أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي، **الكنى والأسماء**، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م)، رقم١٥٧٩.

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، أبو بكرة: صحابي، من أهل الطائف، له ١٣٢ حديثا. توفي بالبصرة. وإنما قيل له " أبو بكرة " لأنه تدلى ببكرة من حصن الطائف إلى النبي صلّى الله عليه وسلم. وهو ممن اعتزل الفتنة يوم " الجمل " وأيام " صفين"؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٨، ص٤٣-٤٤.

(٣) أخرجه أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم ٢٢٢٤، قال الألباني: صحيح.

(٤) هو الصحابي الجليل: جندب بن جنادة بن سكن الغفاري أبو ذر، كان من السابقين إلى الإسلام، ولما أسلم بمكة أعلن إسلامه، وكان المسلمون يستخفون آنذاك، ورفع صوته أمام قريش بالشهادتين فضربوه، ثم رجع إلى قومه،، ثم هاجر إلى المدينة بعد بدر وأحد، وكان صادق اللهجة، وذكروا أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصفه بذلك، كما قال فيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أيضا: "يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده"، فلما حصل منه بعض الخلاف مع عثمان رضي الله عنه، وخاف عثمان افتراق الناس وفتنتهم فسيره إلى الربذة، فمات بها رضي الله عنه سنة ٢٣، وصلى عليه ابن مسعود رضي الله عنه؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، ج،٤ ص ٦٢ – ٦٤، رقم٣٨٤ .

(٥) علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٥٦٢٣.

وعن أبي عثمان النهدي[1]، قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب ونحن بآذربيجان مع عتبة، أما بعد، فاتزروا وانتعلوا وارموا بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم وزي العجم! وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب، وتمعددوا "، واخشوشنوا "، واخلولقوا "، واقطعوا الركب، وارموا الأغراض، وانزوا"[2].

أما الصوف فكان خشنا في ذاته، من شأنه أن يكبح النفس الحرة، ويبعث فيها الشجاعة والزهد مما له تأثير لا يُنكر في حلاوة الإيمان، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم-: "من سره أن يجد حلاوة الإيمان، فليلبس الصوف تذللا لربه عز وجل"[3].

وكان معظم ثياب النبي – صلى الله عليه وسلم- هو الصوف، واتخذه

(١) وهو عبد الرحمن بن مل ابن عمرو بن عدي النهدي، أبو عثمان الكوفي، أسلم وصدق، ولم ير النبي، يروي عن عمر وعلي وأبي ذر، وعنه قتادة وأيوب وأبو التياح والجريري وخلق، وثقه ابن المديني وأبو حاتم والنسائي، قال سليمان التيمي: إني لأحسب أبا عثمان كان لا يصيب ذنبا كان ليله قائما ونهاره صائما، وقيل: إنه حج واعتمر ستين مرة، قال عمرو بن علي: مات سنة خمس وتسعين، وقال ابن معين: سنة مائة عن أكثر من مائة وثلاثين سنة؛ وأحمد بن عبد الله بن أبي الخير بن عبد العليم الخزرجي الأنصاري الساعدي اليمني، صفي الدين، **خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (وعليه إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة للعلامة الحافظ البارع علي بن صلاح الدين الكوكباني الصنعاني**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٥، ١٤١٦هـ)ج١، ص٢٣٥.

(٢) علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٨٧٠.

(٣) المصدر السابق، رقم ٤١١١٩.

أصحاب العلم والفضل والتقوى لا سيما الصوفية شعاراً لهم؛ حتى لبس بعضهم المسوح علاجًا للنفس.

وعلى كل فكان الحرير لينا في ذاته فحرم، وكان الصوف على عكسه في الخشونة، فاستُحْسن لبسه، وحظي باستعمال النبي – صلى الله عليه وسلم- في غالب الأحوال، وكان الكتان يجمع بين اللين والخشونة، فاختير منه الخشونة لكونه أقرب للصوف، واستُكْرِه اللين لكونه أشبه بالحرير.

وكان العامل وراء هذه الأحكام كلها أن يُغرَس في قلب المسلم غراسُ الصبر والهمة والشجاعة والزهد والقناعة وما إليها من صفات حميدة، وتُقْلَع من القلب عواطف التنعم والتلذذ والاستراحة الزائدة، وفي باب راحة المنظر لم تُستَحْسن الألوان الزاهية، والهيئة الجذابة والأوضاع الثيابية الـمُغْرِية، فإنها تلفت النظر، وتسحر العقل، وبما أن اللون الأحمر كان من أكثر الألوان زهواً وإغراء، ولذا يُفَضّل على غيره في مناسبات الزواج والسرور، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم- في شأنه: "إياكم والحمرة؛ فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان".(١)

وفي جانب آخر كان الثوب الأبيض الناصع يحمل معاني السذاجة والصفاء، فأحب النبيُّ – صلى الله عليه وسلم- هذا اللون بقدر بغضه للون الأحمر؛ حيث قال: "أحب الثياب إلى الله أبيض(٢)، أما الألوان التي تشتمل – مع تلونها- على معاني

(١) المرجع السابق، رقم ٤١١٧٨.

(٢) ما وجدت له سندا قويا ولاضعيفا، وإنما جاء : "كان أحب الثياب إليه القميص" **كنز العمال**، رقم ١٨٢٦٤؛ و"كان أحب الثياب إليه الحبرة"(علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ١٨٢٦٥؛ والحبرة: وزن عنبة، هي البرود الموشاة المنقوشة.

الوقار والثقاهة والسذاجة، كالصفرة والخضرة، فأحبها -هي الأخرى- النبيُّ - صلى الله عليه وسلم- حيث قال: "أحب الألوان الصفراء والخضرة"[1].

وهكذا اللون العميق الذي يغطي جميع الألوان كالأسود، فهو أكثر الألوان زهواً وعمقاً؛ حتى يذهب بجمال سائر الألوان، فنال - مع شدته وعمقه- حظوة لدى النبي - صلى الله عليه وسلم-، فاستعمله النبي - صلى الله عليه وسلم-.

ومحصول الكلام أن خلو الثياب عن الألوان الزاهية استُحسن لكونه ترجمان الرزانة والثقاهة والوقار، واختلفت درجات الألوان في الرفض والقبول باختلاف الشدة والنقص، ومن هنا كُرِهَت الثياب التي نُسِجَت على أحدث طراز موشًّى بالأزهار والثمار، كالثياب المطرَّزة كأمثال " القسي" (لباس مكفف بالحرير فاخر، يُصنع في الشام ومصر) و "الميثرة" (نوع من السرج الحريرية تصنعه النساء للأزواج).

فقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم: يا علي، إني أحب لك ما أحب لنفسي، وأكره لك ما أكره لنفسي، لا تلبسِ القسي ، ولا المعصفر، ولا تركب على المياثرِ الحمر، فإنها مراكب الشيطان"[2].

وكذلك ثياب كتانية مكففة بالحرير، تدل على قدر زائد من الترف والتنعم كياقات الصدرية، وأكمام القميص، وجيوب الجبة والعباية، وأطراف الذيول،

---

(١) ما وجدت بهذا اللفظ، وإنما ورد: "كان أحب الألوان إليه الخضرة"(**كنز العمال**: رقم ٨١٢٦٣) و" كان أحب الصبغ إليه الصفرة"(**كنز العمال**: رقم ١٨٢٦٦).

(٢) أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي(الهند: المجلس العلمي، ط٢، ١٤٠٣هـ)، ج٢، ص١٤٤، رقم ٢٨٣٦.

وكذلك ما يصنع للأمـراء الأغنيـاء مـن خطـوط ذهبيـة مـن سـترة أميريـة، وسـترة عسكرية، وسترة ملكية وما إليها، مما يفيـد راحـة المنظـر وراحـة الملمـس، كـل هـذه جاءت كراهيتها في الشريعة الإسلامية، فقد قال النبي –صلى الله عليـه وسـلم– " لا تلبسوا القميص المكفف بالحرير"(١).

عن سعيد بن سفيان القاري قال: توفي أخي، وأوصى بمائة دينار في سبيل الله، فدخلت على عثمان بن عفان(٢) وعنده رجل قاعد وعلي قباء جيبـه وفروجـه مكفـوف

---

(١) علاء الدين علي بن حسـام الـدين المتقـي الهنـدي البرهـان فـوري، **كنـز العـمال في سـنن الأقـوال والأفعال**، رقم ٤١١٩٤.

(٢) هو الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي، أسـلم قـديما بمكـة، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، وقد تزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهـاجرت معه الهجرتين للحبشة، ولما ماتت تزوج بعدها أم كلثـوم أختهـا، فسـمي بـذي النـورين، وهـاجر إلى المدينة بعد قدومه من الحبشة، واشتغل بتمريض رقية عن شهود بدر، فأسهم لـه رسـول الله صـلى الله عليه وعلى آله وسلم، فعده من أهل بدر، وشهد أحدا، وسائر المشاهد، وبايع عنه رسول الله صـلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم الحديبية، فكان من أهل الشجرة، وجهز جيش العسرة من ماله، وجاء بـألف دينار حينئذ وضعها في حجر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال صلى الله عليـه وعـلى آلـه وسلم: "ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم "، وعده رسول الله صلى الله عليه وعـلى آلـه وسـلم مـن العشرة المبشرين بالجنة، وقد اشتهر رضي الله عنه بالحياء والكرم، ووردت في فضـله أحاديـث كثـيرة، اختاره أهل الشورى للخلافة بعد عمر، ثم قتل مظلوما رضي الله عنه عام ٣٥ للهجـرة؛ وانظـر: أبـو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، **الطبقـات الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتـب العلميـة، ط١، ١٤١٠هــ/ ١٩٩٠م) ج٣، ص ٥٣– ٨٤؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثـم الدمشـقي، **والبدايـة والنهاية**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي ، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ج٧ ، ص ١٩٩– ٢٢٣ .

بحرير، فلما رآني ذلك الرجل أقبل يجاذبني قبائي ليخرقه، فلما رأى ذلك عثمان، قال: دع الرجل، فتركني فخرجت من عنده، فسألت عن الرجل الذي يجاذبني، فقيل: هو علي بن أبي طالب، فأتيته في منزله، فقلت: ما رأيت مني؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أوشك أن تستحل أمتي فروج النساء والحرير"، وهذا أول حرير رأيته على أحد من المسلمين؛ فخرجت من عنده فبعته"[1].

ومعلوم أن هذه القباء لم يكن كله من الحرير؛ بل كُفِّفَتْ حواشيه بالحرير، وقد يكون في إطار المشروع، إلا أنه كره لأهل التقوى والعفاف هذا القدر أيضا، فإن حسن المنظر وجمال النظر لا ينتج ثمرة طيبة في حق اللابس والناظر، فإن الناظر إذا كان فقيرا يحب مثل هذه الثياب،ولا يستطيع شراءها انفطر قلبه حسرة وأسفاً، فأصبح اللابس بسببه فاطر قلب الناظر، وهذا ينافي الشفقة على الخلق والإيثار، (والشريعة مملوءة بأحكامها) ثم هذه الملابس تشغل الروح والقلب بما لا يعني.

فلا تتنزل الحقائق الربانية على القلوب ساعة اشتغالها بما سواها، ومعنى هذا أن الملابس شغلت اللابس بالوسائل عن الأهداف والغايات، وبالتافه عن المطلوب، وهذا يخالف ما أكد به الشرع الإسلامي من حكمة وبصيرة وتعقل. فعن عبد الله بن سرجس[2] قال: قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "صلى يوما وعليه نمرة

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٨٦٠.

(٢) هو الصحابي عبد الله" بن سرجس المزني، وقيل المخزومي حليف لهم صحابي سكن البصرة روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عمر وأبي هريرة وعنه عاصم الأحول وقتادة وعثمان بن حكيم بن عباد بن حنيف ومسلم بن أبي مريم وعبد الله بن عمران الطلحي وقيل بينهما عاصم الأحول وذكره

له، فقال لرجلٍ من أصحابِه: "أعطني نمرتك وخذ نمرتي"، فقال: يا رسول الله، نمرتك أجود من نمرتي، قال: "أجل؛ ولكن فيها خيط أحمر، فخشيت أن أنظر إِليها، فيفتنني في صلاتي أو يلفتني"[1].

وبهذا فاضل النبي –عليه السلام– بين درجات التقوى؛ فبقدر ما تزداد التقوى في الإنسان يزداد عفافه عن المباحات، كما شرح تفاوت الأحوال، حيث إن بعض الملابس –كلباس فيه خطوط حمراء– لا تأتي بالضرر في بعض الأحوال حتى استعملها النبي – عليه السلام– وتعود مضرة في الوقت الآخر كحالة الصلاة ومناجاة الرب، ومن مجموع ما ذكرت يُستخلص أن اللباس ليس من الأشياء المستعملة دونما وعي وبصيرة وتقيد ونظر؛ بل يجب استعمالها بكل حيطة، وبشكل يراعي المناسبات والأحوال؛ فإنها تعود بنفع وضرر لكل من اللابس والناظر؛ ومن هنا رغَّب حديثُ المسلمين في اللباس البذيء الساذج عن اللباس الزاهي المختلف الألوان، الجالب للنظر.

البخاري في تاريخه وابن حبان في التابعين من كتاب الثقات عبد الله بن سرجس يروي عن أبي هريرة روى عنه عثمان بن حكيم، قال ابن حجر: مفهوم هذا أن البخاري وابن حبان لم يذكرا عبد الله بن سرجس في الصحابة، وليس كذلك؛ فقد ذكراه فيهم؛ لكنهما أفردا الذي روى عن أبي هريرة بترجمة، فكأنهما عندهما اثنان. والله أعلم؛ وانظر: العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، (الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، مدينة حيدرآباد، ط١، ١٣٢٦هـ)ج٥، ص٢٣٣.

(١) البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م)، ج٢، ص٤٣٣، رقم ٥٢٤.

فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم-: " ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان "[1].

وقال سيدنا ابن مسعود[2] – رضي الله عنه- للمسلمين: "كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب "[3].

ومن هنا ظل ترقيع الثياب شعار النبي – صلى الله عليه وسلم- وخلفاءه

---

(١) أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد(بيروت: المكتبة العصرية، صيدا، د. ط. د. ت)، رقم ٤١٦١.

(٢) هو الصحابي الجليل: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، حليف بني زهرة، أسلم مبكرا في مكة حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وقيل: إنه أسلم سادس ستة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة حتى أوذي في ذلك، وكان خادم رسول الله الامين،وصاحب سره، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه. هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد بدرا وأحدا وسائر المشاهد، من أعلم الصحابة بالقرآن والتفسير، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بذلك، وجهه عمر بن الخطاب إلى الكوفة يعلم الناس، ثم استقدمه عثمان إلى المدينة، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما عام ٣٢هـ. وكان قصيرا جدا، يكاد الجلوس يوارونه. وكان يحب الإكثار من التطيب. فإذا خرج من بيته عرف جيران الطريق أنه مر من طيب رائحته. له ٨٤٨ حديثا. وأورد الجاحظ (في البيان والتبيين) خطبة له ومختارات من كلامه؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١٣٧؛ و أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، د.ت.)ج٣، ص٢٥٦-٢٦٠.

(٣) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٨٧١٥.

الراشدين المهتدين وصلحاء الأمة من بعدهم؛ حتى يهتدي بهداهم أناس ضعفاء يأتون من بعدهم، ممن تزل أقدامهم بأدنى جذابية وتلون، ويكون لهؤلاء عبرة في سلفهم؛ فإن السلف – وهم من هم في قوة الإيمان والورع والعفاف والزهد- راعوا هذه الحدود أكمل المراعاة فيجب على المسلمين الضعفاء الاعتناء الأكثر بهذه الحدود والاجتناب الكامل عن كل ينتج عدم المبالاة والإهمال.

وقد ذكر القرآن الكريم كل هذا في آية جامعة بليغة، حيث أُمِرَ سيد الأنبياء والمرسلين- صلى الله عليه وسلم- بحكم يلي: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ۝٢٨﴾ [سورة الكهف: ٢٨].

وهذه الآية الجامعة تنهى عن كل زينة ذات زخرفة وطراز لافت وهيئة مثيرة، من شأنها أن تلهي القلب وتشوشه، نعم! إن الشريعة حثت على التجمل، ودعت إلى التزين، وليس معناها هو الإفراط في التجميل والتطريز؛ بل يعني النظافة والطهارة والنزاهة دونما إسراف وإفراط.

فلا يجوز أن يُزخرَف اللباس زخرفة مفرطة؛ وإنما يجب أن يكون نظيفا طاهراً؛ ومن ثم جاءت أحاديث التجمل والتزين بتوجيهات، كلها منصبٌّ في محيط الطهارة والنظافة، وليس فيها ما يحبذ الإفراط في الوشاية والتطريز، ويشيد بالإسراف في الزخرفة والتلوين، إن الله – عز شأنه- يحب أن يرى أثر نعمته على عباده؛ ولكن في الزي الذي هو زي السلف، والذي اختاره سلف هذه الأمة في القرون الأولى.

وبما أن المرأة اختارها الله لتكون زينة في ذاتها، لا تتحمل الخشونة والبذاذة،

والسذاجة والتقشف، وتتطلب نفسيتها اللطيفة راحة الملمس ونعمة المنظر فأبيح لها الحرير وهو القمة في الرقة والليونة، كما أبيح لها كل لباس جذّاب ما دام في إطار المشروع.

فتجمُّل الرجال وتزيُّن النساء- في الإطار المشروع - خارجان عن كلام مبدئي قلته سابقاً.

والحاصل أن الإفراط في راحة الملمس والمنظر يُحْدِث في الجسد عاطفة التنعم والترف وحب الظهور والأنانية، ويخلق الجبن والخور والضعف والبطالة على حساب الشجاعة والهمة، فتضيع حياة الإنسان العملية والقلبية، ثم الإفراط في راحة الإدراك يسبب فساد القلب والنظر؛ فإن الانطلاق الفكري – واللباس له تاثير في هذا- يعود بإسراف ومجاوزة الحد، وله صورتان: الإفراط والتفريط، وإذا جاوز اللباس الحد المقرر له شرعاً فهو إفراط وتبذير، وإن قصَّر دون بلوغه فهو تفريط وتقتير، وفي كل من الصورتين لا يكون اللباس ترجمان الأخلاق المعتدلة الفاضلة؛ بل يرمز إلى أخلاق غير معتدلة ضائعة بين الإفراط والتفريط، مما يؤدي إلى فساد الدنيا والحياة الاجتماعية والنظام القومي وخسران الآخرة.

فإن الإسراف في طول اللباس و عرضه ، الذي سمته الشريعة الإسلامية بالإسبال (كطول اللباس طولا مفرطاً، بحيث يقع تحت الكعب أو يكون أضعاف الجسد، كالعبايات الملكية، التي تنجرُّ وراء اللابس أو يحملها الخدم أو مجاوزة الأكمام حدود الأصابع، أو كون الإزار طولاً مفرطاً وما إليها من الملابس الطويلة المغالي فيها دونما حاجة وغرض صحيح) ينشأ دائماً عن غفلة وعدم المبالاة مما يُلْهي القلب عن ذكر الله والتفكير فيه، فيقسو القلب وتذهب رقته، فلا ينيب إلى الله، ولا يواتيه توفيق من الله، وعدم التوفيق سبب كل هلاك وفساد.

وإذا كان الإسراف في اللباس صادرًا عن غرض ،كحب الظهور على الناس، فمنشؤه هو الإعجاب بالنفس، الذي من شأنه أن يقضي على البصيرة وأصالة النفس ويبطل ذوق معرفة الذات وإصلاح الأخلاق.

فالإعجاب بالنفس يدعو إلى أن يكون الرجل بين الناس شامّا، مرفوعًا، حيث يسحر كل إنسان ويلفت نظره، وهي صورة قبيحة من الرياء، تغسل الإخلاص والتوجه إلى الله، مع أن البنية التحتية للإنسان المسلم هو الإخلاص لا غير.

ثم اللابس المرائي يجري وراء كل موضة حديثة وطراز جديد رغبةً في الجمال الأكثر والسمعة الزائفة، مما يورِّط الإنسان في ورطة الجمال الظاهري، ويلهيه عن الجمال الباطني، جمال الحقيقة والواقع، وبذلك تتلاشى تلك السذاجة الفطرية التي تشكل أساس كل راحة ونعمة.

ثم هذا التصنع المتزايد في الملابس ومظاهر الزينة يزرع طبعًا في القلوب الفخر والزهو والأنوثة والتبختر، وهي نفس الأنانية التي هي ضد العبودية والتفاني في سبيل الله وانفعال النفس؛ مما يجعل الإنسان الذليل المهين لا يستحيي أن يقف خصمًا مبينًا أمام الرب الكبير المتعالي، كما يجب أن يزدري الإنسان المتكبر المتجمل بأفخر الملابس بالضعفاء والمساكين اللابسين أحقر الملابس، وفيه إضرار بالغير وإيذاء لهم كما لا يخفى، وهو سبب كل ما يحدث في الأرض من أنواع الفساد كالفتنة والاختلاف والتفريق والتعصيب والجدال والقتال التي تدمر الوحدة و تقضي على المصالح الاجتماعية والنظام القومي، وأساس هذه المعضلة هو اللباس المجاوز للحدود، المتسبب للأخلاق الفاسدة، فالمتجمل بمثل هذه الملابس قد يهدم قصر حضارته المتميزة.

إن الإسراف في اللباس ومجاوزته الحد المقرر من حيث الكيفية ككون الثوب شديد الرقة أو كثير الخشونة أو شديد النعومة أو أزهى لونا أو أقبح شكلا أو مفرطاً في السذاجة أو الزينة أو غاليًا جداً أو رخيصاً جدًا قد يثير انتباهات الناس، فيكون اللباس مثار الظنون والأفكار، يُرمز إليه بمدح أو ذم، يسُرُّ البعض، ويحزن الآخرين، هذا يذكره بسوء، وذاك يتناوله بالمدح، فكان اللباس مسرحية الملاهي والدعايات.

أما النوع الأول – وهو الإفراط في حسن اللباس- فيولَع به أهل الهوى المأخوذين بسحر الحسن والجمال والتنعم والترف، أما النوع الثاني – وهو الإسراف في قبح اللباس- يحبه في الغالب أهلُ الشبهات الذين يريدون إظهار التقوى والعفاف والزهد في الدنيا.

ولكن كلا النوعين من اللباس ينأى بالإنسان عن الحق وخيرية الشريعة الإسلامية.

فإن النوع الأول من اللباس يُغَذِّي غزيزة حب الظهور والسمعة فيتمكن فيه هوى نفسانية، وتتضاءل عواطف اليقظة الدينية والذكر والفكر، فتشتد غفلته، ويقسو قلبه؛ بينما النوع الثاني من اللباس يزيد هؤلاء وهمًا وخيالًا، حتى يعتبرون أنفسهم – بثناء السفهاء والجهلاء عليه- أزهد الناس وأتقاهم، فيكون لباس الزور هذا فتنة للَّابسين والمولعين به، فإن اللابس يُسلَب التوفيقَ لإصلاح حاله، ومحبوه يُسلَبون التوفيق للرجوع إلى المصلحين الحقيقين الذين يصلحونهم ويزكونهم.

فالمتبوع لايفرق في حاله بين الحقيقة والتصنع؛ بينما التابع لا يميز بين المصلح الحقيقي والمصلح المصنوعي، فهذا اللباس المفرط يحرم كثيراً من الناس قوة الفهم والوعي والشعور.

وقد تجلى بما سبق أن اللباس إذا تجاوز حده جرَّ كثيرًا من أنواع الدمار والفساد كالغفلة والقسوة والعجب والرياء والتكلف والتصنع والفخر والكبر وازدراء الناس وإيذائهم؛ مما يأتي بمعطيات سلبية في السلوك والأخلاق.

كما ثبت أن اللابس إذا قصد باللباس التأثير الصالح وجب عليه أن يلبس من الملابس ما يخلق عاطفة ذكر الله والتفكير في قدرته ورقة النفس وفناء الذات والإخلاص والإنابة إلى الله، والسذاجة والبذاذة والعبودية والتواضع وإكرام الناس ومداراتهم وما إليها من أخلاق فاضلة.

ومن أجْل ذلك فقد حرّم الإسلام – وهو دين عظيم دعا إلى "مكارم الأخلاق" في كل جوانب الدنيا، ويعتبر "الخلق العظيم" رأس مال المسلمين- كل لباس دخل في الإسراف ومجاوزة الحد، سواء بغلاء الأسعار أو بالنقص والزيادة، مما يزرع في الطبيعة الإنسانية الأخلاق الفاسدة كالغلو والإفراط والخيلاء والكبر، وفي هذا الجانب أرشد النبي الكريم – عليه السلام- إلى أن الإسبال يتحقق في كل لباس، فقد جاء في الحديث: " الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ، وَالْقَمِيصِ، وَالْعِمَامَةِ"(١).

وبين في حديث آخر – أخرجه الإمام مسلم(٢) في صحيحه- ما يترتب على

(١) أخرجه ابن ماجة في **سننه**، رقم ٣٥٧٦.

(٢) هو: الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، النيسابوري، ولد عام ٢٠٤ هـ، وقيل: ٢٠٦ هـ، أحد الأئمة الحفاظ الأعلام، صاحب الصحيح المشهور بصحيح مسلم، ثاني كتب السنة بعد صحيح البخاري، كما أن له مصنفات أخرى في الحديث وعلومه، وكان رحمه الله عالما تقيا ورعا، مجمعا على إمامته وفضله، توفي سنة ٢٦١ هـ؛ وانظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١١ ص ٣٣، ٣٤؛ وانظر: الترجمة التي كتبها محمد فؤاد عبد الباقي، في **صحيح مسلم**، ج٥، ص ٥٩١.

الإسبال من عقاب أليم وهو أن الله لا ينظر إلى المسبل المنان يوم القيامة نظرة رحمة وكرم ولا يزكيه، ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن النبي – عليه السلام– قال: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"[1]، وجاء حديث بزجر شديد لبعض ما له صلة بالإسبال، فقال – عليه السلام– في إزارٍ هو أسفل من الكعبين: "إزْرَةُ المُسْلمِ إلى نصفِ السَّاق ولا حرج – أو لا جُنَاحَ– فيما بينَهُ وبينَ الكعبينِ، وما كان أسفلَ منَ الكعبين فهو في النار"[2].

ويدخل في حكم الإزار القميص الذي طال ذيله إلى ما هو أسفل من الكعبين، وقال سيدنا علي – رضي الله عنه– في أكمام أطول من الذراع: "لا فضل للكعبين على اليدين"[3].

وفي الباب أُثِرَ عن الخلفاء الراشدين والصحابة أنهم أَمَرُوا بقطع الأكمام الطويلة الخارجة عن حد البدن، وسخطوا على أصحابها.

فروي عن سيدنا أبي بكر الصديق – رضي الله عنه– ما يلي: "عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: لبستُ مرة درعا لي، فجعلت أنظر إليه وأُعجَب به، فقال أبوبكر: ما تنظرين، إن الله ليس بناظر إليك، قلت: ومم ذلك؟ قال: أما علمتِ أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا، سخطه ربه حتى يفارق تلك الزينة، قالت: ففزعت، فتصدقت به، فقال أبوبكر: عسى ذلك أن يكفر عنك"[4].

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه** رقم ٣٦٦٥؛ والإمام مسلم في **صحيحه** رقم ٢٠٨٥، واللفظ لصحيح البخاري.

(٢) أخرجه أبوداؤد في **سننه**، رقم ٤٠٩٣.

(٣) لم أجده.

(٤) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٨٣٢.

ونبه الصديق في هذا الأثر على منع النفس عن العجب، وفيه درس عظيم، وهو أن يكون الرجل سيء الظن بنفسه، ويعتبره ظلومًا جهولاً، وهذه هي معرفة الذات والنفس، وهي مطلوبة شرعاً.

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم-: في لباس يلبسه الإنسان رِياء: "من لبس ثوباً يباهي به ليراه الناس لم ينظر الله إليه؛ حتى ينزعه"(١).

فلا يجوز في اللباس أن يلبسه الإنسان إعجاباً بنفسه –كما ظهر في الحديث الأول– ولا أن يلبسه رياءً يباهي به الناسَ– كما ظهر في الحديث الثاني– فثبت أن اللباس لا يحمل غير معنى الستر وحفظ البدن، وإن كان فيه شيء من الزينة والجمال فهو خالص لوجه الله، وهو الإخلاص، فيجوز أن يكون منشأ اللباس المحمود هو الإخلاص لا الرياء.

وهناك قصة أخرى حدثت لسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه تبين كيف يجب أن يكون لباس المسلم: " عن ابن عمر قال: لبس عمر قميصا جديدا، ثم دعاني بشفرة، ثم قال: مُدَّ يا بني كُمَّ قميصي، فالزق يدك بأطراف أصابعي، ثم اقطع ما فضل عنها، فقطعت منها الكمين من الجانبين جميعا، فصار فم الكم بعضه فوق بعض، فقلت: يا أبت! لو سويت بالقميص! فقال: دعه يا بني! هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل "(٢).

فاهتمام أمير المؤمنين بقطع طول الأكمام بشكل فوري وعدم عنايته بتسوية الكمين – وهو سبب الزينة والجمال– يوضح أن الإسلام يطلب السذاجة وعدم

(١) المرجع السابق، رقم ٤١٢٠٣.
(٢) المرجع السابق، رقم ٤١٨٩٢.

التكلف في اللباس وغيره، ويرفض أن يتورط المسلم في الموضات الحديثة للملابس، يشتغل بها هو وذووه؛ بل من حسن الإسلام وكمال الأخلاق أن لا يبالي بهذه المظاهر الجوفاء، التي لا طائل تحتها (اللهم إلا إذا كان لها عامل شرعي).

وقد بينه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أحد أحاديثه: إن الله يحب المؤمن المبتذل الذي لا يبالي ما لبس"[1].

وقد قطع هذا الحديث شأو التكلف والجمال الزائف، والمعنى أن اللباس خادم؛ فلا تجعلوه مخدومًا مطاعاً، ولا تعمقوا في التجميل والتزيين، فلا تتكلفوا فيه تكلفا بلغ حد الغلو والإفراط، ولا تكلفوا في السذاجة؛ حتى يحدُثَ تكلف آخر؛ بل يجب التسديد والتقارب، وبما أن التصنع يدعوا إلى البطر، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "لا ينظر الله يوم القيامة من يجر ثوبه خيلاء"[2].

ونفي البطر يشف عن الرضا بالتواضع والسذاجة، ثم لباس الكبر والبطر يدعو الإنسان إلى المبالغة في شراء الملابس الغالية، وكفى بقول الرسول –عليه السلام– السابق ذكره،– وهو "إن الله يحب المؤمن المبتذل الذي لا يبالي ما لبس"– دليلاً على حب السذاجة وعدم التكلف ورخاصة السعر، فإنه ذكر – مع عدم التكلف في اللباس –الابتذال، وفيه إشارة إلى اختيار ملابس، هي غاية في قلة الحيثية ورخاصة الثمن.

إنَّ كل ما ذكر سابقاً يتصل بالإفراط في الكمية، وقد تناول الشرع الإسلامي

(١) المرجع السابق، رقم ٥٦٢٠.

(٢) رواه الشيخان، وتقدم تخريجه.

الإفراط في الكيفية أيضاً، سواء كان في رقة الثياب أو غلظته، في النعومة كان أو خشونتة، في الجمال كان أو في السذاجة، في الاتزان كان أو في الانكسار، في راحة اللباس كان أو في المضرة، وفرض على هذا الكل الحظر إذا جاوز حده، فإن الإفراط في الكيفية والنوع ينشأ من حب الظهور والسمعة في الدين والدنيا، كالإفراط في الكمية.

وحب الظهور والجري وراء السمعة الكاذبة عائق كبير في إصلاح الحال والأخلاق، يحرم الإنسانَ الارتقاءَ في مدارج الروحانية والكمال، ويجعل النفوسَ الإنسانية تُوْغِلُ في الأخلاق الفاسدة والشهوات النفسانية، ويفوِّتُ عليها التمتع باللذات الروحانية، فكره الشرع الإسلامي كل كيفية في الملابس، تذهب بالإنسان مذهب الفساد والدمار. ففي الحديث "نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- عن الشهرتين: دقة الثياب وغلظها، ولينها وخشونتها، وطولها وقصرها، ولكن سداد فيما بين ذلك واقتصاد "[1].

وفي رواية: "نهى عن لبستين: المشهور في حسنها وفي قبحها"[2].

وأفادت كراهيةُ الشهرة والسمعة في الملابس أنه يجب أن تسود الملابسَ ملامحُ الخمول وعدم الامتياز والتفاضل؛ حتى لا تكون سبباً للتُّهم ومثاراً للشكوك، فيجْمُل بالإنسان أن يرتدي لباساً يبدو كأنه واحد من الناس، لا يتميز ولا يشمخ بأنفه، نعم! إن ارتداء الملابس المفرطة في الجمال أو السذاجة – مع إكمال التربية

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١١٧٢.

(٢) المرجع السابق.

النفسية – إذا مارسه أحد من خواص الأمة لمصلحة شرعية أو علاج أو غلبة الحال يُحمل على الانفراد والاستثناء من النصوص الصريحة في الباب، ولا تغير هذه الأعمال حكما شرعياً.

فقد روي عن أهل الله الصادقين أنهم تجمَّلوا بملابس فاخرة تحديثاً بالنعمة وشكراً لله عز وجل، أو آثر بعضُ العلماء الزهاد لبس الثياب الخشنة حتى المسوح؛ لما كان فيهم من قوة الصبر والتغلب على الشدائد، فهي أحوال فردية لا تؤثر في القانون الشرعي العام، ولا تصطدم مع القانون؛ فإن النبي – عليه السلام– قد لبس الثياب الفاخرة مع غايته في الزهد في الدنيا؛ ولكن لم يكن هذا عادة له؛ بل خضوعاً لمصالح شرعية مؤقتة، كبيان الجواز أو تطييب خاطر المحب المهدي له ذلك أو سرور أصحابه، أو جواباً عن سؤال بعض أصحابه، فقد ورد في حديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس "[1]، ومرة قال: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[2].

فهذه فروع خاصة خاضعة للأحوال والأسئلة الخاصة، أما السنة العامة فهي ما ذكر في الحديث السابق، فتجب الدعوة إلى السنة الدائمة العامة؛ ولكن لا يجوز الإنكار على من اختار السنة الخاصة في ظروف خاصة، أجل: إن تحديد المصالح التي

(١) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٩١.

(٢) أخرجه الترمذي في **سننه**، رقم ٢٨١٩.

لا يضر فيها حسن الملابس وفظاعتها لا يُوْكَل إلى كل من هب ودب؛ بل هو عمل الذوق السليم، ولا يعتبر الذوق إلا لمن خلقه في نفسه من خلال التمسك بالشريعة وحفظ الدين، وتزكية النفس وتقويم الأخلاق، سواء كانوا علماء حقانيين أو زهادا ربانيين أو الصلحاء المتمتعين بصحبة العلماء، أما الجهلاء فهم ليسوا رجال هذا الميدان، فعليهم أن يتوجهوا أولاً إلى إصلاح الذوق، ويسلكوا سبيل الاتباع لا سبيل الاجتهاد والادعاء، فإنهم بدون ذلك لا يصلح لهم قول ولا عمل، ولا يستقيم لهم ذوق سليم.

فتجلى بما سبق أن الإفراط في اللباس كماً وكيفاً سبب الفساد الخُلُقي، ولا يتمكن فيه أيُّ حسن ما لم يحل فيه الذكر والفكر محل الغفلة، ورقةُ القلب محل القسوة، والتواضعُ محل الإعجاب بالنفس، والإخلاصُ محل الرياء، والسذاجةُ محل التصنع، والتشكرُ محل التفاخر، والخضوعُ والتذللُ محل الكبر والمخيلة، وإكرامُ الخلق محل الإهانة، والنفعُ محل الضرر، والخمولُ محل الشهرة وما إليها من الأخلاق الفاضلة.

وكما يجُرُّ الإفراطُ في اللباس طولاً وعرضاً كماً وكيفاً الآثار السيئة يأتي التفريط فيه بويلات ومفاسد كثيرة، فإن اللباس إذا قصَّر عن استيعاب البدن، ونقص عن حد الاعتدال انكشف من الجسد ما يجب تغطيته وستره، وكشف هذا القدر من العضو ينتج من المساوئ ما وجب الستر لدرئه.

والتفريط في اللباس يمكن أن يتمثل في أربع صور تالية:

الصورة الأولى: أن يبلغ التفريط منتهاه؛ حتى لا يبقى بعده مساغ للتفريط، وهو التعري الكامل عن الثياب، سواء كان بعاطفة دينية –كما يفعل الهندوس، فهم

يتعرون عن اللباس كامل التعري إشعاراً بالصبر والقناعة وتقليداً لأبائهم الضالين- أوتماشياً مع موضة حضارية مكذوبة، كما يفعل سفهاء الغرب باعتبار الحياة الحيوانية العارية أفضل من الحياة الإنسانية الفائقة.

الصورة الثانية: أن ينقص من اللباس ما لا يحيط بالأعضاء الواجبة الستر، كالملابس الداخلية الرجالية التي لا تستر الركبة، وكالملابس النسائية الحديثة الغربية الطراز، التي لا تستر الصدر والذراع.

الصورة الثالثة: أن يستر اللباس كل عضو يجب ستره، فلا نقص في القدر ولا في الهيئة؛ وإنما يكون اللباس لاصقاً يشف لما تحته، فهو -مع الستر والإحاطة- يصف تقاطيع الجسد؛ كإزار وسراويل رقيقة تصف الجسد هزاله وسمنه، أو ملابس نسائية لاصقة -كالعباية والقميص- تظهر ما تحت الملابس، أو جوارب نسائية غربية تصف الساق كل الوصف.

الصورة الرابعة: أن يتحقق التفريط في صفة اللباس، حيث اتسم اللباس برقة شديدة تشف للبدن، وتفوِّت غرض الستر، فهناك لباس لاعري فيه، ولا نقص في القدر؛ حتى ينكشف الأعضاء، ولا لصوقَ فيظهر الجسد، ولكن كونه شديدَ الرقة يصف البدن ومفاتنه وتقاطيعه كـ"دهوتي" (من ملابس الرجال في الهندوس الوثنيين) و"ساري" (من ملابس النساء في الهند) أو ملابس النوم لدى الغربيات، فهي ملابس طويلة القامة، شديدة الرقة، تستعملها النساء وقت النوم، فهي لا تختص بالأزواج؛ بل بوقت النوم؛ وقد يسارق الأجانب النظر إليهن.

ومحصول الكلام أن التفريط في الملابس بصوره الأربع (ترك اللباس، وتقليل

اللباس، وتقليل قدر اللباس – وهي تتعلق بالكم- وتقليل ستر اللباس، والأخيرة تتصل بالكيفية) إن كان ناشئا عن حب الظهور والإعجاب بالنفس، فهو سبب العجب والرياء، وهما أصل جميع المفاسد الخلقية التي سبق ذكرها في باب الإفراط في اللباس.

وإن كان التفريط الداعي إلى كشف العورة، ناشئاً عن عاطفة إمالة الغير أو الميلان نحو الغير فهي عاطفة الشهوة والبهيمية، التي من شأنها أن تغسل كل معاني العفة والحياء والنزاهة والغيرة، وتغرس أضدادها في القلوب كالخلاعة والمجون والفحشاء والمنكر، وإن كان التفريط يهدف إلى منفعة جسمانية فلا يُعْتبر بها أمام هذا السيل من المفاسد والمضار الخلقية والروحانية، فإنه لا ترجيح لوسيلة على الغاية، ولا للفانية على الباقية.

وإن كان منشأ التفريط هو الجهل فهو سوء الفهم، وخفة العقل، وإن كان ناشئا عن معرفة بالمفاسد فهو سفه وغي، وإن كان العامل هو جلب منفعة روحانية – كما يزعمها القساوسة الهنود- فمصدر المنافع الروحانية هي الشريعة الإلهية لا غير.

ولم تدعُ شريعة إلهية إلى العري والتجرد بصفته طريقاً إلى رضوان الله، وإن اختاره أحد تقليداً لديانة باطلة، فما هو إلا تقليد أعمى للآباء الضالين، ولم يصدر إلا عن الجهل وخداع النفس، وإن كان سبب التفريط هو ترك الديانة رأساً فهي لادينية، وسوء الاعتقاد والابتداع واتباع الهوى وحظوظ النفس.

وإذا ثبت ما يترتب على التفريط في اللباس بصوره الأربع من آثار سيئة وأخلاق رذيلة تتمثل في العواطف الشهوانية والنزعات الشيطانية والمكر والانخداع، والجهل والسفه والتمرد والطغيان واتباع الهوى، فلم يكن الدين الإسلامي الحنيف ليرضى به، ويستحسن أن يشتري الإنسان الضلالات والأخلاق الفاسدة بالإيمان ومكارم الأخلاق ويخسر دنياه وعقباه.

فحرَّم الإسلام كل هذه الصور الأربع.

أما الصورة الأولى:– وهي العري الكامل والتجرد التام عن الملابس– فمنع عن العبادة عرياناً، إن الكفار والمشركين في العهد الجاهلي كانوا يطوفون بالكعبة عراة، ويتعبدون به، فجاء الشرع الإسلامي ليقول: "أن لا يطوف أحد بالبيت عرياناً"[1].

ثم فرض ستر العورة وحرّم كشفها في حال الصلاة، فجاء في القرآن: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [سورة الأعراف: ٣١]، والمراد بالزينة اللباس، فهو مجلبة للزينة، والمراد بالمسجد الصلاة، فأطلق الحال في كلمة الزينة، وأريد بها المحل، وفي المسجد أطلق المحل وأريد الحال على سبيل المجاز المرسل، وهو شائع في كلام الفصحاء.

ومعنى الآية: تجملوا باللباس وقت كل صلاة، ولا تصلوا عراة، ثم نهى عن التجرد في المواضع التي يتوقع فيها كشف العورة، كالحمام، فمنع النبي – عليه السلام– عن دخول الحمام عرياناً، بل نهي عن التجرد مطلقاً، فقال عند ما رأى المسور بن مخرمة[2] في إزار خفيف: " ارجع إلى ثوبك فخذه، ولا تمشوا عراة "[3].

(١) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ– ١٩٩٠م)، رقم ٧٣٥٤.

(٢) هو الصحابي الجليل المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب القرشي الزهري، أبو عبد الرحمن: من فضلاء الصحابة وفقهائهم. أدرك النبي صلّى الله عليه وسلم وهو صغير وسمع منه. وكان مع خاله عبد الرحمن بن عوف، ليالي الشورى، وحفظ عنه أشياء. وروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أكابر الصحابة. وشهد فتح إفريقية مع عبد الله بن سعد. وهو الّذي حرض عثمان على غزوها، ثم كان مع ابن الزبير، فأصابه حجر من حجارة المنجنيق في الحصار بمكة فقتل، ولد عام الاثنين من الهجرة، وتوفي عام ٦٤هـ بمكة؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٧، ٢٢٤–٢٢٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٣٤١.

وإن التجرد يؤدي إلى خيانة النظر، وهي مضرة في الجسد والروح معاً، فجاء في الحديث ما ينهى عن النظر إلى السوءة، ويستأصل خائنة الأعين، و لم يكتف الشرع بتحريم نظر الرجال إلى عورة النساء، وبالعكس فإنهما صنفان أجنبيان؛ بل شاءت حكمة الله تعالى أن تحرم نظر الرجال إلى عورة الرجال، ونظر المرأة إلى عورة المرأة، ولعن من ينظر إلى العورة، فقال النبي – عليه السلام–: " لَعَنَ اللهُ النَّاظِرَ والْمَنْظُورَ إِلَيْهِ"[1].

أما الصورة الثانية:– وهي التفريط بتقليل اللباس– فقضى الشرع بأن للرجل أن يقلل من اللباس فيما وراء ما بين السرة والركبة، ولا يجوز التقليل في ما بين السرة والركبة، وللمرأة أن تقلل فيما تحت الكعبين وما فوق العنق، ولا يجوز التقليل في ما سواه، وبذلك قامت حدود العورة للرجل والمرأة، ومُنع كلا الصنفين عن مجاوزة هذه الحدود المقررة.

أما الصورة الثالثة:– وهي التفريط بأن يكون اللباس لصيقًا يصف الأعضاء– فقال في شأنها أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق – رضي الله عنه–، وقد روى قوم في المنتقى شرح الموطأ: بلغني أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – نهى النساء أن يلبسن القباطي، قال: وإن كانت لا تشف؛ فإنها تصف"[2].

وإفراد النساء بالذكر جاء لأن المرأة كلها عورة واجبة الستر، ومن ثم بذلت الشريعة كلَّ العناية في حجابها وسترها، وإن كان التوجيه "العمري" صادراً عن مبدأ

(١) أخرجه البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م)، رقم ٧٣٩٩.

(٢) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي، **المنتقى شرح الموطإ**، (مصر: مطبعة السعادة، ط١، ١٣٣٢هـ)، ج٧، ص٢٢٤.

الستر فيوجه هذا الحكم إلى ما يجب ستره من أعضاء الرجال أيضًا.

أما الصورة الرابعة:- وهو التفريط بكون اللباس رقيقا شفاً- فجاء في الحديث النبوي الشريف ما يبين خطورة هذا الأمر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أهل النار لا أراهما بعد- نساءٌ كاسياتٌ عاريات مائلاتٌ مميلاتٌ، على رءوسهن مثل أسنمة البخت المائلة، لا يرين الجنة ولا يجدن ريحها، ورجال معهم أسواط كأذناب البقر يضربون بها الناس"(١).

وفي حديث لدى السنن الكبرى للبيهقي عن أسامة بن زيد(٢) قال: "كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطية كثيفة أهداها له دحية الكلبي فكسوتها امرأتي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لك لا تلبس القبطية؟ " قلت: كسوتها امرأتي، فقال: " مرها فلتجعل تحتها غلالة فإني أخاف أن تصف عظامها"(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم ٥٦٥٠.

(٢) هو الصحابي الجليل: أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وابن حبه، ولد بمكة، ونشأ على الإسلام (لأن أباه كان من أول الناس إسلاما) وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يحبه حبا جما، وينظر إليه نظره إلى سبطيه الحسن والحسين. وهاجر مع النبي صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأمّره رسول الله على جيش عظيم، قبل أن يبلغ العشرين من عمره، فنفذه أبوبكر، وكان مظفرا موفقا. ولما توفي رسول الله رحل أسامة إلى وادي القرى فسكنه، وكان أسامة ممن اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان، ثم انتقل إلى دمشق في أيام معاوية، فسكن المزة، وعاد بعد إلى المدينة، فأقام إلى أن مات بالجرف، في آخر خلافة معاوية عام ٥٠ه؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص٢٩١؛ وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج١ ، ص ٣١.

(٣) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا(بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٣٢٤هـ-٢٠٠٣م)، رقم٣٢٦٢.

وإلقاء الغلالة تحت الدثار لا يعني بالضرورة أن يكون الدثار –وهو لباس علوي– غاية في الرقة والشفوف؛ بل يكفى أن يكون شفوفه لما تحته محتملاً، فإن منحَ سيدنا أسامة تلك الحلة لزوجته وعدمَ تبادر ذهنه إلى إلقاء الشعار –وهي الغلالة– تحتها يدل على أن الحلة ما كانت شديدة الرقة، يقينية الوصف، فإنه يستبعد عن صحابي جليل – مثل أسامة– أن يرضى بهذا، ثم قول النبي –عليه السلام–: "أخشى أن تصف عظامها" يؤيد أن الوصف محتمل لا يقيني؛ وإلا لما كان ليقول: "أخشى".

وإذا قال النبي – عليه السلام– هذا القول مع احتمال الكشف، فما ظنك بثوب يصف الأعضاء بشكل يقيني؟ فإن إلقاء الغلالة يكون فيه آكد، وارتداء المسلم لأمثاله أقبح وأشنع.

أما تخصيص الحكم بالمرأة فهو لسبب ذكرته آنفاً، فالإفراط والتفريط في اللباس آفة من آفات راحة المنظر وراحة الملمس وراحة المدرك، إما أن يكون ناشئاً عن الترفه الزائد أو صادراً عن الكبر والمخيلة، ويجمع كلا النوعين الإسراف الذي يعني مجاوزة حد الاعتدال.

فجميع المفاسد اللباسية تعود إلى الإسراف، وجميع المحاسن في اللباس راجعة إلى كونه قائماً على أساس الاعتدال والاحتياج، فالخطوة الأولى لتحسين اللباس أن لا يكون فيها إسراف، وقد بين هذه الحقيقة الجامعة سيد الأولين والآخرين محمد المصطفى – صلى الله عليه وسلم– بكلمة جامعة وحيزة فقال: "البسوا ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة"[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت)، رقم ٣٦٠٥.

فالإسراف يشمل كل أنواع التنعم والترف وكل مصائب الفخر والبذخ والكبر، وبما أن آفة الكبر أشد من آفة التنعم، فقد ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم- المخيلة خصوصاً لتقرير حاله في الأذهان؛ والمقصود الحقيقي هو بيان آفة الإسراف، التي تشمل كل المفاسد.

ثم الإسراف يعم كل نوع من أنواع الإسراف، يحدث في ظاهر اللباس وباطنه، سواء كان في مادته أو صورته، في خشونته أو في لينه، في ألوانه أو في رسمه، في الوضع أو في الصنعة، في السعر أو في القدر، وما إليها من الصور، فكلها داخلة في عموم الإسراف.

ومن المعلوم أن الإسراف داء عظيم، فهو - من جانب - يدعو إلى الإغراق في الترف والتنعم، فتظهر جميع الأخلاق البهيمية المتمثلة في الجبن والكسل والبطالة والرضى بالدون، وتفسد حياة الإنسان كلياً، ومن جانب آخر يثير في الإنسان الكبر والمخيلة، فتهيج الأخلاق الجاهلية (الأخلاق المترتبة على حب الجاه والمنصب) فتضيع الحياة الاجتماعية؛ فإن هذه الأخلاق الشيطانية هي رأس كل داء وفساد.

فالنوع الأول من اللباس يخل بالمصالح الذاتية والنظام الروحي كما أن النوع الثاني يعرقل مسير المصالح القومية والنظام الحضاري، فتفسد "الذات" و"ذات البين" معاً.

والآن قد اتضح بكل جلاء أن صلاح الذات وذات البين –في نطاق الملابس- يتوقف على لباس، تخضع صورته ومادته ووضعه لأخلاق شرعية متوازنة؛ حتى لا تصل إلى القلب آثار سيئة لراحة المنظر وراحة الملمس وراحة المدرك، وتنمو

في اللابس صفات حميدة ،كالشجاعة والصبر والتحمل – وهي صفات تتعلق بأخلاق الباه – والتواضع واللين وكسر الذات –وهي مما يتعلق بأخلاق الجاه–، فتدفعه صفات الشجاعة والصبر والشهامة إلى النشاط والعمل وتحسين الحياة الشخصية، وتشجِّعه صفات التواضع والكرم والليونة على العبودية لله وخدمة الخلق وإكرام الناس، فتصير الحياة الاجتماعية جنةً فيحاءَ، ولا يخفى أن صلاح الحياة الشخصية والاجتماعية وفسادها يؤثِّران في صلاح الحياة الآخرة وفسادها؛ مما يؤكِّد أن اللباس تمتد آثاره إلى الحياة الآخرة، وليس هو شيئاً مستهاناً ظاهرياً لا يُعبأ به.

فهذا شرح ذلك الحديث الجامع، الذي شملت كلمته الواحدة: "الإسراف" كل أنواع المفاسد المتصلة باللباس.

وبأي لسان أشكر ربي الجليل العظيم الوهاب، الذي شرح بلطفه الخفي صدر هذا العبد العاجز لهذا الموضوع، وألقى في رُوعي معانيَ مرتبة، شرحتُ بها حديث "من تشبه بقوم" الخ شرحاً وافياً، ومكنني من البيان والإيضاح، فلله الحمد حمداً لا منتهى له على ما هداني إليه، وما كنا لنهتديَ لولا أن هدانا الله.

وقد عملتَ في السطور السابقة على بيان ما قد يحويه اللباس من أخلاق صالحة وطالحة، وملكة في بناء الفكر وتشكيل الذات، وأن اللباس ليس إلا أثراً بارزاً لما يتسم به الإنسان اللابس من خلق وطبيعة ونزعة نفسية، ومظهراً محضاً لميوله واتجاهاته.

وهنا يجول في خلدي شيء طريف رائع، وهو أن كل شيء حي له تاثير وتفعيل حسب القدرة ونوعية الحياة، فيستطيع أن يؤثر في ما سواه، وكذلك اللباس

ذو صورة وحقيقة؛ فإنه -في بنيته الأساسية- يجذب آثار الأخلاق الكامنة أقصى ما يكون من جذب، ثم يستطيع أن يؤثر في غيره، والآثار التي استفادها من الأخلاق يستطيع أن يردها إلى الأخلاق، ويركزها في الطبيعة، فتترسخ تلك الأخلاق، وتستحكم جذورُها في الطباع،كالمرآة التي تجذب ضوء الشمس كل الجذب؛ حتى لكأنَّ وجهها يحكي الشمس، ثم يضيء كل مكانٍ مظلمٍ، وُجهتْ إليه، وتعطيه ذلك الضوء الشمسي، فيمكن أن نقول: إن ضوء المرآة ليس إلا صَدىً وانعكاساً لضوء الشمس؛ إلا أن هذا الضوء بلغ بوساطة المرآة مالم يبلغه بذاته.

أو كجذور الأشجار التي تُخرِج الساق والأغصان والأثمار، ثم تستفيد الجذورُ -هي الأخرى- القوة من هذه الفروع، وتتجذر في الأرض بشكل أقوى، فقوة الجذور و رسوخها واستحكامها مأخوذة من الساق والأغصان.

أو كالعلم الذي تُظهر قوته المعنوية العملَ في الجوارح أولاً، ثم التواصل والاستمرار العملي يزيد العلم رسوخاً وثباتاً، وليس هذا الرسوخ إلا أثراً من آثار العلم، تمكن في العلم بواسطة العمل المتواصل.

أو كالروح الحيوانية التي تغذي الأجسام وتنميها، وتعطيها زيادةً في النمو كل آن، ثم تقوَى الروح وتنتفخ بدورها بقوة الأعضاء، فكأن أعمال الروح التنموية لا تخدم إلا الروح بواسطة الأعضاء.

أو كاللباس نفسه الذي يجذب كل آثار البدن، كالعرق والقذارة وما إليها، مما استفادها البدن من المواد الغذائية المادية، فتنبعث من اللباس رائحة كرائحة البدن، ويتوسخ اللباس كتوسخ البدن، ويتكدر لونه كلونه، ثم ينقل اللباس كل هذه الآثار

إلى البدن، فيزداد قذارة وكدورة، وهذه العودة السيئة للآثار تسبب خطر تفاقم الأمراض والأدواء المختلفة.

فكما أن اللباس يستفيد من ظاهر البدن آثاره، ثم يعيدها إلى البدن، فيزداد البدن تأثيراً، تستفيدُ حقيقةُ اللباس من باطن البدن آثارَه وأخلاقه الطيبة أو السيئة؛ حتى ترتسم في اللباس مظاهر الأخلاق الحسنة، كالزهد والقناعة والسذاجة والتقشف، أو مظاهر الأخلاق السيئة كالتصنع والرياء والشح والفحشاء وما إليها؛ ثم يعيد اللباس كُلَّ هذه الآثار إلى مصدرها الحقيقي، وهي الأخلاق، فتترسخ هذه الآثار في الأخلاق، وتتجذر في أصولها، وتكُوْنُ الأخلاق أكثر حُسناً أو قبحاً، وأزيد نوراً أو ظلمة.

وقد كشف النبي – صلى الله عليه وسلم – عن بعض هذه الآثار وتنَقُّلِها العجيب خلال اللباس في بعض الأحاديث: ومنه أن العمامة تزيد الإنسان وقاراً، فقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "العمائم تيجان العرب"[(١)]، وفي حديث قال – عليه الصلاة والسلام – "اعتمُّوا تزدادوا حلماً"[(٢)].

ومنه أن الصوف له تاثير في حلاوة الإيمان، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليلبس الصوف تذللا لربه عز وجل"[(٣)].

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١١٣٢.

(٢) المرجع السابق، رقم ٤١١٣٥.

(٣) المرجع السابق، رقم ٤١١١٩.

ومنه أن الإزار فوق الكعبين يزيد الإنسان إيماناً وتقوى، ويزيد اللباس صفاء ونظافة، فقال رسول الله – عليه السلام-: "فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك"(١).

ومنه أن اللباس الصفيق الخشن يمحو الكبر ويدعو التواضع، فقال رسول الله –عليه الصلاة والسلام- " يا أبا ذر! البس الخشن الضيق؛ حتى لا يجد العز والفخر فيك مساغا"(٢).

ويستفاد مما سبق أن اللباس له تأثر وتاثير، فهو يتأثر أولا بالأخلاق، ثم يؤثر هو في الأخلاق.

والفرق بين هذا وذاك أن الأخلاق توجِد آثاراً تتمثل في اللباس ومظاهره، ومعاودة ذلك اللباس تعيد الآثار إلى الأخلاق، فتقوى تلك الآثار في القلوب، وتشتد في الأخلاق، والحقيقة أن الإيجاد والإعادة كلاهما عمل الأخلاق، يؤثر ظاهرها في القالب، وباطنها في القلب.

وهنا يدور في العقل شيء آخر رائع:

---

(١) الصحيح أنه موقوف ، واضطربت روايات الوقف ، ففي مسند عبد بن حميد صح وقفه على على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؛ وانظر: عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، **المنتخب من مسند عبد بن حميد** (القاهرة: مكتبة السنة، ط١، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ) رقم ٩٦؛ وفي **صحيح ابن حبان، والسنن الكبرى** للبيهقي ثبت وقفه على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وانظر: **صحيح ابن حبان** (بيروت: مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ج١، ص٣٥٢؛ **والسنن الكبرى** للبيهقي، رقم ٢٠٢٢٧.

(٢) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٥٦٢٣.

وهو أن إيجاد التاثير -الذي هو من عمل الأخلاق- اضطراري، وإعادة الآثار- التي هي من أعمال اللباس- اختيارية؛ فإن الأخلاق ومقتضياتها ليست مما أنشأناه، وليس لنا قدرة على إزالته، فتكون آثارها -هي الأخرى- خارجة عن نطاق قدرتنا.

أما اللباس فنحن الذين نعمل في إيجاد صفاته وهيئاته وتشكيلاته، ونقدر على تغييره واستعماله ورفضه، فبوسعنا كذلك ما يتركه اللباس من آثار وثمار.

فنحن السبب وراء آثاره السيئة القبيحة، كما أنه إلينا ترجع انعكاساته الطيبة.

كما أن الإنفاق ينشأ عن صفة متجذرة في القلب، لا خيرة لنا فيها، كالجود والكرم والسخاء؛ ولكن عملية الإنفاق وترسيخ الكرم في الطبيعة من خلال الإنفاق والإعطاء هي عملية اختيارية، أو كعاطفة العفة والتستر مصدرها صفة الحياء الطبيعية – التي ليست بوسعنا- ؛ ولكن الالتزام بالعفة ومقتضياتها مما يقوِّي صفة الحياء وينمِّيها عملية اختيارية، فكذلك الأخلاق المؤثرة في اللباس خارجة عن القدرة؛ ولكن ارتداء اللباس واختيار هيئاته وتشكيلاته وسذاجته وزهوه مما يقوى الأخلاقَ، أعمالٌ نقدر عليها.

وبناء على هذا يمكن القول بأن ما تتركه الأخلاق في اللباس من آثار لَـهِيَ آثارٌ اضطرارية، وما يعود إلى الأخلاق من آثار اللباس فهي آثار اختيارية.



المبحث الثاني: اللباس وموضاته

الكلام السابق أفاد أن اللباس وما ينعكس منه من آثار حسنة وقبيحة ينطوي على جانبين: الجانب الطبيعي والجانب الكسبي.

الجانب الأول يوجِد الآثارَ خيراً أو شراً، والجانب الثاني يقوِّي هذه الآثار وينميها.

وإلى هذه الآثار أشار النبي –عليه السلام– في دعائه الذي كان يدعو به عند ما استجدَّ ثوبًا أو لباسًا: "اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسالك من خيره، وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له"[1].

ورجع الضمير في "خيره" إلى اللباس، فأثبت خيرية اللباس، وهي خيرية فطرية أخلاقية موهوبة من الله، وقوله "خير ما صنع له" نسب الخير إلى عمل اللباس وصنعه، وهذا الخير مكتسب.

وفي قوله: "من شره وشر ما صنع له" إشارة كذلك إلى النوعين من الشر، (الطبيعي والكسبي).

وإذا ثبت أن تأثير الأخلاق في اللباس اضطراري، وتاثير اللباس فيها اختياري انحلَّت بذلك مسألة معقدة، وهي أنَّا مطالَبُون أولاً باستعمال اللباس الطيب الأثر، الذي هو في يدنا وقدرتنا، ولا نطالَبُ بأن نغير أخلاقنا الفطرية ونهذبها، ونسير من الأصول إلى الفروع؛ فهو ليس من قدرة النشأ والمبتدئين في فن التربية وعامة

(١) أخرجه ابو داؤد في سننه، رقم ٤٥٢٩.

الناس، فإنه لو كان هذا بوسعهم لذهبت مراحل التدريج التربوي والمحاولات المتصلة الحلقات للمربين ومساعي الطلبة لذهبت كل هذه سُدى وبلا جدوى، وكان كل طالب قادرًا على تغيير سريع لأخلاقه، وصار مربياً في نفس الساعة، وهذا خلاف سنة الله رب العالمين.

ومن أجل ذلك طُلِبنا إلى إصلاح اللباس وهيئاته وأوضاعه وأطرزته –وهي أمور اختيارية– ؛حتى يمكن لنا من خلال ذلك أن نصلح أخلاقنا، ويصل بنا تهذيب اللباس إلى تزكية الأخلاق؛ فإن الآثار كما تنشأ من الأسباب في غالب الأحوال قد تنشأ الأسباب أيضاً من الآثار، والخبير المجرب المطلع على صلة الأسباب بالآثار يقدر على الوصول إلى الآثار عن طريق الأسباب والعلل؛ ولكن المبتدئ الجاهل بالارتباط بين الأسباب والآثار يحسن به أن يتبع الآثار ليصل إلى الأسباب، ويطلع على ربط الأسباب بالآثار.

ومثاله أن سبب الأكل هي الرغبة في الطعام؛ ولكن الرضيع الذي لا يرغب في الأغذية الإنسانية لا يمكن له أن يصل إلى المأكول عن طريق الرغبة، فيُطعَم المأكول بشكل تدريجي؛ حتى تحدث فيه رغبة في الطعام، تُعَوِّدُه على تناول الأغذية، وتُسَهِّلُ فطامه عن الرضاع.

أو كمدمن المخدرات كالتبغ والتدخين وغيرها إذا سئل عن أيهما أسبق: استعمال المخدرات أو الرغبة في الاستعمال، فالظاهر أن الاستعمال أسبق؛ فإن الإنسان يستعمل هذه الأشياء ويجهل بآثارها، ثم تُصادف لذتُها هوًى في قلبه، فتنشأ من هنا رغبة ذاتية في الاستعمال، والاستعمال إذا صاحبته رغبة ذاتية لا يحتاج إلى عامل خارجي.

وكذلك تماماً حال اللباس؛ فإن إحداث الرغبة في لباس الصلحاء، الناشئة عن الدواعي القلبية لا العوامل الخارجية يحتاج إلى نفس الأصول؛ وهو أن يلبس الإنسان- الذي يجهل من بعدُ آثار الملابس الصالحة، ولا يعرف مَنَاشِيَءَ الأخلاق الحسنة -اللباس المقبول باستمرار؛ حتى تحدث فيه رغبة طبيعية وخُلُقٌ مستقيم في استعمال ذلك اللباس، فيعود ذلك اللباس الذي اُستعمل أولا على كره، بُغْيَة اللابس ورغبته الذاتية.

المطلب الأول: تقويم الأعمال طريق إلى تزكية الأخلاق

وانطلاقًا من هذا المبدأ قرَّر جميع المربين والحكماء وجوب تقويم الأعمال كخطوة نحو تهذيب الأخلاق؛ بل قضت جميع الشرائع السماوية بأن أول ما يلزم في شأن التربية والتزكية هو أن يُرغَمَ المكلَّف على الأعمال الصالحة؛ حتى تترسخ هذه الأعمال في قلبه بممارسة متواصلة، ويمارسها بدافع طبعه لا بالتكلف والتصنع، وبعد هذه المعالجة المستمرة يصبح أمرًا طبيعياً عادياً، يشق على الإنسان خلافه.

ومن هنا دعا الإسلام إلى التباكي كخطوة لغرس الفضائل وعاطفة الخشية والخوف من الله في النفس؛ حتى يعود البكاء عادة له، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: " فإن لم تبكوا فتباكوا "[1]، ودُعي الأطفال أبناء السبع إلى الصلاة لغرس فضيلة الإخلاص والتعبد؛ حتى تسهل عليهم الصلاة بعد الحلم، ففي حديث معروف: " مروا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلَاةِ، إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا"[2].

(١) أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، رقم ١٣٣٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٦٦٨٩.

وأمر المسلم بأداء أعمال الإسلام؛ ولو كانت ضد رغبته وطبيعته لتكون له عادة.

ففي حديث: " أسلم ولو كنت كارهًا "[1].

وفي هذه الأحوال الثلاث تكون الخشية في البكاء، والإخلاص في الصلاة، والرضاء في أداء أعمال الإسلام كارهاً أمرا صورياً لا حقيقياً؛ لكنها تذهب بصاحبها – مع الأيام– إلى الشكل الحقيقي للأعمال.

فإذا كانت أخلاق اللباس كامنة في سويداء القلب أو فاسدة لسوء التربية، فلا سبيل لزرع الأخلاق الحسنة في تلك القلوب شرعا وعقلاً وطبعاً غير الدعوة إلى لبس الملابس الطيبة – التي يرتضي بها صلحاء هذه الأمة، لتنتبه أخلاق نائمة، ويعود هذا اللباس المتكلف – في البداية– عادةً للابس، فيلبسه بدافع قلبي بعد ما كان يلبسه بِلَأْيٍ ومشقة، وعن هذا الطريق تتجذر الأخلاق الحسنة في الطبيعة، وتؤتي ثمارها الحلوة باستمرار.

المطلب الثاني: معيار اللباس المرضي واللباس المكروه

والآن بقيت الحاجة إلى وضع نموذج عملي، تجب محاكاته واتباعه في اللباس، لتحصل فائدة مرجوة، وفي هذا يرشد عقلي الضعيف إلى أن الأخلاق هي المؤثرة في اللباس بدايةً ونهايةً، والأخلاق هي المعيار الصحيح للحسن والقبيح –كما ذُكر سابقا–، فلم يبق من الصعب إذاً التوصل إلى أن المعيار الصحيح والنموذج العملي اللائق هو وضع وأسلوب أمةٍ، هي أحسن الأمم خلقًا؛ بل هي مركز الأخلاق

(١) أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، (بيروت: دارالكتاب، د. ط. د. ت)، رقم ٧١٢٤.

الربانية، وبجهودها عَرَفَتِ الدنيا "مكارمَ الأخلاق"، فكل وضع لباسي اختارته أمة كهذه أو أجازته أو دعت إليه هو الوضع الصحيح والمعيار المناسب في هذا الشأن.

وعلى العكس من ذلك فكل وضع ومنهج اختارته أمة تجهل الأخلاق الحسنة؛ بل تتورط في مستنقع الأخلاق الفاسدة، هو وضع سيء ذو فساد ومضرة، وخبث ونكد، وهو وضع باطل مردود.

والمعلوم لدى الجميع أن الأمة الأولى هي جماعة الأنبياء –عليهم السلام– الذين أرْوَوا بقلوبهم الصافية شجرة الأخلاق الحسنة، واستفاد من ثمارها العالَمُ كله، والأمة الثانية هي جماعة الدجاجلة وأئمة الكفر، الذين جفَّفوا جذور الأخلاق الطيبة، فصدرت عنهم أخلاق نفسانية ومادية، ملأت الدنيا ظلمةً وسواداً.

فالجماعة الأولى (جماعة الأنبياء عليهم السلام) لقيت قبولا ورضوانا عند الله رب العالمين، وحظي كل عمل ووضع وهيئة لهذه الجماعة بقبول عند الله، وصارت نموذجًا حيًّا لأهل العالم كله، فكان بعض أعمالهم فرضاً، وبعضها واجباً، وبعضها مندوباً، وبعضها مباحاً، أما الجماعة الثانية فباءت هي وأعمالها بسخط وغضب من الله، مهما تألَّق ظاهرها، وتأنَّق مظهرها، فمُنع العالم عن اتباعها ومحاكاتها، فمِن أعمالها وممارساتها ما هو كفر وحرام وماهو مكروه بكراهة التحريم وكراهة التنزيه.

وهذا المعيار الصحيح يفيد وجوب موافقة الملابس لأخلاق الأمة الأولى الصالحة لمن أراد تحسين الأخلاق وتزكيتها، أما من يريد الإيغال في الأخلاق النفسانية والشيطانية فله أن يختار ملابس الجماعة الثانية.

وهذا المعيار الخلقي الصحيح يؤدي إلى أساس التشبه في اللباس، فالتشبه

بالأنبياء يرمي إلى إكمال الأخلاق الحسنة، ومنع التشبه بالأشرار يهدف إلى اجتناب الأخلاق السيئة وتزكيتها.

المطلب الثالث: درجات التشبه في الملابس

ومن هنا تنشأ درجتان في التشبه، أولاهما درجة تحصيل الفضائل، وهي حاصلة بالتشبه بالأنبياء، وأخراهما درجة التخلي عن الرذائل التي يوجدها التشبه بالكفار، فالدرجة الأولى تندرج ضمن المأمورات الشرعية، والدرجة الثانية تأتي ضمن المحظورات الشرعية، وإن شئت فقل: إن الدرجة الأولى هي درجة المأذون بها شرعًا، والدرجة الثانية هي درجة المحظورات شرعاً، وكلتا الدرجتين تحملان جهة العزيمة وجهة الرخصة.

فإن الأنبياء -عليهم السلام- يرسمون في جناح المأمورات شيئين: الأول: أسوتهم وأعمالهم، والثاني: المبدأ الشرعي العام.

أما أعمالهم فهي – بسبب كونها مليئة بالعزائم- تحتل مكانة رفيعة ومنزلة سامقة لا يصل إليها كل من هب ودب؛ وإنما هي تختص بالمعدودين من رجال الأمة؛ ولكن المبادئ الشرعية العامة تكون سهلة العمل، يسيرة الاتباع، وذلك لما تشمله من سعة ومرونة وفروع قائمة على الإباحة الأصلية، فالمشقة التي قد تلحق باتباع الأعمال النبوية، تندرئ باتباع المبادئ الشرعية العامة، التي تحمل ألوفاً من المسائل ذات المراتب المختلفة، والتي يتهيأ العمل بها للجميع.

فالدرجة العليا للتشبه بالأنبياء – وهي درجة العزيمة- أن يسعى الإنسان لينطبق لباسه على ما لبسه النبي – صلى الله عليه وسلم- في غالب الأحوال من

ملابس، ويتشبه به تشبها ظاهرًا، والدرجة الدنيا –وهي درجة الرخصة- أن يكتفي الإنسان بلباس أباحه النبي – عليه السلام- أو استحسنه بعض الاستحسان أو صنفه ضمن المباحات الشرعية، فإن لم يكن من المباحات المستعملة فهو من المباحات المطلقة، ويُعد ملابس النبي – عليه السلام- فرداً منها أيضاً.

والملابس التي سعدت باستعمال النبي –عليه السلام- تحمل نسبة الاستعمال إليه –عليه السلام-.

والملابس التي أباحها النبي – عليه السلام- ولم يلبسها تحمل نسبة العلم والحكم إليه، وهذه النسبة هي التشبه تصويراً أو تصوراً، فالتشبه بالنبي – عليه السلام- له درجتان أيضاً، وهما التشبه العيني والتشبه الحكمي.

ومحصول الكلام أن الإنسان المسلم لا يخرج عن الشريعة الإسلامية باستعمال الملابس المباحة، فلا يصح إذاً اعتراض قائل: ليس في دنيا اليوم رجل سعيد ولطيف يتشبه بالنبي في ملابسه، فمن يستعمل الحلة النبوية اليوم؟ ومتى استعمل النبي –عليه السلام- تلك الملابس التي يستعملها الخاصة اليوم؟.

والجواب عن هذا أن النبي – عليه السلام- لم يستعمل هذه الأوضاع اللباسية الخاصة بهذه الهيئة المعروفة، ولم تدخل هي في الملابس التي نهى عنها النبي – عليه السلام- أيضاً، فإن كانت هذه الملابس لا تنتسب إلى الرسول – عليه السلام- استعمالا، فهي تحمل نسبة الإباحة، فهذه الأوضاع كلها مباحة ما لم يجعلها أمة معادية للإسلام شعارها الخاص، أو ما لم تنتسب إلى أمة من الأمم انتساباً خاصاً.

نعم! إن التشبه بملابس النبي – عليه السلام- يُعد الدرجةَ العليا للتشبه

بالأخيار، واستعمال الملابس المباحة هي الدرجة الدنيا للتشبه بالأخيار، وهذا ليس من العزيمة في شيء؛ بل هي رخصة، تنتهي عليه حدود الإباحة والجواز، فالتقيد بحدود الجواز في الملابس يُعدُّ فريضة من الفرائض، أما العمل بالعزيمة في هذا الباب فهو مكرمة وفضيلة.

المطلب الرابع: ملابس خواص الأمة المسلمة ومصالحها الدينية

ولا يناسب هنا سوء الظن بخواص الأمة في تركهم ملابس العزيمة وقناعتهم بملابس الرخصة باعتبار الكسل والهوى وقلة الاهتمام هي منشأ أعمالهم، كلا؛ فإن ذلك ناشئ عن فرارهم عن أن يكونوا مشارا إليهم في الملابس، ويشتهروا بها، وتقوم لهم ميزة تميزهم عن سائر الخلق، ولا تجعلهم كواحد من الناس.

فحماية النفس عن الكبر تدعوهم إلى اختيار ملابس الرخصة، وشفقتهم على الناس تدعوهم إلى أن يكونوا كغيرهم في الأوضاع والملابس؛ حتى لا يستوحشهم عامة الناس، ويتشبهوا بالصلحاء من خلال التشبه بهم، ولو كانت ملابس الأنبياء –عليهم السلام– هي معيار التشبه بالأخيار، لحُرِمَ عامةُ المسلمين الوصول إلى هذه المكانة العالية غير الخاصة، وهذا نوع من الضيق والحرج في الدين، الذي أبطله الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [سورة الحج: ٧٨].

فيفكر خواص الأمة من جهة في تحصيل الدرجات العالية، ومن جهة أخرى يشملهم التفكير الغارق في إرشاد الناس وإصلاحهم، ونظراً إلى شفقة الناس قد يختارون الرخصة مكان العزيمة.

ومن هنا كان الصحابة – رضي الله عنهم– مع رغبتهم الشديدة في التشبه بالنبي – عليه السلام– قد ينزلون إلى مستوى التابعين في ملابسهم؛حتى يسهل للتابعين اتباعهم، فلم يكن الصحابة في ملابسهم سواء؛ بل اختلفت ملابسهم في الأوضاع والهيئات، وكان فيها كل من الحلة والسروال والقميص والعباء والرداء، والقلنسوة والعمامة؛ فإن الله تعالى شأنه جمع في الصحابة طباعًا مختلفة ومؤهلات عديدة، جمعتهم تقواهم وصلاحهم وتدينهم، أما فيما سواها فهم مختلفون.

ففيهم فقهاء وعلماء، وعباد وزهاد، وأعراب ومتحضر ون، فيهم زاهد في الدنيا كأبي ذر الغفاري، وغني طائل الثروةكعبد الرحمن بن عوف[1]، وشديد في اتباع النسة وآثار النبوة كعبد الله بن عمر، وفقيه نابغ كعمر الفاروق.

---

(١) هو الصحابي الجليل: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحرث بن زهرة القرشي، أحد العشرة المبشرين بالجنة،وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد الستة أهل الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وتنازل عن حقه فتولى أمر الشورى حتى بويع عثمان، اسمه في الجاهلية "عبد الكعبة" أو "عبد عمرو"، وسماه رسول الله صلّى الله عليه وسلم عبد الرحمن. ولد بعد الفيل بعشر سنين. وهو من أوائل الصحابة إسلاما، وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم،وجرح يوم أحد ٢١ جراحة. ويعد من أغنياء الصحابة، وكان كثير الإنفاق في سبيل الله، وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا. وكان يحترف التجارة والبيع والشراء، فاجتمعت له ثروة كبيرة. وتصدق يوما بقافلة، فيها سبع مئة راحلة، تحمل الحنطة والدقيق والطعام. ولما حضرته الوفاة أوصى بألف فرس وبخمسين ألف دينار في سبيل الله، قال عنه عمر: سيد من سادات المسلمين، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ ؛ وانظر:الزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص٣٢١، وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج٢ ، ص ٤١٦.

وإذا كان الصحابة جميعا – رضي الله عنهم- سواء في التقوى واتباع السنة، والحق انحصر فيهم فعلى من يريد التشبه بالنبي – عليه السلام- أن يقتدي بالصحابة – رضي الله عنهم- في أوضاعهم المختلفة، فهو يجد هنا بغيةً، ويختار ما يناسبه ويلائم ذوقه، ويتشبه بالصلحاء بكل يسر وسهولة.

وهكذا التابعون الذين جمعوا بين اتباع الصحابة ومراعاة تلاميذهم، فتوسعوا في المباحات، وهكذا في جميع العصور المتأخرة، التي نقص فيها الوازع الديني، وقل النشاط الإسلامي، وكثر الفتور والتكاسل، حرص العلماء الثقات وحكماء الأمة ومصلحوها على اتباع من سبقهم من أهل التقوى والصلاح، كما بالغوا في مراعاة ضعاف الدين والشفقة على عامة المسلمين، واختاروا من المباحات الكثير، الذي من شأنه أن لا ينأى بهم عن حدود التقوى الظاهرة والباطنة، وذلك إبقاءً على جذور الخير والصلاح في كل جماعة وفصيلة، ولا يتورط عامة المسلمين في اتباع الحضارات الوثنية، ويسعدوا بالتشبه بالصلحاء.

وقد راعت الشريعة الإسلامية هذا الترتيب النظري، فإنها كما حثت على اتباع الأسوة السنة القائلة: ﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١**﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. حثَّ الرسولُ الكريم – صلى الله عليه وسلم- على اتباع الصحابة – رضي الله عنه-، فقال: "أصحابي كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم"[١]، وانطلاقًا من هذا اتخذ الصحابة الأسوة النبوية

(١) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، (السعودية: دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٤-١٤١٤هـ)، رقم ١٦٨٤؛ وقال الألباني في " **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**"(الرياض: دار المعارف، ط١، ١٣١٢هـ): موضوع، ولكن المعنى ثابت بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، وليس هذا موضع بيانها.

رائدهم ودليلهم، ورسموا كذلك مناهجهم لمن بعدهم من التابعين، ثم التابعون استفادوا من منهج الصحابة –رضي الله عنهم– ثم رسموا لمن بعدهم من تبع التابعين مناهجهم، يقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: " سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمرِ بعده سننا، الأخذ بِها تصديق لكتابِ الله عز وجل، واستكمال لطاعته، وقوة على دينِ الله، ليس لأحد تغيِيرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأيِ من خالفها، فمنِ اقتدى بِما سنوا اهتدى، ومنِ استبصر بها أبصر، ومن خالفها واتبع غير سبِيلِ المؤمنين ولاه الله عز وجل ما تولاه، وأصلاه جهنم، وساءت مصيرا".[1]

وجعل القرآن الكريم المتقين الخاشعين المنيبين إلى الله أسوة لمن بعدهم في القرون المتأخرة، فقال: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [سورة لقمان: ١٥].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [سورة التوبة: ١١٩].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

وعلى كل فجعلت الشريعة الإسلامية الأسوة النبوية هي النموذج الأول للتشبه بالصلحاء، ثم أسوة الصحابة، ثم المتقين المنيبين إلى الله؛ حتى قيام الساعة، الذين أصبحوا أولي الأمر بفضل حسن اتباعهم للسنة النبوية والتفقه في الدين.

وهم الذي حازوا ملكة قوية في استخراج مسائل العصر ومعالجة نوازل الوقت، واستطاعوا أن يواكبوا العصر، ويسايروا الأحداث، وبلغ بهم حسن اتباع

(١) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، (السعودية: دار طيبة، ط٨، ١٣٢٣هـ–٢٠٠٣م)، رقم ١٣٤.

المصطفى- صلى الله عليه وسلم- في المنشط والمكره إلى درجة الربانيين، المنيبين، الصديقين، الصادقين وأولي الأمر.

أصبحت قلوبهم محط الإلهام،كما كانت قلوب الأنبياء مركز الوحي، وبذلك حصلت لهم باع طويل في فقه مقاصد الشريعة وتنزيلها في الواقع الصحيح.

وبذلك أصبحت طاعتهم عين طاعة الرسول، والتشبه بملابسهم هو التشبه بالنبي – عليه السلام–، فإنهم آخذون من الأسوة النبوية كل حركة من حركاته، ووجودهم في الأمة المسلمة رحمة عظيمة، فهم يرخصون في المسائل الكثيرة، ولكنهم – في رداء الرخصة– يتشبثون بعزائم النبوة.

وهم الذين تمسكوا بأوضاع الصلحاء في الملابس والشؤون الاجتماعية في الظروف الخطيرة والعواصف الهوجاء التي تجتاح كل طبقة بشرية، وتكسح كل قبيلة وعمران، وهم الذين أفتوا في ضوء فقههم العميق بإباحة بعض الأمور التي فُتِنَتْ بها الطبائع، وبذلك أرادوا أن يجمعوا بين رغبات الناس والسلوك بهم الصراط المستقيم، ولايخرج عامة المسلمين عن حدود الشريعة وتيسر لهم التشبه بالصلحاء.

وعلى كل فكلٌّ من درجة العزيمة ودرجة الرخصة في باب الملابس المأذون بها تحقق التشبه بالأنبياء.

فإن كان خواص الأمة بما فيهم العلماء والصلحاء والأتقياء اختاروا الرخصة في اللباس، فهو ليس ناشئاً عن اتباع الهوى؛ بل عن إصلاح النفس وإصلاح العوام، كما اتضح من قبل.

وبذلك ثبت بكل سهولة أن المعيار الحقيقي في ملابس كل زمن هو لباس علماء ذلك العصر، واللباس الإسلامي في ذلك العصر هو ما يلبسه علماء ذلك العصر في غالب الأحوال، ويتداولونه فيما بينهم، وأما الملابس التي لا يستعملها الأتقياء،

ولا تُعد شعار الأعداء، فهي مباحة لا يجب استعمالها ولا تركها، إلا أن الاحوط هو استفسار العلماء عن هذه الملابس، فإن المباحات في الشرعيات كالممكنات في التكوينيات؛ حيث لا يجب وجودها ولا عدمها، أجل! قد يطلب فعلها جلبًا للمصلحة، وقد يُندب تركها درء للمفسدة.

ونظراً إلى ذلك يمكن أن نقول: إن المباحات الأصلية تحمل في ذاتها كلا من المصلحة والمفسدة، فيجب أن يفكر الإنسان في مثل هذه المباحات وما يتبعها من آثار حسنة وسيئة، فإن الملابس المباحة التي لم يستعملها الأتقياء لم يتميز خيرها عن شرها، ومعلوم أن أنظار العامة قاصرة محدودة، لا تتعدى ظاهر الأشياء وقشورها، فلا يستطيعون إدراك المصالح والمفاسد الخافية، ولا تنزيل الأصول في مثل هذه الفروع، فمن المناسب أن يستفتوا العلماء الصالحين العارفين بالأحكام والأوضاع المتغيرة عن المخترعات الجديدة.

فإن كان العلماء منعوا عن استعمالها، وأنكروا لبسها، ولم يلتفتوا إلى منافعها العاجلة يجب العمل بآرائهم، ولا يجوز الاستدلال بالإباحة الأصلية، فإن هناك كثيراً من الأشياء مباح في أصله، ومكروه بغيره؛ ولكن إدراك هذا الغير لا يتهيأ إلا لأهل النظر والبصيرة.

فالمعيار الحقيقي في ملابس كل عصر وزمان غير الملابس المخترعة الجديدة، هو لباس علماء كل عصر ومصر، لباس العلماء الذين اتفقت الأمة على صلاحهم، ولايُنْكَرُ فضلهم وعلمهم وتدينهم، فكلما جاء اللباس موافقا للباسهم أو فتاواهم كان أقرب إلى حدود الشرع، وهذا هو الطريق إلى تشبه الأمة بالصلحاء في نطاق العلم والعمل، نعم! إن اتباع ملابسهم عزيمة، والاستفادة من الملابس المخترعة الجديدة في ضوء فتاواهم هي رخصة، فالعمل بالرخصة واجب، والوصول إلى درجة التشبه بالصلحاء مندوب وفضيلة.

۞۞۞

المبحث الثالث: المحظورات من الملابس

والمحظورات من اللباس هـي الأخـرى تحمـل درجتـين في اللبـاس، درجـة العزيمة ودرجة الرخصة، والعزيمة في الملابس غير المرضية هي اجتناب كل ما يلبسه الكفار والفساق، وهي رتبة عالية للتقوى، والرخصة هي الاكتفاء بترك الملابس التي أصبحت الشعائر المخصوصة للكفار وأعداء الدين، وهـي رتبـة بدائيـة للتقـوى، لا درجة تحتها، فالتشبه بالملابس المخصوصة للكفار، التـي تميـز الكفـار عـن المسـلمين حرام، والتشبه بملابس الفساق وأولي الدعارة مع اختلاف المراتـب يكـون مكروهـا بكراهة التحريم وكراهة التنزيه أو خلاف الأولى.

وهنايخطر ببالي أن التشبه بالأخيار يعتبرمن المأمورات الشرعية،و التشبه بالأشرار يأتي ضمن المحظورات الشرعية، فالأول من باب الأفعال، والثاني من باب التروك.

فالقسم الأول يحقق جلب المنفعة وكسب المصلحة التي من شـأنها أن ترقـى بالإنسان في مراحل الإيمان والأخلاق والروحانية والتقوى، والقسـم الثـاني يجـــــرُّ المضار والمفاسد في الدين والخلق، التي يريد الإسـلام وضـع الحـدِّ منهـا مـن خـلال حرمة التشبه بالكفار، والمعلوم أن دفع المضرة مقـدم عـلى جلـب المنفعـة، فالتشـبه بالأشرار أكثر أهمية وأزيد خطورة من التشبه بالأخيار، كالأطباء الذين يؤكدون عـلى الحمية تأكيداً أكثر من أخذ الدواء، وكالأطباء الروحانيين (الأنبيـاء علـيهم السـلام) الذين أكدوا على ترك المعاصي أكثر من عمل الطاعات، ومن ثم يناسب للمسلمين أن

يهتموا في ملابسهم بترك التشبه بالأشرار اهتماماً أكثر من التشبه بملابس الصلحاء، ولا عجب إذاً أن يرسم الدين الإسلامي الحنيف أحكاماً وشرائع ذات صلة بترك التشبه بالكفار بتفصيل أكثر من التشبه بالأخيار، ويمنع المسلمين عن مشابهة الكفار أكثر من الدعوة إلى التشبه بالأخيار؛ فإن المحظورات كلها واجبة الاجتناب، والمباحات كلها ليست واجبة الاستعمال.

فيجب أن تكون جميع فروع ترك التشبه بالكفار مرسومة مبينة، تسهِّل الاجتناب، أما التشبه بالأخيار فيجوز القناعة فيها بالمبادئ الكلية، وإذا احتكمنا إلى العقل السليم في هذا الباب أرشدنا إلى أن المنهج التربوى الحكيم، السهل المنال في هذا الباب هو بيان جامع للملابس الممنوعة الاستعمال، وبيان إجمالي للملابس المباحة الاستعمال، وذلك لأن عدد المحظورات ظل في كل عصر قليلاً، وعدد المباحات لا يُعد ولا يُحصى، فإن الأصل يقضي بإباحة كل لباس ساتر، إلا أن التشبه بالأغيار هو الذي أودعه جرثومة الخبث والفساد فصار حرامًا، والظاهر أن الملابس التي تُعَدُّ شعار الأقوام والملابس المخصوصة لها قليلة جداً بالنسية إلى خضم الملابس المباحة.

فكل لباس يكون شعار الغير في كل عصر وزمان يكون حراماً داخلاً في مبدأ حرمة التشبه بالأغيار، ولا يكون من الصعب تعداده.

فلم تعد هنا من حاجة في باب التشبه بالأخيار إلى وضع مشخص معين، فإنه أكثر من أن يحصر، وقد استعمل النبي – صلى الله عليه وسلم- بعض أفراده، والصحابة بعض أفراده، والصالحون من هذه الأمة في مختلف العصور بعض أفراده، أما التشبه بالأغيار فكانت الحاجة قائمة إلى تحديد الملابس المخصوصة للأقوام، التي تميزهم عن غيرهم.

وبذلك قل تركيز الشريعة الإسلامية على فروع التشبه بالصلحاء وتحديد أوضاعها، وكثرت عناية الشريعة بأوضاع الملابس المحرمة التي يستعملها الأشرار الفجار، وبذلك يتبين أن ترك التشبه بالأغيار هو أهم وآكد من التشبه بالأخيار، وأن التمييز الكامل بين المسلم والكافر هو مبدأ إسلامي هام، ومطلب ديني نبيل.

والفروع الثالثة تدل بوضوح على أن الشرع الإسلامي الحكيم رسم خطا واضحاً يميز المسلم عن الكافر في كل عضو، حيث وضع بعد كل قاسم مشترك فارقا رئيسياً بين المؤمن والكافر، فإن اشتركا في جنس اللباس فرَّق في أفراد اللباس، وإن استويا في الأفراد فرَّق في بعض العوارض الخارجية، فمثلاً أمر بستر الرأس ضد الأقوام الذين لا يسترون رؤوسهم، وإن كان هناك قوم يسترون الرؤوس بالقلانس أمر المسلمين بسترها بالعمائم، وإن كان الكفار اشتركوا في وضع القلانس والعمائم ماز الإسلام الكافر عن المؤمن بتشكيلات القلانس والعمائم، وإن اتحدت التشكيلات أيضًا فرق في الألوان والصُّنع؛ مما يشكل دليلاً قاطعاً على حرص الإسلام على امتياز المسلم عن غيره حتى في الظاهر والصورة كامتيازه في المخبر والحقيقة.

فها هي فروع تندرج ضمن التشبه بالكفار، تدل على هذا التمييز بين المسلم والكافر دلالة قوية حمايةً لأخلاق المسلم من الآثار السيئة للكفر وأهله.

المطلب الأول: لباس الرأس

نتحدث أولا عن لباس الرأس، وهو فارق قوي بين المسلم والأمم التي لا تهتم بتغطية الرأس، وجعلت كشف الرأس شعارها، أما الأمم التي اعتادت ستر الرأس، فالفارق إذًا صورة اللباس وأوضاعه، وكثيراً ما يعمل لباس الرأس في التمييز

بين الأمم، لا سيما إذا غابت الفوارق والمميزات اللباسية، فإن القلانس والعمائم وأوضاعها هي التي تحدد قومية اللابس وانتماءه.

وتتعدد الأمثلة في حياة السلف، التي تبين أن القلانس والعمائم التي أصبحت بأوضاعها الخاصة شعار الأقوام وانتسبت إليها نهى السلف عامة المسلمين عن استعمالها وحرَّض على قطع هذا التشابه الظاهري.

والأمم التي جعلت حسر الرأس شعارها كالأساقفة الهندوس في قديم الأزمان والنصارى والبنغاليين اليوم، ماز الإسلام المسلمين عنها بالحث على ستر الرأس؛ بل وجعلها شعار المسلمين، وذلك عن طريق العمامة التي هي مليئة بالوقار والحشمة؛ مع أن الغرض وهي مخالفة الكفار المولعين بحسر الرأس، يمكن تحقيقه بالقلانس، ففي حديث أخرجه البيهقي[1] في شعب الإيمان: قال رسول الله – صلى الله

(١) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور)، ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات. ونقل جثمانه إلى بلده. قال إمام الحرمين: ما من شافعيّ إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فان له المنة والفضل على الشافعيّ لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه. وقال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه، لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف. صنف زهاء ألف جزء، منها: السنن الكبرى و السنن الصغرى، و "المعارف" و "الأسماء والصفات" و "دلائل النبوة" و "الآداب" في الحديث، و"الترغيب والترهيب" و "المبسوط" و "الجامع المصنف في شعب الإيمان"، و"مناقب الإمام الشافعيّ " و"معرفة السنن والآثار" و"القراءة خلف الإمام" و "البعث والنشور "و "الاعتقاد" و "فضائل الصحابة"وماإليها؛ والزركلي، **الأعلام**، ج١، ص١١٥-١١٦.

عليه وسلم- " اعتموا خالفوا على الأمم قبلكم "[1].

ثم وضع للعمائم حدا وسطياً، فاستحسن العمامة بالنهار وكرهها في الليل، حيث قال: "تغطية الرأس بالنهار فقه وبالليل ريبة"[2].

وإذا أخذت أمم الأرض كلها تُقَلِّدُ المسلمين في العمامة -كما كان في عصور إسلامية زاهية- وُضعت فوارق في اللون والأوضاع، يقول الحلبي[3]: "كان النصارى يستعملون العمامة الزرقاء واليهود العمامة الصفراء في عهد الشيخ زكريا الأنصاري[4]

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١١٣٧.

(٢) المرجع السابق، رقم ٤١١٤٤.

(٣) أحمد بن عبد الحي الحلبي ثم الفاسي الشافعيّ. أبو العباس: متصوف كثير النظم والتصانيف، مولده ومنشأه في حلب. زار مصر وتونس. واستقر وتوفي بفاس عام١١٢٠هـ الموافق عام١٧٠٨م. من كتبه الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس " و "الحلل السندسية في المقامات الأحمدية القدسية" وماإليها من الكتب العلمية القيمة؛ والزركلي، **الأعلام**، ج١، ص١٤٤.

(٤) هو العالم الجليل شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعيّ، أبو يحيى: شيخ الإسلام. قاض مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر)، وتعلم في القاهرة وكف بصره سنة ٩٠٦ هـ نشأ فقيرا معدما، قيل: كان يجوع في الجامع، فيخرج بالليل يلتقط قشور البطيخ. فيغسلها ويأكلها. ولما ظهر فضله تتابعت إليه الهدايا والعطايا، بحيث كان له قبل دخوله في منصب القضاء كل يوم نحو ثلاثة آلاف درهم، فجمع نفائس الكتب وأفاد القارئين عليه علما ومالا. وولاه السلطان قايتباي الجركسي (٨٢٦ – ٩٠١هـ) قضاء القضاة، فلم يقبله إلا بعد مراجعة وإلحاح. ولما ولي رأى من السلطان عدولا عن الحق في بعض أعماله، فكتب إليه يزجره عن الظلم، فعزله السلطان، فعاد إلى اشتغاله بالعلم إلى أن توفي. له تصانيف كثيرة، منها:

فأفتى بأنه لا يجوز في زماننا لبس العمامة الصفراء والزرقاء إذا كان مسلما"[1].

وإذا كانت الألوان والأوضاع لا تختص بقوم من الأقوام، جاء الفرق في أسلوب الربط، كما أن أسلوب الربط عند السيخ و"راجبوت" (الطبقة العليا في الهندوس) يُعْتَبَر أسلوباً غير اسلامياً.

وأسلوب الربط لدى الأفغان والمسلمين في الديار الإسلامية كالهند وباكستان وأفغانستان وكشمير يُعَدُّ إسلامياً، وإن اختاره الهنود؛ ولكن التسمية تعطي نوعاً من الامتياز، وإذا كان لم يبق ميزة، تُوْضَعُ ميزة باطنية يعلمها المسلمون لا غير، وهذا كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم- "إن فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس"[2].

والظاهر أن وضع العمامة فوق القلنسوة ليس لتغطية الرأس فقط؛ فإنه هذا

"فتح الرحمن" في التفسير، و "تحفة الباري على صحيح البخاري"و "فتح الجليل" -تعليق على تفسير البيضاوي- و"شرح إيساغوجي" في المنطق، و "شرح ألفية العراقي" في مصطلح الحديث، و "شرح شذور الذهب" في النحو، و "تحفة نجباء العصر" في التجويد، و "اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم" رسالة، و " الدقائق المحكمة " في القراآت، و " فتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام" في خزانة الرباط، و "تنقيح تحرير اللباب،فقه، و "غاية الوصول" في أصول الفقه، و "لبّ الأصول " و "أسنى المطالب في شرح روض الطالب" فقه، و "الغرر البهية في شرح البهجة الوردية"و "منهج الطلاب" في الفقه، و "الزبدة الرائقة "رسالة في شرح البردة؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص٤٥.

(١) أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي، **حسن السير**.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم ١٧٨٤.

يتحقق بأحدى العمامة والقلنسوة، وليس هذا بشعار ظاهري؛ فالقلنسوة مستورة، فثبت أن الميزة خاضعة للسنة النبوية، إن كانت ظاهرة وإلا فباطنة، يلاحظها الإنسان، ويفكر كلما وضع القلنسوة تحت العمامة أنه يريد مخالفة المشركين؛ حتى يستحضر دائماً أهمية مخالفة الكفار وضرورتها، فتتعدى هذه العاطفة القلبية إلى جميع أبواب الاجتماع والمعاشرة.

المطلب الثاني: شد العمامة في العنق

إن فئة من اليهود والنصارى يلُفُّوْن العمامة على الرأس، ويشدونها في العنق، ويفعلها كذلك كثير من الهندوس القرويين، فإن دخل هذا في حد التشبه مُنِعَ المسلم منه.

قال أحمد في رواية الحسن بن محمد[1]: " يكره أن تكون العمامة تحت الحنك كراهية شديدة، وقال: إنما يتعمم بمثل ذلك اليهود والنصارى والمجوس"[2].

المطلب الثالث: القلنسوة

يمنع المسلم عن الوضع القلنسي الذي صار شعارًا لديانة من الديانات أو أمة من الأمم.

---

(١) هو: الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، البزار الزعفرانيّ البغدادي: فقيه، من رجال الحديث، ثقة.كان راويا للإمام الشافعيّ. يقال: لم يكن في وقته أفصح منه ولا أبصر باللغة. نسبته الى الزعفرانية قرب بغداد، مات سنة ٢٦٠ هـ؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٢، ص٢١٢.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص١٧٧.

يقول الشيخ الدمياطي[١] وهو يتحدث عن عصر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: "إن اليهود والنصارى لما اعتادوا لبس الطرطور الأحمر والبرنيطة السوداء، وتركوا عمائمهم، مَنَعَ العلماء عن لبس هذه القلانس، وقول العلماء هذا يندرج في المبدأ الإسلامي الذي صرح به الفقهاء بقولهم: ينبغي للحاكم المسلم تعزير مسلم لَبِسَ قلنسوةً اختصَّت بالكفار والمشركين؛ حتى أفتى بعض العلماء بكفر المسلم الذي اشترك مع الكفار والمشركين في مثل هذه الملابس؛ فإنها إن كانت ليست كفرا بواحاً، فلا أقل من أنها أمارة من أمارات الكفر، فقد جاء في فتاوى خازن والفتاوى الهندية ما نصه: "يكفر بوضع قلنسوة المجوس على رأسه على الصحيح"[٢].

المطلب الرابع: الرداء والإزار

إن ما يغطى به البدن عامة هو الرداء والإزار، واليهود تظاهروا بالزهد، فاقتنعوا بلباس واحد يغطي الجسد كله، وهو نفس الوضع الذي أُطْلِقَ عليه في الحديث "الاحتباء" و"الاشتمال"، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم- "لا تشبهوا باليهود إذا لم يجد أحدكم إلا ثوبًا واحدًا فليتزره"[٣].

---

(١) هوعبد المؤمن بن خلف الدمياطيّ، أبو محمد، شرف الدين: حافظ للحديث، من أكابر الشافعية. ولد بدمياط سنة٦١٣. وتنقل في البلاد، وتوفي فجأة في القاهرة سنة٧٠٥هـ. قال الذهبي: كان مليح الهيأة، حسن الخلق، بساما، فصيحا لغويا مقرئا، جيد العبارة، كبير النفس، صحيح الكتب، مفيدا جدا في المذاكرة. وقال المزي: ما رأيت أحفظ منه، وله مؤلفات قيمة؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص١٧٠.

(٢) لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي، **الفتاوى الهندية**،(بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣١٠هـ)، ج٢، ص٢٧٦.

(٣) أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ)، رقم ١٣٧٢.

المطلب الخامس: البطانة

البطانة إذا كانت من حرير فحرمتها ظاهرة، وهذه الحرمة قضت على عاطفة الترف والتنعم الزائد، وهذا هو السبب الباطني للحكم، أما السبب الظاهري فهو ترك التشبه: ففي حديث أبي ريحانة[1] رضي الله عنه: "نهي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يجعل الرجل في أسفل ثيابه حريرًا مثل الأعاجم"[2].

وقوله: "مثل الأعاجم" يدعو إلى التأمل، فهو يشير إلى أن علة النهي هي التشبه بالأعاجم في وضع الحرير أسفل الثياب، وإلا كان الحرير حرامًا بذاته للرجال، فثبت أن التشبه هي العلة الفاعلة هنا، وإن اجتمعت معه علل أخرى.

المطلب السادس: البصمة والشارة

إن من عادات النصارى والمشركين أنهم يشدون على مناكبهم الشارات الملونة الجميلة في مناسبات الفرح والسرور، والشارات السوداء في مناسبات الحزن إشعاراً بالمناسبات وما يترتب عليها.

إن الحديث النبوي نهي عن هذا أيضًا للتشبه بالأعاجم، ولأن المسلم صاحب إرادة وحق لا حبيس رسوم وتقاليد.

(١) هو: سمعون بن يزيد بن خنافة، الأزدي، صحابي جليل، صحب الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وروى عنه أحاديث، وسكن بيت المقدس، وشهد فتح دمشق، وقدم مصر، واشتهر بكنيته: أبو ريحانة؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **أسد الغابة في تمييز الصحابة**، ج ٣ ، ص ٣.

(٢) أخرجه الإمام أبو داؤد في **سننه**، رقم ٤٠٤٩.

ففي الحديث المذكور أعلاه قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: "أو يجعل على منكبيه حريراً مثل الأعاجم"[1].

ومن أجل هذا السبب أي التشبه بالكفار شدد الإمام أبو يوسف[2] والإمام

---

(١) المرجع السابق، نفس الحديث.

(٢) هو العالم الجليل قاضي الدنيا يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيها علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة سنة ١١٣هـ الموافق سنة ٧٣١م، وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فتمهر في الاجتهاد والاستنباط، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. ومات في خلافته، ببغداد، وهو على القضاء سنة ١٨٢هـ الموافق عام٧٩٨م. وهو أول من دُعي " قاضي القضاة " ويقال له: قاضي قضاة الدنيا!، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه، على مذهب أبي حنيفة.
وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. وهو أحد العلماء المؤلفين الشهيرين، وكل كتاب من كتبه يعد مرجعا في بابه، ومن كتبه القيمة:

١- الخراج.
٢- الآثار وهو مسند أبي حنيفة.
٣- النوادر.
٤- اختلاف الأمصار.
٥- أدب القاضي.
٦- الأمالي في الفقه.
٧- الرد على مالك ابن أنس.
٨- الفرائض.
٩- الوصايا.
١٠- الوكالة.

محمد بن الحسن الشيباني[1] في السُتُر والمفروشات الحريرية؛ فإنها تحكي الإفراط في

١١- البيوع.

١٢- الصيد والذبائح.

١٣- الغصب والاستبراء.

١٤- الجوامع في أربعين فصلا، ألفه ليحيى بن خالد البرمكي، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به. قلت: وللشيخ محمد زاهد الكوثري كتاب قيم عن سيرته باسم " حسن التقاضي، في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي"؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٨، ص١٩٣-١٩٤.

(١) هو الإمام محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان، أبو عبد الله: إمام بالفقه والأصول، وهو الّذي نشر علم أبي حنيفة. أصله من قرية حرستة، في غوطة دمشق، وولد بواسط عام ١٣١هـ. ونشأ بالكوفة، فسمع من أبي حنيفة، وغلب عليه مذهبه، وعرف به وانتقل إلى بغداد، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله. ولما خرج الرشيد إلى خراسان صحبه، فمات في الري عام ١٨٩هـ. قال الشافعيّ: لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد ابن الحسن، لقلت، لفصاحته، ونعته الخطيب البغدادي بإمام أهل الرأي.

وله كتب كثيرة في الفقه والأصول، منها:

١- "المبسوط"في فروع الفقه.

٢- الزيادات.

٣- الجامع الكبير.

٤- الجامع الصغير.

٥- الآثار.

٦- السير.

٧- الموطأ.

٨- الأمالي ،جزء منه.

٩- المخارج في الحيل في الفقه.

١٠- الأصل.

١١- الحجة على أهل المدينة. وما إليها من الكتب القيمة التي تشكل مصادر علمية قيمة فيما تتناوله من المواضيع.

الترف والتنعم كالأعاجم، وتترك آثارا فاسدة في الخلق والسلوك.

المطلب السابع: النطاق

كان اليهود في قديم الزمان يشدون الحبل على القميص كالنطاق (شأن أحبار النصارى اليوم، فهم يشدون حبلا حريرًيا يعلق فيه الصليب) فأفتى الإمام أحمد بن حنبل في عصره بحرمة استعمال النطاق في الصلاة، حتى لا يتشبه المسلم في عبادته باليهود ولو صورة.

يقول الكرماني[1]: "قلت لأحمد: الرجل يشد وسطه بحبل، ويصلي، قال: على القباء لا بأس، وكرهه على القميص، وذهب إلى أنه من زي اليهود"[2].

المطلب الثامن: ألوان الثياب

كما جاء تحذير من التشبه بالكفار في الوضع اللباسي جاء كذلك تحذير منه في ألوان الثياب، المختصة بأمة من الأمم الكافرة، فالعصفر والزعفران من الألوان التي منع المسلمون رجالهم وصبيانهم عن استعمالها؛ لما لها من تأثير سيء في النفوس، وتشبه بالكفار، وقد صرح الحنفية بكراهة التحريم في ذلك، وفي الحديث:

عن عبد الله بن عمر قال: "رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ثوبين

وللشيخ محمد زاهد الكوثري كتاب، اسمه "بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص٨٠.

(١) هو: حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلي الكرماني، رجل جليل من أتباع الإمام أحمد بن حنبل، سمع منه بعض المسائل، ونقلها عنه أتباع الإمام أحمد كالخلال وغيره، وهو فقيه بلده، وجعل إليه السلطان أمر الحكم في بلده؛ وانظر: **طبقات الحنابلة**، ج١ ،ص ١٤٥.

(٢) العلامة ابن تيمية ، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٣٩٩.

معصرفين، فقال: إن هذه من ثياب الكفار، لا تلبسها، وفي رواية: قلت: اغسلهما، قال: احرقها"[1].

الأمر بحرق الثياب يعكس من مدى سخط النبي –عليه السلام– ما يعجز عنه البيان؛ حتى أبى إلا أن يأمر – وهو نبي الرحمة والرأفة– بحرق ثياب، تجعل المسلم يتشبة بالكفار، مع أنه كان من الميسور أن يأمر بالغسل فيشحب لونه؛ ولكنه –عليه السلام– أراد استيصال مادة من القلب، تُنمِّي الشر، وترغِّب في الباطل، وقد تكون سبباً لحب التشبه بالكفار.

المطلب التاسع: الخاتم

ومما يُجمِّل الأبدان هو الخاتم، وقد كره الشرع الإسلامي في هذا الباب أيضا كل ما له صلة بالكفر وأهله ومميزاته، كخواتيم الرصاص والنحاس والحديد، فالنحاس يُستعمل عادة في نحت الأصنام وآنية الكفار، حتى لكأنهما معدنان اختصا بالأصنام لكثرة الاستعمال، وكذلك الحديد جعلته بعض أمم الكفر شعارًا تعبدياً خاصًا، كسوار الحديد يستعمله "السيخ" في الهند كعلامة قومية، أو كالسلاسل الحديدية والملاقط الحديدية التي يستعملها أساقفة الهندوس، والحاصل أن هناك أقوامًا تستعمل هذه المعادن كشعار ديني لها، ومن ثم كره الرسول – عليه السلام– خواتيم هذه الأشياء، فجاء في حديث أخرجه أصحاب السنن عن بريدة[2]: "جاء

(١) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٢٠٧٧.

(٢) هو الصحابي الجليل: بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحرث بن الأعرج الأسلمي، أسلم أثناء الهجرة، وقدم إلي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد أحد، وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ست عشرة غزوة، وغزا خراسان في زمن عثمان، وكان سكن البصرة لما فتحت، ثم سكن مرو إلى أن مات في خلافة يزيد سنة ٦٣هـ؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **الإصابة**، ج١، ص ١٤٦.

رجل إلى النبي – صلى الله عليه و سلم– وعليه خاتم من حديد، فقال: ما لي أرى عليك حلية أهل النار؟ ثم جاءه وعليه خاتم من صفر، فقال: ما لي أجد منك ريح الأصنام ؟ ثم أتاه وعليه خاتم من ذهب، فقال ارم عنك حلية أهل الجنة، قال: من أي شيء اتخذه ؟ قال: من ورق ولا تتمه مثقالا"[1].

والحديث يسلط شعاعًا من النور على جميع الحلي والأدوات التجميلية، فيحرم على المرأة استعمال جميع الحلي التي تحمل التشبه بالكفار، نحو شد سلسلة الذهب والفضة في الخاصرة فهو شعار الهندوس، أو لبس "بدهي" (نوع من اللباس تلبسه نساء المشركين في الهند) وكذلك حرام على الرجال أن يستعملوا من ساعة اليد وسلاسلها ما يتم به التشابه مع النساء.

وهكذا يحرم كل ما من شانه أن يعقد التشابه بين الرجال والنساء، أو بين المؤمن والكافر أو بين أهل الحق وأهل الباطل والهوى، فإن كان أهل الباطل يستعملون الخاتم أيضًا يجب التغيير في الخواتيم، ولو بوجه من الوجوه، فقد قال الشيخ عبد القادر الجيلاني وأئمة الفقه الآخرون: "ويستحب أن يتختم في يساره؛ لأن في ذلك عادة وشعار المبتدعة"[2].

ولكي يتضح التفريق بين المؤمن والكافر سمعت عن مشائخنا أن جدي الإمام حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي– رحمه الله– لم يعلق في قميصه الأزار، وكان يقول: إن هذه عادة النصارى؛ بل يشد الجيب بقطعة من الثوب.

(١) أخرجه الترمذي في **سننه**، رقم ١٧٨٥؛ والنسائي في **سننه**، رقم ٥١٩٥؛ وقال الشيخ الألباني : ضعيف.

(٢) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ص٤٠١.

المطلب العاشر: النعال

والنعال هي آخر ما يلبسه الإنسان، وتنتهي بها حدود اللباس، والموقف الشرعي من هذا أن الإسلام أمر بالانتعال على عكس الأقوام الذين يرون الحفَا والمشي بلا خف ولا نعل عبادة وتقرباً إلى الله، فكأن الأمر بالانتعال يهدف إلى قطع التشبه عن هؤلاء الأقوام، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "أمرت بالنعلين"[1].

وأما الأقوام التي تنتعل وتشارك المسلمين في عملية الانتعال، فقد وجب قطع التشبه بها عن طريق الاختلاف في الصنع والنوعية، وذلك إبقاءً على المميزات القومية.

ذكر الحافظ ابن تيمية – رحمه الله- في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم" ما راج في القرون الوسطى من أنواع النعال، فذكر النعل السندي والنعل الكرماني والنعل الخشبي والنعل السبتي.

أما النعل السندي فكان من خصائص المجوس، يقول المروزي[2]: "سألت أحمد بن حنبل عن النعل السندي فقال: أما أنا فلا أستعملها؛ لكن إذا كان لكنيف أو الوضوء فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا، وقال: هو من زي الأعاجم"، (قال ابن

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٦٠٩.

(٢) هو: سعيد بن منصور بن شعبة، الخراساني، المروزي، أبو عثمان، من رواة الحديث وحفاظه المشاهير، فكان إماما ثقة ثبتا، أثنى عليه ووثقه كل من: أحمد بن حنبل والخليلي، وأبي حاتم، وابن حبان، وغيرهم، مات رحمه الله سنة (٢٢٧ هـ)؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب** ج٤، ص ٨٩، ٩٠.

تيمية: وكأنه كره أن يمشي بها في الأزقة"[1].

فأباح الإمام أحمد استعمال هذا النعل عند الحاجة، في البيوت لا في الأسواق ثم أباحه للغير لا لذاته، وأراد الحد من التشبه بالكفار والأعاجم.

وكره العلماء النعل الكرماني، لكونه غير معروف في المجتمع الإسلامي، "سئل ابن المبارك[2] عن هذه النعال الكرمانية، فلم تعجبه، وقال: أما في هذه غنية عن تلك"[3].

وسئل الإمام أحمد عن النعل الخشبي، فقال: "لا بأس بها أيضاً إذا كان موضع ضرورة، وهذا لأن النعل الخشبي يستخدمه في الغالب الرهبان والأساقف، فأباحه وقت الحاجة من الوضوء والاغتسال؛ لكن منع عنه في غير وقت الحجة.

وكان السلف يستحسنون النعال السبتية، فهي نعال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وفي حديث أخرجه النسائي في سننه عن ابن عمر" كان النبي– صلى الله عليه و سلم– يلبس النعال السبتية "[4].

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ص٢٧٤.

(٢) هو الإمام الجليل: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم، المروزي، أبو عبد الرحمن، إمام أهل عصره في العلم والتقى والصلاح والفضل والرياسة، ومن مشاهير أئمة الحديث الحفاظ الثقات، وصفه ابن عيينة قائلا: "كان فقيها عالما عابدا زاهدا شيخا شجاعا شاعرا". اهـ، كما كان سخيا ناصحا للأمة، سيدا من سادات المسلمين، توفي رحمه الله بـ (هيت) لدى منصرفه من الغزو سنة ١٨١، وعمره ٦٣؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب** ج٥، ص ٣٨٢ – ٣٨٧.

(٣) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ص٢٧٥.

(٤) أخرجه الإمام النسائي في **سننه**، رقم٥٢٤٤.

وسأل أحمدُ بن إبراهيم الدورقيُّ[1] سعيدَ بنَ عامر[2] (وهو من أساتذة الإمام أحمد بن حنبل، ومرجع العلماء في بصرة) عن النعال السبتية، فقال: زي نبينا أحب إلينا من زي "باكهن" ملك الهند"[3].

وهذه الفروع تدل على مدى بُعد نظر السلف وحرصهم على الحفاظ على الشريعة الإسلامية ظاهرها وباطنها، قلبها وقالبها؛ حتى كرهوا ما ليس بحرام في النص؛ ولكنه قد يؤدي إلى الحرام، وبفضل جهودهم بقي الإسلام صافيًا نقيًا عن الشوائب والدخائل، فلله درهم.

وحفاظاً على مبدإ التشبه وقطعاً للصلة الظاهرة أيضاً بين المسلم والكافر كره رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ما لايلبسه الإنسان في جسده؛ ولكن يستعمله لجسده، كالمفروشات والمركبات والسرج والستر وما إليها كالتفصيل الآتي:

---

(١) هو: أحمد بن إبراهيم بن كثير بن زيد الدورقي النكري، البغدادي، من الثقات الحفاظ، من كبار الذين صحبوا الإمام أحمد بن حنبل ونقلوا عنه، مات سنة ٢٤٦ هـ؛ وانظر:ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب** ج١ ،ص ٩، ١٠.

(٢) هو: سعيد بن عامر الضبعي البصري، أبو محمد، من الصالحين الأخيار الثقات، ولد سنة ١٢٢ هـ، وتوفي سنة ٢٠٨هـ. قال الإمام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم عنه: "سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علما ودينا، من شيوخ الإمام أحمد، قال يحيى بن سعيد القطان وذكر عنده سعيد بن عامر، فقال: هو شيخ البصرة منذ أربعين سنة، وقال أبو مسعود بن الفرات: ما رأيت بالبصرة مثل سعيد بن عامر"؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج١، ص٦٦، ترجمة١١٧؛ وابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ٢٧٦.

(٣) ابن تيمية ، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ص٢٧٥.

المطلب الحادي عشر: جلود الحيوانات

جلود الحيوانات يستعملها عامة الرهبان والأساقف الهندوس أو الأمراء المتكبرون، فمنع الرسول – عليه الصلاة والسلام- المسلمين عنه، "نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن ركوب النمور"[1]، قال: (صاحب المرقاة) قيل: "لأنها من زي الأعاجم"[2].

المطلب الثاني عشر: المياثر

وكذلك مُنع المسلمون عن استعمال الميثرة، وهي مخدة حمراء تُجعل على السرج، وذلك لدلالتها على الشرف الزائد وكونها من شعار الأعاجم، ففي الحديث: "نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عن المياثر"[3]، قال (صاحب المرقاة): لكونها من مراكب العجم[4].



(١) أخرجه الإمام النسائي في **سننه**، رقم ٥٠٩١؛ وقال الشيخ الألباني: ضعيف.

(٢) علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م)، ج٧، ص٢٧٨٦، رقم ٤٣٥٥.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٥٨٣٨؛ والإمام الترمذي في **سننه**، رقم الحديث: ١٧٦٠؛ ومحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م)، رقم ٥٣٤٠.

(٤) علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، ج٧، ص٢٧٨٧، رقم ٤٣٥٦.

المبحث الرابع: الميزات الظاهرية والباطنية بين الأصناف المختلفة في الملابس

إنَّ الشرع الإسلامي كما رسم مبدأ التشبه للرجال، رسمه للنساء أيضاً، فإنه يريد أن يقوم حاجز ظاهري بين الرجال والنساء، ويتوجه كلا الصنفين إلى إصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأعمال والأخلاق في حدوده، وهذا يجب على النساء وجوبه على الرجال، والرجال صنف بشري له أغراضه وأهدافه، فكذلك النساء صنف بشري له أغراضه وأهدافه، مما يقضي بحكم الفطرة والطبع بوجود فوارق ومميزات بين الصنفين.

المطلب الأول: الميزة بين الرجال والنساء

لم يرضَ الشرع الإسلامي بأن يتشبه الرجال بالنساء ولا أن تتشبه النساء بالرجال، فقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "لعن الله الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل"[1].

كان من عادة النساء في العهد النبوي شدُّ الرأس بالعصابة، تقول أم سلمة[2]

---

(١) أخرجه الإمام أبوداؤد في **سننه**، رقم ٤٠٩٨؛ وقال الألباني: صحيح.

(٢) هي الصحابية الجليلة: أم المؤمنين، أم سلمة، هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومية القرشية، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد وفاة زوجها سنة ٤ هـ، أسلمت قديما في مكة، وهاجرت إلى الحبشة، وأصابها في سبيل دينها بلاء فصبرت، وكانت ذات جلد ورأي وجمال، ماتت سنة ٦٢ هـ؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **الإصابة**، ج٤، ص ٤٥٨.

-رضي الله عنها-: "جاءني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد لبستُ العصابة فقال: شديها بطرة دون طرتين"[1].

والقصد من هذا أن الطرتين تجعلان العصابة كعمامة الرجال، وتذهب الميزة بين الرجال والنساء، ويذهب معها كثير من المصالح والأغراض.

المطلب الثاني: الميزات بين النساء

وإبقاءً على مختلف المنافع والمصالح حرص الإسلام على إنشاء بعض الفوارق بين نساء ونساء ليوجِد التمييز المعرِّف بالهوية، فالحرة والأمة صنف نسائي واحد، إلا أنهما طبقتان ذواتا مصالح ومنافع مختلفة، ولكل منها من المراتب والحقوق ما ليس للآخرة، فأراد الشرع أن يقوم بينهما فارق ظاهري.

قالت صفية بنت أبي عبيد[2]: " خرجت امرأة متخمرة متجلببة فقال عمر:

---

(١) ما عثرت على مصدره.

(٢) هي صفية" بنت أبي عبيد بن مسعود الثقفية امرأة بن عمر وهي أخت المختار رأت عمر بن الخطاب وروت عن حفصة وعائشه وأم سلمة أمهات المؤمنين والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق روى عنها سالم بن عبد الله بن عمر ونافع مولى بن عباس وعبد الله بن دينار وعبد الله بن صفوان بن أمية وحميد بن قيس الأعرج وموسى بن عقبة قال العجلي: مدنية تابعية ثقة، وذكرها بن حبان في الثقات، قلت: ذكرها بن عبد البر في الصحابة، وقال ابن مندة: أدركت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يصح لها منه سماع، وقال الدارقطني: لم تدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر الواقدي عن موسى بن ضمرة بن سعيد المازني عن أبيه أنها تزوجت عبد الله بن عمر في خلافة أبيه عمر؛ وابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج١٢، ص٤٣١.

من هذه المرأة؟ فقيل له: هذه جارية لفلان - رجل من بيته- فأرسل إلى حفصة[1]: ما حملك على أن تخمري هذه الأمة وتجلبيها بالمحصنات حتى هممت أن أقع بها، لا أحسبها إلا من المحصنات! لا تشبهوا الإماء بالمحصنات "[2].

وفي بعض الروايات أن عمر الفاروق ضربها بدرة، ألقتْ خمارة، وقال: فبم الأمة تشبه الحرة؟ وأراد الشرعي الإسلامي أن تمتاز الحرائر عن الإماء، فأمر الحرائر بإدناء الجلابيب، ونهى عنه الإماء لأغراض عديدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩].

وإذا كان الشرع لا يرضى بتشابه الرجال والنساء ولا بتشابه الحرائر والإماء

---

(١) هي الصحابية الجليلة أم المؤمنين حفصة" بنت عمر بن الخطاب العدوية أم المؤمنين رضي الله عنهما، قيل: إنها ولدت قبل المبعث بخمسة أعوام وتزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة ثلاث، وقيل: سنة اثنتين، ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما. وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله صلّى الله عليه وسلم من أبيها، فزوّجه إياها، سنة اثنتين أو ثلاث للهجرة.واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلم إلى أن توفيت بها.

روت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أبيها، روى عنها أخوها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجته صفية بنت أبي عبيد، وأم بشر الأنصارية والمطلب بن أبي وداعة وحارثة بن وهب وشتير بن شكل وعبد الله بن صفوان بن أمية وسواء الخزاعي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام والمسيب بن رافع وأبو مجلز وجماعة، قال ابن وهب عن مالك: افتتحت إفريقية عام وفاة حفصة، وقال ابن أبي خيثمة: توفيت أول ما بويع معاوية سنة إحدى وأربعين، وقال الواقدي: توفيت سنة خمس وأربعين وصلى عليها مروان بن الحكم؛ وابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج١٢، ص٤١١؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٢، ص٢٦٥.

(٢) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٩٢٦.

من المسلمات حرصًا على الاستقلالية في الذات والإبقاء على المصالح، فكيف يرضى بتشبه النساء المسلمات بالكفار رجالاً ونساءً؟.

فنظرًا إلى هذا وإلى أن مبدأ التشبه الإسلامي يشترك فيه الرجال والنساء، لا يجوز بحال أن تتشبه المسلمات بالنصرانيات والمجوسيات والوثنيات، فيلبسن ما هو من خصائص الكافرات، ويُصِبْنَ أمتَهن ببصمة عار.

والحاصل أن ما أسلفتُ من نصوص الكتاب والسنة والتي تحدثت عن بعض مظاهر اللباس (الموضات والهيئات) يدل وبكل وضوح على أن الشارع الحكيم -سبحانه- وَضَعَ في الاعتبار كلا من ظاهر اللباس وباطنه، فبيَّن بالتوجيهات الحكيمة ما في اللباس من أخلاق باطنة، موضحًا صورته وهيئته الظاهرة.

ثم اهتمام السلف في القرون الأولى واهتمام العلماء في كل عصر ومصر بالتشبه بالكفار، والحد من مظاهره، والتشدد في الزجر والتوبيخ، يكشف عما تحلى به علماءنا وسلفنا من بُعْدٍ في النظر وسعةٍ في البصيرة، وصلابةٍ في الدين، ويتضح أنه لولاهم وجهودهم العظيمة في النهي عن المظاهر التافهة للتشبه لما كانت للإسلام اليوم صورة صحيحة، ولو اختاروا طريق المداهنة في الدين، التي أطلق عليها اليوم الصلح الكلي والمداراة والتنور الفكري وسعة الخلق لُمسِخَ وجهُ الإسلام قبل اليوم بكثير؛ إلا أن بصيرتهم وسعة علمهم هَدَتْهُم إلى أن هذه المظاهر للتشبه، وإن لم تكن حرامًا صريحاً؛ لكنها طريق إلى الحرام.

وإن لم تكن كبائر فهي بريد إلى الكبائر، ومعلوم أن الطريق يصل إلى الغاية، والمقدمة تصل إلى الهدف، فيحسن أن يمنع عن المكروهات كما يمنع عن المحرمات.

فقد بذل علماؤنا الجهابذة وسلفنا الصالح بفضل صلابتهم وتفقههم في الدين جهودًا مشكورة في حماية الأمة من التشبه بالأغيار ودعوتهم إلى الوضع

الإسلامي والقناعة بالسذاجة الفطرية، فاهتموا به اهتمامًا بالغاً لـئلا يتشـبه المسـلم بالكافر في ظاهره وصورته، ولا يجري حكم الكفر على المسلم فإنه جد قبيح للمسلم.

كما رغبوا في تزكية أخلاق المسلم من خلال مبدأ التشبه بالكفار، فإن اللباس ليس إلا مظهرًا من مظاهر الأخـلاق الباطنـة وسـبباً لتقويتهـا، فمحصـول الموقـف الشرـعي في هـذا البـاب أنـه لا يجـوز للمسـلم أن يفتـتن بملابـس الكفـار، ويقتـل استقلاليته في الذات وحريته في الملبس؛ بل يجب الانشغال بغرضـه الأصـيل وهدفـه النبيل، والبقاء على السذاجة الفطرية والقناعة الذاتية.

المطلب الثالث: وماذا قبل اتباع قوم في الملابس؟.

وهناك أمر جليل النفع، وهو يجب – قبل تقليد قوم في المظاهر والملابـس– النظـر في الأخلاق الغالبـة علـيهم، فـإن غلبـتْهم –كقـوم– الأخـلاق النفسـانية والماديـة، أتـت ملابسهُمْ مظهرَ الهوى والمادية في منـأي عـن الروحانيـة، وإن كانـت الروحانيـة هـي التـي غلبتهم فيجب أنهـم في الروحانيـة مســرفون أو معتـدلون، إن أسرفـوا ذهبـت ملابسـهم باللابس إلى الإسراف، وإن كانوا معتدلين في الخلق والسلوك والمظهر والمخبر سـالمين عـن الإسراف والتفريط، فلا بأس باتباعهم في الملابـس؛ بـل يجـب اتبـاعهم؛ ولكـن أمـةً هـذه صفاتها لا توجد في العالم غير الأمة المسلمة المتمسكة بدينها والراسخة فيه.

فعـار عـلى أمـة قديمـة، معتدلـة في مبادئهـا وفروعهـا، معدومـة الكفـؤ في روحانيتها ووسطيتها كالأمة الإسلامية أن تتبع أمة ناقصة الفكـر، خِـداج السـلوك، وترغب عن ملابسها ذات الصبغة الروحانية في ملابس الكفر والفجور.



الباب الثالث:

وقفة علمية جادة مع المنكرين لمبدأ التشبه

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: الموقف الشرعي من اللباس، وشبهات المثقفين العصريين وردودها

الفصل الثاني: وقفة مع الشبهات المثارة حول حديث "من تشبه بقوم فهو منهم"

الفصل الثالث: ذكر المبادئ اللاغية للمنكرين لمبدأ التشبه والرد عليها

الفصل الرابع: حديث "لارهبانية في الإسلام" ومعناه ومقتضا ه

الفصل الخامس: الإجابة النهائية عن شبهات النقاد والكشف عن البنية الأساسية لمبدأ التشبه

الفصل الأول:

الموقف الشرعي من اللباس، وشبهات المثقفين العصريين وردودها

إن التفاصيل الشرعية التي ذكرتها في اللباس كفت دليلاً على أن اللباس ليس أمرا تافهًا مماليس له صلة بالشريعة؛ من الشؤون الحضارية والعمرانية والاقتصادية؛ بل هو موضوع شرعي خالص، أعطت الشريعة الإسلامية صورته الجامعة المتكاملة الأبعاد، فهي ما تحدثت عن النقاط الجزئية فقط؛ بل أوضحت المبادئ والثوابت الأساسية الهامة، مما قطع الطريق عن كل تدخل إنساني في هذا الباب، فكما أن المسلم يجب عليه أن يتبع الشريعة الإسلامية في المأكل والمشرب والمنام واليقظة والقيام والقعود يجب عليه كذلك أن يطبق الشريعة الإسلامية في مظاهره وملابسه التي تناولها الشرع الإسلامي ببيان شاف يشتمل كلاً من مادة اللباس وصورته وحقيقته ومصادره ومظاهره ومنافعه ومضاره.

ورغم كل هذه التفصيلات الشاملة فاجأ بعض أدعياء العلم والتنور الفكري ممن يزعمون لأنفسهم الاطلاع على الأحكام والمعرفة بالحقائق الغامضة، جاءوا بتحقيقات نادرة في اللباس، وهي كما يلي:

١- إجراء أحكام الحلال والحرام في اللباس خطأ فادح.

٢- الشريعة تتحدث في اللباس عن النقاط البدائية لا عن مبادئه وتشكيلاته، فما جاء الشرع ليقرر للناس موضات اللباس وهيئاته؛ فإن اللباس مسألة حضارية وعمرانية غير شرعية، (والشرع أعطى الإنسان الحرية الكاملة فيما يتعلق بأمورالدنيا) "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

٣- صرح الفقهاء بأن اللباس من سنن الزوائد لا من مقاصد الدين.

٤- مراعاة الحدود والقيود في غير المقاصد الدينية تخالف اليسر والسهولة التي هي طبيعة الدين. (الدين يسر).

[نقلاً عن رسالة أدبية علمية بنصها].

وتتلخص هذه الشبهات في جملتين:

الأولى: أن "اللباس من أمور الدنيا لا من أمور الدين".

والثانية: "أن المؤمن في أمور الدنيا حر التصرف، مطلق الإرادة" كما قال رسول الله –عليه الصلاة والسلام- " أنتم أعلم بأمر دنياكم"[1].

الشبهات السابقة في الميزان:

أما الجملة الأولى وهي أن اللباس من أمور الدنيا فهي ليست بسديدة، فإن اللباس موضوع شرعي تناوله الشرع بتفصيل لائق، وقد ذكرت بعض النماذج والأمثلة في الصفحات الماضية، فقد بحث الشرع في مادته، وَشَرَح صورته وحقيقته، وذكر نسبته وإضافته، وتناول الأصول والفروع، وأظهر حلاله وحرامه، وبين

(١) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٢٣٦٣.

مكروهه ومندوبه، وأبدى ظاهره وباطنه، وأفصح عن نتائجه وآثاره السيئة والصالحة، وذكر ماله وما عليه، وفصّل المنافع الروحانية والمضار الجسدية، وقد امتلأت نصوص الكتاب والسنة بهذه التفصيلات، أَوَ بعد هذا كله يجوز أن يقال: إن اللباس ليس بموضوع شرعي؛ بل هو موضوع حضاري وعمراني محض؟ إن هذه جرأة عظيمة؛ بل جهل فاضح.

أو كل هذه التفصيلات في موضوع اللباس تتحدث عن النقاط البدائية لا المبادئ الأساسية، وعن القشور دون الألباب؟ إن كانت هذه نقاطاً بدائية فما هي الأصول الكلية التي يجب بيانها، وتركها الشرع؟ وهل ظهر بعد أربعة عشر قرنا أن الشرع الإسلامي الحنيف اتُّهم بالنقص والتفريط في البيان ؟ عياذا بالله.

وإذا كانت المسألة لا تكون شرعية بعد هذه التفصيلات، فما معنى كونها شرعية؟ وبأي شيء تكون شرعية؟.

إن هذه الدعوى– مع خطأها–تتهم بالنقص وعدم الشمول الشريعة الإسلامية التي جعلت جميع الأمور الطبيعية أمورًا شرعية يثاب عليها، وفصلت الآداب الإسلامية لا للأمور التعبدية والدينية فقط؛ بل لجميع الأمور الاجتماعية والإنسانية؛ حتى البول والبراز، وجعلت كل هذه الأمور عبادة.

أَوَ يريد هؤلاء المتنورون أن الشرع لم يُعر أي أهمية باللباس، وألغاه عن الحساب كلا؛ فإن المسلم إذا لم يمكن له الخروج عن الشريعة الإسلامية في المطعم والشرب والمنام واليقظة والبول والبراز وما إليها من الأمور العادية، فما للشريعة الإسلامية تترك المسلم حيران في أمور اللباس، الذي هو مظهر بارز للحياة

الاجتماعية، ولا ترشده إلى الصراط المسلم؟ هذا مستحيل ولو كره المتنورون.

فقولهم بأن اللباس موضوع حضاري بُحْت منقطع الصلة عن الإسلام افتراء محض لا يلتفت إليه، وكذب بواح، وحطٌ من شأن الدين الإسلامي، ونكاية به. وكبطلان هذا القول بطل ما يقولون من أننا أحرار في أمور دنيانا، فليس للشرع إلا أن يتحدث في الأمور التعبدية، أما العادات والحضارات فلا شأن له فيها.

وهذا –مع كونه زراية بالدين ورماية له بالنقص- تطاوُلٌ على الله سبحانه، واعتراض عليه في قدرته العظيمة اللامحدودة، فكأن مرضى العقول وسقام القلوب هؤلاء لا يحبون أن يتحكم الله رب العالمين في شؤوننا الاجتماعية والعادية، ويكلفنا باتباع الأسوة الحسنة أو التدخل في الأمور الحضارية، وليس هذا إلا إلحاداً صريحاً وزندقة مكشوفة، وإن طُلِيَتْ بدهان التنوُّر والتثقف.

والأمر الثاني المهم أنه إذا اتفقنا على أن الدين هو أقوال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- وأفعاله، وقد شملت أقواله وأفعاله كلا من العادة والعبادة والتدين والاجتماع والحضارة، وعمَّت الدنيا والدين وجميع نواحيهما معاً، فالتفريق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية بأنا متقيدون في الأولى، وأحرار في الأخرى مما لا يرضى به عقل حكيم وقلب سليم.

النصوص التي سلبت حريتنا في الأمور الدينية لماذا لا تسلبها في الأمور الدنيوية؛ وإلا فهو يعني أن الرسول – عليه السلام- لم يرشدنا في الأمور الدنيوية أو قال أقوالاً، وأعطى توجيهات لا نقيم لها وزنا ولا نهتم بها اهتماماً.

وكل من المذهبين باطل بداهة، أما الأول فيبطله الواقع، والثاني يبطله

الإيمان، فثبت بذلك أن أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم- واجبة الاتباع، لازمة الاقتداء مطلقاً في الأمور الدنيوية والدينية معاً.

وإن قيل: إن الأقوال النبوية في الأمور الدنيوية لا تحمل أهمية الأمر الملزِم؛ بل هي من قبيل الإرشاد والمشورة، وهي ليست مما يجب اتباعه، قلنا: إن هذا ادعاء محض، لا يعضده دليل، ولا يسنده برهان، فإطلاق هذا القول جاء قبل الوقت والأوان.

وإن فرضناه احتمالًا ناشئا عن دليل، فلا يثبت أيضا أنا أحرار في الأمور الدنيوية، فإن التوجيهات النبوية في الأمور الدنيوية تترتب عليها منافع الدنيا والآخرة ومضارهما معاً، فإن أمور الآخرة تقوم على أمور الدنيا، ولا عمل في الدنيا، حركةً كانت أو سكوناً، خيراً أو شراً إلا ويُعرض يوم القيامة للحساب، ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)**﴾ [سورة الزلزلة: ٧-٨].

فإن كانت هذه المشورة غير واجبة الاتباع، بالنسبة إلى منافع الدنيا وأضرارها، فهي بدورها واجبة الاتباع بالنسبة إلى منافع الآخرة وأضرارها؛ فإن التدخل في الجانب الأخروي من أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم- هو شرك في النبوة، يرفضه الإسلام بشدة ويحرِّمه، فاعتبار الأقوال النبوية مشورة محضاً لا يفيد أنَّا أحرار طلقاء في الأمور الدنيوية.

وأتقدم فأقول: إن سلمنا أن الأقوال النبوية هي مشورة محضة، لاهي واجبة الاتباع شرعاً، ولا مستحبته،فهي – مع هذا- تستحق أن تُتَّبع وتُطاع؛ فإن الإصابة في الرأي أساسها كمال العلم وكمال العقل والفهم، فمن ذا الذي هو أعلم من أعلم الأولين والآخرين، يُعتمد عليه في رأيه ومشورته، ومن ذا الذي هو أعقل من نبي –

صلى الله عليه وسلم- اعترف بكمال عقله وغور علمه لا المسلمون فقط؛ بل عقلاء العالم وفلاسفة الدنيا وحكماء الشرق والغرب من الكفار والمشركين؛ بل اعترفوا بهذا أكثر من المسلمين ؛ حيث اعتبروا الشريعة الإسلامية المتزنة ثمرة عقله وغراس فكره خلافا للواقع واعتقاد المسلمين.

وإذا كان النبي – صلى الله عليه وسلم- أعلم الناس وأعقلهم وأكملهم خلقا وبصيرة، فما تقتضيه الطبيعة الإنسانية أن يُرجح آراء النبي – صلى الله عليه وسلم- ومشوراته على غيره، ويجب اتباعها، وهذا هو واجب الحضارة الإنسانية والكمال العلمي أيضاً؛ فإن المشورة نوع من العلم، والعلم دائما يؤخذ ممن هو فوقه في العلم والبصيرة، فما ظنكم بمن هو أعلم من العالم كله؟.

ثم أقول: إن اتباع النبي – صلى الله عليه وسلم- في رأيه ومشورته يوجب سرور النبي – صلى الله عليه وسلم- على الأقل، وهذه هي الأخرى مغنمة عظيمة لمحبي الرسول – عليه السلام- وعُشَّاقه، فماذا يجني مَنْ تَرَكَ هذه النعمة التي تترتب عليها سعادة الدارين، وبركات الدنيا والآخرة.

فاتفق الشرع والعقل والعرف والخلق والفطرة على أن المسلمين ليسوا أحراراً في الأمور الدنيوية، بعد ما علموا آراء النبي – صلى الله عليه وسلم- ومشوراته، فسيما المسلمين هو الرضا والتسليم، لا اتباع الهوى والعصيان. ﴿**وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ**﴾ [سورة يونس: ٤٠].

الواقع أن عدم إلزام الشريعة المسلمين الأخذ بمشورة النبي – صلى الله عليه

وسلم- هي نعمة عظيمة، لم يفهم كنهها هؤلاء المتحررون، الذين وثقوا بعقولهم الناقصة ثقة مفرطة، ولم يبالوا بمن رزقهم الله فقهًا في الدين، وبصيرةً في الشريعة، فخاضوا في أسرار الشريعة، فلم يرجعوا إلا بعلم مغشوش ونتيجة ناقصة.

والواقع المعقول أن كون الشريعة تعتبر بعض الأمور ذات الصلة بالاجتماع والأمور الدنيوية شورى واستحباباً، ولا تُلزم الأمة إياها، وتعطي الأمة نوعاً من الحرية في الطاعة والعبادة ليس ناشئا عن وهم وخلل في هذه الأمور أو أن هناك مشورى أخرى أجدى وأنفع منها، كلا! بل مبناه أن الشريعة لو كلفت الأمة إياها تكليفا إلزامياً لوقع عامة المسلين – دون الخاصة- في المعاصي والذنوب واستحقوا النار؛ فإن اتباع الشريعة في الشؤون الاجتماعية في كل حين وآن، يشق على النفس، فيكون المسلمون تغلب سيئاتُهم حسناتِهم، فإن التقصير في الواجبات يؤدي إلى النار ويبعد عن الجنة.

ومن أجل ذلك أراد الشرع الحكيم أن يجعل هذه الأمور مستحبة دون الواجبة، وبيَّن فوائدها أيضا ليرغب فيها المسلمون رغبة زائدة، فهذا الاستحباب أو الأمر الإرشادي لا يفيد التحرر المطلق والجرأة الزائدة التي وهم فيها الواهمون؛ بل يفتح للأمة أبواب اليسر والسهولة في الدين، وأبواب الرحمة في الآخرة، ويحميها من المعصية أَوَ نعمة اليسر والسهولة هذه لا تستحق أكثر من أن نعتبرها شورى محضة، ونفضل عليها آراءنا المزيفة أم يجب أن نعتقدها رحمة ربانية، وكالأوامر الشرعية، ونرفض آراءنا ونُقبل عليها كمشعل الطريق.

والظاهر أن العقل السليم لا يرتضي إلا بالثاني.

وعلى كل؛ فإن أقوال المصطفى – صلى الله عليه وسلم- في الأمور الدنيوية (التي هي في صورتها دنيوية، وفي نتائجها أخروية) سواء وجب اتباعها مطلقاً أو استحب اتباعها في بعض الأمور تسهيلا للأمة تقضي على أساس الإعجاب بالنفس وعاطفة التحرر الفكري، ولا تسمح لأحد بالحذف والزيادة في جانب من جوانب الشريعة، فضلاً عن أن يستدل بها على الإعجاب بالنفس والانطلاق الفكري والعملي.

أما الاستدلال بالحديث: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" على الاستقلال الفكري فهو تحريف في الدين بلا شك، منشؤه قلة العلم وضعف الفهم وفقدان التدين.

الحديث يقول: "أنتم أعلم بأمر دنياكم" ولا يبين أنكم أحرار في الأمور الدنيوية، فافعلوا ما شئتم.

فإثبات الخيار بإثبات العلم هو في الحقيقة إنطاق النص الساكت، حسب ما يشتهيه الهوى، ثم هو معارض للأحاديث الأخرى أيضاً.

إذا قال حاكم الدولة لحدَّاد: أنت أعلم بصنع الأسلحة منا، فهل هذا يعني أنك حر في صنع الأسلحة ومعفى من الرخصة الرسمية؟ كلا؛ فإنه يعلم كل ذي لب أن الحاكم لايخيره في صنع الأسلحة وبيعها، ولا يجعله حرا في هذا.

وهكذا إذا قال الملك للخازن: أنت بالحساب أدرى مني (وهذا واقعي؛ فالملك لا يتعاطى الحساب) فهل هذا يفيد أن الخازن حر في التصرف، فليفعل ما يشاء؟ كلا؛ فكما أن الخازن – مع كونه أعلم بالحساب من الملك- لا يكون حر التصرف، ولا يقدر على إنفاق حبة بدون الإذن الملكي، لسنا كذلك أحرارًا في التصرف في الأمور الدنيوية، وإن سلمنا أن لدينا من العلم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية

ما تعلمنا به طريقة الزراعة والسقاية والحياكة، وقد يكون يجهل بها بعض الأنبياء، فهل ثبت بذلك أنا طلقاء اليدين، أحرار التصرف في الأمور الدنيوية؟ كلا، بل يجب أن نفعل ما أُمرْنا به، وننتهي عما نُهينا عنه.

فالحاصل أن الحديث الشريف غاية ما يفيد أن بعض الناس أدرى بطريقة الأعمال الدنيوية وآثارها ونتائجها، أما استنتاج أن الناس مخيرون في الأمور الدنيوية، فهي دعوى مستقلة لا صلة لها بالحديث، فأين الحيرة من العلم؟ وأين الثرى من الثريا؟.

كيف هذا وقد جاءت نصوص أخرى تضع الحد من خيرة الناس وحريتهم، فقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة القصص:٦٨].

فكما أن الله – سبحانه- لا شريك له في الخلق، لا شريك له في الاختيار، فاستأثر نفسه بالاختيار التكويني والتشريعي، ثم قوله: "ما كان لهم الخيرة" قضى على حرية الناس مطلقاً، وقوله "سبحان الله" نزه الله تعالى نفسه عن الشرك التكويني والتشريعي، فثبت لله – سبحانه- وحده الاختيار الكامل المطلق، وأوضح الله تعالى هذا الأمر في موضع آخر فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[سورة الأعراف:٥٤]. وقد حصر هنا الخلق والأمر في ذات الله – سبحانه- مما يسلب العباد كل نوع من الحرية والخيار.

وقال في موضع ثالث: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

وهذه الآية قول فصل في أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم الخيرة والحرية بعد ما جاء أمر الله ورسوله، ومعلوم أن الله ورسوله أحاطا الحياة الإنسانية بجميع جوانبها بتوجيهات شاملة دقيقة.

وهذه النصوص القرآنية تؤكد أن التحليل والتحريم وبيان الأحكام الشرعية هما حق الله ورسوله لا غير، وليس للعباد إلا الامتثال والإطاعة.

فقد جاء مبدأ إسلامي هام: ﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦**﴾[سورة النحل: ١١٦].

فلا يجوز للعبد – أيا كان– أن يحلل ما حرمه الله، أو يحرم ما أحل الله، ويتصرف في الدين عن غير حق، فإن التصرف في الدين عن غير حق حرام في باب المحرمات والعبادات والمباحات؛ فإن التشريع أحاط بالجانب التعبدي والجانب التعودى معاً.

إذًا فليتفكر من يستدلون بحديث: "أنتم أعلم بأمر ديناكم" على حرية الإنسان في الأمور العادية والمباحة، مع أن الحديث لا يفيد الحرية، وعلى العكس من ذلك فإن هناك نصوصاً أخرى تقيِّد الحرية، وتجعل الناس مسلوبي الحرية والاختيار في الأمور الدنيوية أيضًا، فهم ينكرون هذه النصوص، ويحرِّفون في النص الأول، فيتكلفون بإثبات ما ليس بثابت، فإنه زادوا في نص، ونقصوا من نص آخر، وبذلك عارضوا النص بالنص، وليس هذا إلا نوعاً من التحريف، ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ٨٢**﴾ [سورة النساء : ٨٢].

ومن أجل ذلك فقد اعتبر القرآن أتباعَ الهوى الذين قالوا: هذا حلال، وهـذا حرام، اعتبرهم مفترين على الله وكذابين، فإنهم جعلوا غـير القـرآن قرآنـاً، والحـلال حراماً، والحرام حلالاً، عن غير علم وهـدى،كما قـال هـؤلاء في بـاب اللبـاس: "إن إجراء الحلال والحرام في اللباس خطأ مبـين" فـإن اللبـاس يـدور عـلى هـواهم نفيـاً وإباحة. عياذاً بالله من ذلك.

مع أن التحرر والاستبداد الفكري والشرعي –الـذي يحـاول هـؤلاء القـوم إثباته– كان الكفار والمشركون أيضا لايجبونه لأنفسهم، الذين كـانوا يحلّـون الحـرام، ويحرمون الحلال، ويحرفون في الدين؛ فإنهم كانوا يقولون: "والله أمرنا بها؛ أي نعمـل بها؛ لأن الله أمرنا بها، فكانوا يعتقدون أن التحليل والتحريم هما من عمل الله وحـده، ولذا يقولون زوراً على الله:إن الله أمرنا بهذا؛ ولكن كل الأسف على المسـلمين الـذين ما أمرهم توحيدهم وإيمانهم بما أمر به المشركين شركُهم، ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾**﴾ [سورة يوسف: ١٠٦].

فكون الشيء مباحًا أو محظوراً يحتـاج إلى تحليـل الله وتحريمـه؛ فـلا حلـة ولا حرمة إلا بإذنه، والظاهر أن ما نتداوله في الدنيا لا يُعلم إباحته ولا حرمته إلا لأن الله أباحه أو حرّمه، فالأحكام الشرعية ليست إلا مظهر إرادة الله في التحليل والتحـريم، وهذا الحديث[1] الجامع الوجيز يحمل جزءين هامين:

١- الدين.

٢- يسر.

(١) لم يسبق ذكر الحديث في السياق؛ لكن المعترضين على مبدأ التشبه استدلوا بحـديث : الـدين يســر، على جواز التشبه بالكفار، فقطع الشيخ اعتراضهم بالكلام الآتي.

وكلتا الكلمتين اجتمعتا على نفي الإعجاب بالنفس والتحرر، ثم المعنى المفاد من هذه الجملة يُثْبِتُ التقيُّدَ مكان التحرر، والاتباع مكان الابتداع، فإن المراد بالدين هي أحكام الدين وشرائعه، فلا دين بغير الشرائع، فتقدير العبارة: أحكام الدين يسر، ولفظ "الأحكام" لا يشير إلا إلى انفراد الله تعالى بالحكم، واتصاف الخلق بالمحكومية، وما المحكومية إلا التقيد والعبودية؛ فهذا الجزء من الحديث يعطي الاختيار إلى الله، وعدم الاختيار إلى الخلق، فالتقيد نصيب الخلق، وهو سلب الحرية المطلقة لا توفيرها.

الجزء الثاني: "يسر" وهو يدل على السهولة ورفع الحرج، وإذا كان هذا اليسر مودعاًفي الشرائع الإسلامية،فهوأدعى إلى العمل والاتباع،فإن اليسر لايُعلم ولايظهر إلا بالعمل، فإنه ليس أمرا عقلياً افترضه العقل بمبادئ عقلية، فاليسر يدل على العمل؛ بل يجب أن يسبقه العمل؛ حتى يظهر اليسر بالعمل بالشرائع، فالاستدلال بلفظٍ، له هذه الدلالات والإيحاءات على حرية العمل وترك التقيد نوع من الظلم، وحرمان من اليسر الشرعي في الأعمال؛ فإن إدعاء اليسر مع ترك العمل لا معنى له، فلفظ اليسر في الحديث لا يدل على الحرية واستقلال الفكر؛ بل الاتباع والعبودية.

ثم مغزى الحديث الكامل(الدين يسر) أنه يبشر المسلمين بسهولة الدين، ويرغِّبهم في الاتباع، ويحميهم من الابتداع والتحرر الفكري، ويبين أن مخاطبي هذا الدين لن يكونوا أحرارا في الأمور الدينية.

وإذا كان الهنود – مثلاً – يعتقدون يُسْرَ القوانين الهندية، ثم لا يجيزون لأنفسهم أن يخرجوا على القوانين الأرضية، فيحلوا ما يشاءون، ويحرموا ما يشاءون،

فكيف يسوغ للمسلم أن يعتقد أنه فيما يتعلق بالدنيا حر طليق، ولا علاقة للشرع بالاجتماع واللباس.

وعلى كل فإن الاستدلال بحديث "أنتم أعلم بأمور دنياكم" على التحرر الفكري هو افتراءٌ على الله، وكذبةٌ خالصةٌ.

وقد بقي بيان الغرض الحقيقي من الحديث؛ فإنه الحديث إذا أثبت زيادة العلم في الأمور الدنيوية للناس، ولا يدل على اختيارهم، فما هو المنشأ الصحيح لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم–.

والجواب الوجيز أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– نهي أولا عن تلقيح النخلة، وظن أن هذا نوع من التطير والتشاؤم؛ وإذا ترك الصحابة التلقيح، جاء التمر رديئا، فاندفع هذا الاحتمال، وثبت أن للتلقيح ميزة تنفع النخلة، فأباح النبي –عليه السلام– التلقيح والتأبير، وقال: أنتم أعلم بأمر دنياكم.

وهذا الحديث أفاد أموراً تالية:

١– رغم بيان أن الناس أعلم بأمور الدنيا حكم النبي –عليه السلام– بالحل والحرمة، ولم يفوِّض هذا الحكم إليهم، مما دل على أن المعرفة الدينية أهم من المعرفة الدنيوية، والحل والحرمة نصيب المعرفة الدينية دون المعرفة الدنيوية.

٢– أن الأمور الدنيوية ما لم تعارض الدين مباحة، وإذا نشأ احتمال التعارض عاد محظوراً.

٣– والتعارض بين الدين والدنيا لا يُدرى بالعلوم الدنيوية؛ بل عماده هو العلم بالشريعة وأهله، فثبت بهذا أن الناس متقيدون بالدين في الأمور الدنيوية أيضًا.

سؤال هام: وهنا قد ينشأ سؤال، وهو أنه إذا كانت الحقيقة هذه؛ فلما ذا اختار هذا الأسلوب في الخطاب: أنتم أعلم بأمور دنياكم، وكان من حق العبارة أن يقول: إذا ثبت تأثير التلقيح في النخيل؛ فلكم ذاك، أويقول: لا بأس بالتلقيح إذاً ولا تعتبروه تشأوما أو تفاؤلاً، أو أمثالها من الكلمات، فإن إثبات الأعلمية بغير النبي – عليه السلام- يحمل وجهاً آخر للمعنى؟.

الجواب: كان من الممكن أن يوسوس الشيطان إلى قلوب هؤلاء، فيشككوا في النبوة نظراً إلى جهله – عليه السلام- بالأمور الدنيوية، فقصد النبي – عليه السلام- بكلامه هذا أن العلم بأمور الدنيا ليس جزءًا من النبوة، فإن الأنبياء يُبعثون لإكمال الدين دون الدنيا وشؤونها.

فإن كان النبي – عليه السلام- لا يعرف الزراعة والسقاية والحياكة والخياطة، فهذا ليس بعار له-عليه السلام- بل فخر له، فإن النبي – عليه السلام- أعلم الخلائق بطرق الهدى، الموصلة إلى الله – سبحانه لا في توافه الأمور، ومن أجل ذلك أعلن القرآن الكريم أن النبي – عليه السلام- لا يعرف الشعر، وقد تبرأ النبي – عليه السلام- من التنجيم والكهانة، فإن تمهَّر غيرُ النبي في هذا، وجهل به نبيٌّ، فهو يُعَدُّ منقبة نبوية عظيمة، فضلا أن يُعَد عاراً، ويثيرَ شبهة في النبوة، فأراد النبي – عليه السلام- أن يبين جهله بالزراعة وعلمهم بذلك؛ ولكن هو الذي منع فأباح، فلا تثور شبهة الاستغناء عن النبي – عليه السلام-. والله أعلم.

أما رفض الحدود الشرعية في اللباس بحجة أن الدين يسر، والجري وراء كل مايشبع الهوى النفساني، فهواستدلال أعرج وأخدج؛ فإن الحديث يشير إلى اليسر

دون التحرر والانسياق وراء الشهوات، واليسر لا يعني طبعًا التحرر والانطلاق، المجلدات الضخمة للدستور الهندي مثلا إذا كانت لا تجدر بالإحراق مع كونها تسلب إرادة الشعب وحريته، فكيف يظن الناس الشرائع الإسلاميه مخلة بحريتهم؟ الناس لا يحيدون قيد شعرة عن الدساتير الأرضية خوفًا على نفوسهم أو إدراكا لمنافعهم، ويتقيدون بها كحاجة اجتماعية في الحياة الدنيا، فكيف لا يرضون لهم أن يتقيدوا بالحياة الدينية لتحسين الحياة الأخروية، خوفاً من الله سبحانه أو إدراكا للمنفعة؟.

والواقع أن اليسر والسهولة لدى الشرع والطبع لا يعني التحرر الإنساني في إشباع الهوى أو انطلاقه عن تعاليم الدين و مسكةِ العقل أو كونه وحشي السلوك بهيميَّ الأعمال، أو رهنَ إشارة الهوى ومغلولَ النفس، كلا؛ بل اليسر كله أن ينهى نفسه عن الهوى، ويتقيد بشريعة الله رب العالمين، الذين هو أعلم بمصالح العباد من مضارهم، وأرحم بهم من الأبوين الشفيقين. فليس من الشفقة و اليسر في شيء أن يُترَك طفل صغير وشأنه، يفعل ما يشاء، فهو يجلب مصائب كثيرة على نفسه وصحته؛ بل التربية الحقيقية واليسر الواقعي أن يُجبَر على إطاعة المربي واتباعه، وإن بكى وصاح، وتمرد وانبطح.

وهكذا الإنسان الضعيف؛ فإنه مهما تقدم في سنه و خبرته، قصَّر عن تمييز المضار من المصالح، والطالح من الصالح، فهو من الله – سبحانه-، كالطفل العاجز الجاهل من الأبوين والمربين أو أحقر منه، فتحصر سعادة هذا الإنسان في ترك الهوى واتباع الشريعة الربانية، وإن نادى وصاح وطغى وأشاع: إن هذا الباب لا يتصل بالشريعة، وإنه حر في باب اللباس، وإن تكليفي بالأمر الفلاني مخالف لحديث "الدين

يسر"[1]،فيقال له: إن هذا القيد هو عين الحرية، وهذا الضيق هو مجلبة المسرة.

فالحديث الذي جعلوه رمز الحرية والانطلاق لم يأت إلا بما يفيد التقيد والاتباع، ونفس الدليل وقع عليهم لا علينا.

وبعد هذا أقول لمن لهم شغف بعلم الحديث: أوَ ليست دواوين الحديث – التي جاء فيها "الدين يسر"- تحمل الأحاديث التي تبين الحدود الشرعية ، فكيف تكون هذه الحدود مخالفة لحديث "الدين يسر"؟ وإلا تعارضت الأحاديث؛ بل معنى "الدين يسر" – وقد أوضحته سابقاً- أن هذه الحدود و القيود هي اليسر كله، والتوغل في اتباع الهوى، والتقيد بقيود النفسانية – التي هي في ظاهرها تحرر وسهولة- هو عين الضيق والمفسدة.

فالحديث الذي لاذت به الجماعة المتمردة أصبح حجة عليهم، والقيود التي ظنتها ضيقاً ثبتت سهولتها ويسرها؛ حيث إن حديث "الدين يسر" – بدل أن يُثْبِتَ الحرية الإنسانية في أمور الدين- أفاد وجوب اتباع الشريعة والتقيد بأحكامها، كما ظهر وبكل وضوح أن هذه الجماعة السطحية انخدعت بظاهر ألفاظ الحديث، ولم تدرك حقيقتها، فأخطأت في فهمه، مع أن باطن الحديث صالح للاستدلال كظاهره حسب الحديث "لكل آية ظهر وبطن".

وهذه التفاهة والسطحية أدت بهم إلى استغلال قول الفقهاء: "اللباس من سنن الزوائد"، حيث أباحوا بذلك جميع الموضات المعاصرة في اللباس؛ واعتبروه هو مطلب الفقهاء، مع أنهم جانبوا الصواب في فهم هذه الجملة أيضاً، فإنهم تشبثوا

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٣٩.

بظاهر الألفاظ، وتنكروا لمعانيها، فإن قولهم "اللباس من سنن الزوائد" إذا حُمِل على أنه ليس من الدين في شيء، فماذا نقول في أحكام اللباس الكثيرة المتواجدة في الكتب الفقهية، أهي كلها إلى الضياع أم افتراء على الفقهاء أنهم قالوا ما لم يقله الله؟.

إنَّ "سنن الزوائد" إن كانت تعني أنها أمور ليس لها صلة بالدين، واعتبرها الشرع عبثاً ولغواً، فيجب إلغاء جميع السنن غير السنن المؤكدة وسنن الهدى، سواء كانت سنن العبادات أم العادات، مع أن إطلاق لفظ "السنة" على اللباس دليل على كونه جزءاً من الدين.

أما سبب التعبير بسنن الزوائد فهذا ليس بناشيء عن اعتبارها خارجة من الدين؛ بل لئلا تُعتبر قربة مقصودة بذاتها؛ فإن اللباس ليس قربة بذاته، فهو ليس كالصلاة والصوم عبادة في ذاته وصورته: بل هو قربة لغيره، والمعنى أنه إذا نوى فيه اتباع الشريعة، وراعى حدوده، يُثاب عليه وإلا فلا، فاللباس عادة بذاته وعبادة لغيره، فكلمة "سنن الزوائد" تبين خفة الشروط في اللباس لا خروجه من الدين.

والحاصل أن الشرع أتى بتفصيل كاف فيما يتعلق باللباس، وقد ذكرت بعض الأحكام.

وبعد هذا الإيضاح لا يتغير الحكم الشرعي بالاستدلال الخاطئ بالحديث وعبارات الفقهاء؛ فإن الفقهاء – رحمهم الله- استنبطوا من النصوص الجزئية القواعد الكلية، ثم بنوا هذه القواعد على علل مطردة معلومة، وفي ضوء هذه القواعد استخرجوا الفروع الفقهية الكثيرة، ورتبوا دستوراً إسلامياً شاملاً، لا نحتاج معها أبدا إلى دستور جديد، ولا إلى تعديل فيه وتغيير، ونسخ وزيادة، نعم! إن فهم هذا الدستور وإدراك غوره في حاجة إلى علم وبصيرة، فلا يتكلم فيه كل من هب ودب، ولا يجوز لمن هو دون مستوى الفقيه أن يشرح آية من آيات الله أو يعالج نازلة من النوازل. فإن

الله سبحانه خلق لكل فن رجالا، والجوهري هو العمدة في معرفة الخالص من الزائف في الذهب والفضة، والمشاكل الطبية والأدواء المزمنة لا يعالجها قضاة المحكمة ومحاموها، وإن بلغوا في علومهم القمة، وإن أقدموا على هذا لا يُعبأ بهم.

فالعلماء بالعلوم الشرعية هم المرجع في فهم مرادات الله تعالى في الكتاب ومعاني الحديث الشريف، وأقوالُهم هي الحجة في هذا الباب، فإن هذا الأمر المهم لا يُوْكَلُ إلى من يفقد المذاق السليم في الشريعة والرسوخ العلمي والعملي، فكيف تجرَّأ هؤلاء الحمقي المتنورون – زعماً- على شرح حديث "أنتم أعلم بأمور دنياكم" أو حديث "الدين يسر" شرحاً يصادف هوى في قلوبهم، ثم نهضوا لمقاومة من يتصدى لهم، عياذا بالله.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [سورة الأعراف: ٩٩].

إن موضوع اللباس –كما ثبت ولله الحمد- موضوع شرعي بُحْتٌ؛ تناوله الإسلام من جميع الجوانب والجهات، فقرر حلاله وحرامه، وبين ما هو لباس أهل التقى، وماهي موضات أهل الغواية.

فلم يعد لأهل الهوى بعد تدخل في هذا الباب؛ ولو بأي طريق.

وبغض النظر عن هذه الشبهات يتلخص البحث في أن الأصل في اللباس هو إصلاح الخلق الباطني اللباسي، والسبيل إلى هذا هو إصلاح اللباس الظاهري، والإصلاح الظاهري يقوم على ركنين مهمين: موافقة لباس الأتقياء، وترك التشبه بملابس الأشقياء، وبما أن الترك يسبق العمل، فيجب على المسلمين أولاً ترك التشبه بالكفار، فكأن تركَ التشبه بالكفار هي النواة الأولى لثمرات وخيرات اللباس، وجميع التفاصيل ذات الصلة باللباس تمثل تمهيداً للتشبه بالكفار وتفريعاً عليه، وأرجو أن أكون وُفِّقت في شرح هذا المبدأ بأسلوب جاذب.

وفي الفصل الأخير تغير الأسلوب، فجاء فيه نوع من الشدة عفويًّا، فأعتذر عن هذا، و أقول مخلصاً للإخوة الذين تورطوا في التشبه بالكفار بدافع نفسي أو بظاهرة المجتمع، أقول لهم: عليكم بلباس أهل التقى والصلاح، ولا تضيعوا الاستقلالية القومية أمام قوى العالم؛ فإن اللباس شعار قومي وديني بارز، فإن عجزتم – ولا قدر الله- عن اختيار لباس أهل الزهد والصلاح، فلا أقل من أن ترفضوا ملابس الكفار، التي تجـُـرُّ الكثير من الأخلاق الفاسدة، فإن الاستقلالية في الفكر والمظاهر هي شعار هذه الأمة، ومجلبة الخيرات في الدنيا والآخرة.

ولا أجد هنا من بد من التصريح بأن هناك كثيرين من المسلمين في الهند والدول الإسلامية الأخرى ممن التزموا بلباس أهل التقوى يمتنعون عن الاقتراب من المعاصي والذنوب، لم يمنعهم من ذلك إلا لباسهم ووضعهم الديني، فوضعهم الديني و هيئتهم الدينية تضطرهم إلى اجتناب محافل الشر و مجالس الذنوب، وصيحاتِ أولي الدعارة، أو ليس هذا واقعا مشاهَداً؟ بلى، فرب مسلم ذي هيئة شرعية يجتنب مئات من الذنوب علنًا، كالسرقة والقمار والخمر والزنا والفواحش وهتك الأعراض وما إليها من الذنوب؛ لأن هيئتهم لا تسمح لهم بذلك، وتُعَـيِّرُهم بها، كما أن كثيراً ممن أضاعوا الهيئة الشرعية في اللباس وغيرِه، تدفعهم دفعا هيئـتُهم غير الشرعية إلى ارتكاب المحظورات، ومجالسة الأشرار، وتعاطي المنكرات.

فإذا كانت الهيئة الإسلامية الصحيحة تمنع عن المحظوارت الشرعية، وهو واقع مشاهد بلا شك، وإن كانت-الهيئة- في بدايتها ناشئة عن الريا وغيره، فلا أرى بعد هذا الواقع المشاهد حاجة إلى إقامة دليل على اختيار الوضع الإسلامي وترك التشبه بالوضع الكافري.



الفصل الثاني:

وقفة مع الشبهات المثارة حول حديث "من تشبه بقوم فهو منهم"

وبما أسلفت بانت المسألة من جميع الجوانب، ولله الحمد، وتجلى مدى اهتمام الإسلام بهذه المسألة، وضرورة هذا الاهتمام في ضوء العقل والنقل؛ ولكن بقي استئصال شأو تلك الشبهات التي لاذ بها المخالفون، وأرادوا أن يغضوا من أهمية التشبه بالكفار، فيجب أن أضع تلك الإيرادات على محك النقد وميزان الدليل، وأفنِّدها بحجج قطعية، وأزيلها من أسها؛ حتى يتضح الموضوع وضوحَ الشمس في رابعة النهار، ويستقيم المنزل لطلاب الحق وعشاق الهدى.

والشبهات المثارة هنا مختلفة فيما بينها في الصورة والغرض، منها ما يؤثِّر في القضايا العقائدية، ومنها ما له انعكاسات بارزة في الأمور العملية؛ بينما ترمي بعض الشبهات إلى إنكار المسألة وقطع جذورها، والبعض الآخر يصنف المسألة ضمن الأمور غير المهمة.

ثم الشكوك ذات الصلة بالعقائد نوعان: نوع رد على المسألة بحيلة العمل بالشريعة، فجاء الرد على المسألة بتأويل واهٍ للنصوص؛ حتى لا يُتّهموا بتكذيب الدين.

وذهب بعض الحمقى مذهب تكذيب وجحود؛ بل جعلوا هواهم حجة، وعقولهم معيارًا للحق والباطل.

وإني – بفضل الله وتوفيقه- سأقوم بتقييم دقيق لدلائل الفريقين، ثم أكشف عن جوهر الموضوع المطوي في خفايا الموضوع، الذي جهله المخالفون، ومما حوّل الموضوع من حقيقة ثابتة إلى أمر متوهم مشكوك فيه. وبالله التوفيق.

المبحث الأول: عرض الشبهات والإجابات عنها

إن النوع الأول من المخالفين (الذين برزوا كمجتهدين في الشريعة) زعم من خلال الخطب القومية والمحاضرات السياسية الرنانة والكتابات المطبوعة أن مسألة التشبه بالكفار مسألة مستحيلة العمل، مستعصية التطبيق.

وبما أن المسألة قامت على حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" فلم يدخروا وسعاً في طعنه وتضعيفه.

وقد يأتي في طلائع هؤلاء، السيد أحمد خان مؤسس جامعة على جراه-بالهند، الذي يبدو أنه جعل قطع صلة الأمة عن شعائرها القديمة وعاداتها المتوارثة مقصد حياته، فسوَّد عدداً لا بأس به من صفحات مجلته "تهذيب الأخلاق" لإثبات أن هذا الحديث واهٍ لا يُحتج به، وضرب على المسألة من الصميم، فوجّه ست شبهات إلى المسألة، واحدها يتصل بالحديث سنداً ورواية، والأخرى تتحدث عن الحديث دراية.

يقول السيد أحمد خان في مجلته "تهذيب الأخلاق" (العدد الرابع، ص٤ عام ١٢٩٠هـ) عن الشبهة ذات الصلة بالرواية:

"وأول ما أود أن نقول هنا: إن الحديث غير ثابت لا رواية ولا دراية، أما الرواية فلأن في سنده انقطاعًا، ولم يتصل سنده إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم-

فإن صيغ الرواية لا تقضي على احتمال وجود راوٍ بين "حسان"[1] و"أبي منيب"[2]، والانقطاع يسقط حجية الحديث وصحته".

ولست في حاجة إلى جواب تفصيلي عن هذه الشبهة المجهولة؛ فإن الإمام المحدث الشهير الحافظ ابن تيمية قد ردَّ على هذه الشبهة رداً علمياً في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم" وبه كفاية، فأذكر أولا الحديث مع سنده بالتالي:

(١) وهو "حسان" بن عطية المحاربي، مولاهم أبو بكر الدمشقي. روى عن أبي إمامة وعنبسة بن أبي سفيان وخالد بن معدان وسعيد بن المسيب وابن المنكدر ونافع مولى بن عمر والقاسم بن مخيمرة وأبي الأشعث والصنعاني وأبي كبشة السلولي وأبي منيب الجرشي ومحمد بن أبي عائشة وأبي قلابة وغيرهم، وأرسل عن أبي واقد الليثي، وعنه الأوزاعي وأبو غسان المدني وعبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان والوليد بن مسلم وغيرهم، قال حنبل عن أحمد وعثمان الدارمي عن بن معين: ثقة، وقال بن أبي خيثمة عن بن معين :كان قدريا، وقال سعيد بن عبد العزيز: هو قدري، فبلغ ذلك الأوزاعي فقال: ما أغر سعيدا؟ بالله ما أدركت أحدا أشد اجتهادا ولا اعمل منه، وقال الجوزجاني: كان ممن يتوهم عليه القدر، وقال العجلي: شامي ثقة، وقال الأوزاعي: كان حسان يتنحى إذا صلى العصر في ناحية المسجد، فيذكر الله حتى تغيب الشمس، وقال خالد بن نزار: قلت للأوزاعي: حسان بن عطية عن من قال، فقال لي مثل حسان ،كنا نقول له عن من قلت، وذكره بن حبان في الثقات، وذكره البخاري في الأوسط في فصل من مات من العشرين إلى الثلاثين ومائة، وقال كان من أفاضل أهل زمانه؛ وابن حجر العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، ج٢، ص٢٥١.

(٢) هو: أبو المنيب الجرشي الأحدب، الدمشقي، من الطبقة الرابعة، ثقة، وقال الإمام ابن تيمية: وأما أبو منيب الجرشي فقال: فيه أحمد بن عبد الله العجلي هو ثقة وما علمت أحدا ذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، ج١، ص٦٧٦؛ وابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٢٧٠.

"حدثنا عثمان بن أبي ضيبة[١] قال: حدثنا أبو النصر يعني هاشم بن القاسم[٢] قال: حدثنا عبد الرحمن بن ثابت[٣] قال: حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "من تشبه بقوم فهو منهم"[٤].

تكلم الإمام ابن تيمية في رواة هذا الحديث بالتالي: "وهذا إسناد جيد؛ فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عيطة ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين، وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال: هم من رجال الصحيحين".

---

(١) هو: عثمان بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، أبو الحسن بن أبي شيبة، صاحب التفسير والمسند المشهور، من الطبقة العاشرة من الكوفيين، من حفاظ الحديث الثقات المشاهير، قال ابن حجر في تقريب التهذيب: "ثقة حافظ شهير وله أوهام، وقيل: كان لا يحفظ القرآن"، مات سنة ٢٣٩ هـ، وعمره ٨٣ سنة؛ وانظر: ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، ج٧، ص١٤٩.

(٢) هو: هاشم بن القاسم بن مسلم الليثي، مولاهم، البغدادي، أبو النضر، مشهور بكنيته ويلقب بقيصر، من الطبقة التاسعة في البغداديين وكان ثقة، قال ابن حجر في تقريب التهذيب: "ثقة ثبت"، توفي سنة (٢٠٧ هـ)، وعمره (٧٣) سنة؛ وانظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٧، ص٣٣٥؛ وابن حجر، **تقريب التهذيب**، ج٢، ص٣١٤.

(٣) هو: عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان العنسي الدمشقي، صدوق يخطئ، مات سنة ١٦٥هـ، قال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله: ليس به بأس، وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم: هو ثقة، وقال أبو حاتم: هو مستقيم الحديث؛ وانظر: ابن حجر العسقلاني، **تقريب التهذيب**، ج١، ص٤٧٤.

(٤) أخرجه أبو داود في **سننه**، رقم ٤٠٣١.

وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبوزرعة وأحمد بن عبد الله: ليس به بأس.

وقال عبد الرحمن بن إبراهيم: هو ثقة، وقال أبو حاتم: هو مستقيم الحديث.

وأما أبوه منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي: هو ثقة، وما علمت أحداً ذكره بسوء"(١).

وبهذا الكلام الدقيق ذهب هباءً منثوراً ما أورده سيد أحمد خان من شبهة موهومة في ضعف الرواة.

أما قوله: "صيغ الرواية لا تنفي وجود راوٍ بين حسان وأبي منيب" فلأن الاستدلال بصيغة الرواية على انقطاع الحديث قولٌ يثير الضحك والعجب، ثم هذه الشبهة المتمثلة في قوله "لا تنفي احتمال" هي الأخرى عجيبة.

فبقى إيراده بدوره مجهولا فضلاً عن ثبوت الانقطاع بين حسان وأبي منيب، فلم يعد بعد ذلك أي حاجة إلى الجواب عن هذه الشبهة؛ ولكن أذكر على سبيل الفضل ما قاله العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد سمع منه حسان ابن عطية، وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث"(٢).

فلم يبق لكلام السيد أحمد خان وزن وقيمة أمام دليل العلامة ابن تيمية، واحتجاجِ الإمام أحمد بن حنبل به.

ثم موضوع التشبه بالكفار لا ينحصر أساسه في الحديث المطروح؛ بل

---

(١) ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم**، ج١، ص٢٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٠.

أخرجه الطبراني[١] في المعجم الكبير والمعجم الأوسط[٢] عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه–، والبزار[٣] في مسنده عن حذيفة[٤] وأبي هريرة[٥] –رضي

(١) هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم: من كبار المحدثين. أصله من طبرية الشام، وإليها نسبته. ولد بعكا عام ٢٦٠هـ، ورحل إلى الحجاز واليمن ومصر والعراق وفارس والجزيرة، وتوفي بأصبهان سنة ٣٦٠هـ. له ثلاثة (معاجم) في الحديث، منها (المعجم الصغير، رتب فيه أسماء المشايخ على الحروف. وله كتب في التفسير و الأوائل و دلائل النبوة وغير ذلك؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص١٢١.

(٢) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، **المعجم الأوسط**، (القاهرة: دار الحرمين، د.ط، د.ت)، رقم ٨٣٢٧.

(٣) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار: حافظ من العلماء بالحديث. من أهل البصرة. حدّث في آخر عمره بأصبهان وبغداد والشام، وتوفي في الرملة. له مسندان أحدهما كبير سماه البحر الزاخر، والثاني صغير؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص١٨٩.

(٤) هو الصحابي الجليل: حذيفة بن حسل بن جابر بن العبسي، واليمان لقب أبوه حسل، وهو صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المنافقين، فقد أخبره بأسمائهم واستكتمه، فحفظ سر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، شهد أحدا مع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدائن ببلاد فارس، فقام بالولاية أحسن القيام وفتح همدان والري وماه وسندان، وصالحه صاحب نهاوند.
كان الناس يسألون الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الخير، وكان يسأله عن الشر مخافة أن يقع فيه، توفي رضي الله عنه في المدائن عام ٣٦ هـ؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **أسد الغابة**، ج١، ص ٣٩٠– ٣٩٢؛ و**الأعلام** للزركلي ج٢ ،ص ١٧١.

(٥) هو الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب بـ "أبي هريرة": كان أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له. نشأ يتيما ضعيفا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلّى الله عليه وسلم بخيبر، فأسلم سنة ٧ هـ، ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثا، نقلها عن أبي هريرة

الله عنهما-، وأبو نعيم في تاريخ الأصبهان عن أنس[1] مرفوعاً، والقضاعي عن طاؤوس[2] مرسلاً[3].

أكثر من ٨٠٠ رجل بين صحابي وتابعي. وولي إمرة المدينة مدة. ولما صارت الخلافة إلى عمر، استعمله على البحرين، ثم رآه ليّن العريكة مشغولا بالعبادة، فعزله. وأراده بعد زمن على العمل فأبى. وكان أكثر مقامه في المدينة وتوفي فيها. وكان يفتي، وقد جمع شيخ الإسلام تَقِيّ الدِّين السُّبْكي جزءا سمي "فتاوي أبي هريرة"، ولعبد الحسين شرف الدين كتاب في سيرته "أبو هريرة"؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص٣٠٨.

(١) هو الصحابي الجليل أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، شهد بدرا وهو لم يبلغ سن الرشد، خدم الرسول عشر سنين، فكان من المكثرين لرواية الحديث، دعا له الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم بكثرة المال والولد ودخول الجنة، واستعمله أبو بكر وعمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك، ثم استقر منزله بالبصرة حتى توفي بهارضي الله عنه سنة ٩٣هـ. عن أكثر من مائة سنة؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة ، ج١، ص٧١**؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٩، ص٨٨-٩٢.

(٢) هو طاووس بن كيسان الخولانيّ الهمدانيّ، بالولاء، أبو عبد الرحمن: من أكابر التابعين، تفقها في الدين ورواية للحديث، وتقشفا في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ولد في اليمن سنة٣٣هـ ونشأه فيها. توفي حاجا بالمزدلفة أو بمنى سنة ١٠٦هـ، وكان هشام بن عبد الملك حاجّا تلك السنة، فصلى عليه. وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر، وطاووس، والثوري؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٣، ص٢٢٤.

(٣) زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، **التيسير بشرح الجامع الصغير**، (الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج٢، ص٤١٠.

يقول ابـن القـيم[1]: رواه الحـاكم[2] في مسـتدركه عـن ابـن

(١) هو العالم الجليل أحد أعلام الأمة الإسلامية الشيخ محمد بن أبي بكر بن أيـوب بـن سـعد الزُّرْعـي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلـماء. ولـد في دمشق سنة ٦٩١ه، وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله؛ بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الّذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وطيف به على جمل مضروبا بالعصى. وأطلق بعد مـوت ابـن تيمية. وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عددا عظـيما، وكتـب بخطه الحسن شيئا كثيرا. وألّف تصانيف كثيرة ذات قيمة واعتبار، تعد مراجع هامة في مواضـيعها؛ وانظر: الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ٥٦.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضـبي الطهـاني المعـروف بالحاكم النيسابوري، الحافظ المعروف بابن البيع؛ إمام أهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتـب التي لم يسبق إلى مثلها، كان عالما عارفا واسع العلم، تفقه على أبي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي الفقيه الشافعي، ثم انتقل إلى العراق وقرأ على أبي علي ابن أبي هريرة الفقيه ثم طلب الحديث وغلب عليه فاشتهربه، وسمعه من جماعة لايحصون كثرة فإن معجم شيوخه يقرب من ألفـي رجـل حتـى روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه. وصنف في علومه مايبلغ ألفـا وخمسـمائة جـزء، منها "الصحيحان" و "العلل" و "الأمـالي" و "فوائـد الشـيوخ" و "أمـالي العشـيات" و "تـراجم الشيوخ". وأما ما تفرد بإخراجه فمعرفة علوم الحديث و "تاريخ علـماء نيسـابور" و "المـدخل إلى علم الصحيح" و "المستدرك على الصحيحين" و "ما تفرد به كل من الإمامين" و "فضائل الإمـام الشافعي" رضي الله عنه.

وله إلى الحجاز والعراق رحلتان، وكانت الرحلة الثانية سنة ستين وثلثمائة، ونـاظر الحفـاظ وذاكـر الشيوخ وكتب عنهم أيضا، وباحث الـدارقطني قرضـية، وتقلـد القضـاء بنيسـابور في سـنة تسـع وخمسين وثلثمائة في أيام الدولة السامانية ووزراء أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي، وقلـد بعـد ذلك قضاء جرجان فامتنع، وكانوا ينفذونه في الرسائل إلى ملوك بني بويه.

وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلثمائة بنيسابور وتـوفي بهـا يـوم الثلاثـاء ثالث صفر سنة خمس وأربعمائة، وقال الخليلي في كتاب الإرشاد: توفي سنة ثلاث وأربعمائة.

وسمع الحديث في سنة ثلاثين، وأملى بما وراء النهر سنة خمس وخمسين، وبالعراق سنة سبع وستين، ولازمه الدارقطني، وسمع منه أبو بكر القفال الشاشي، وأنظارهمـا؛ وإنـما عـرف بالحـاكم لتقلـده القضاء، رحمه الله تعالى؛ والزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص٢٨١.

عمر[1].

فإن تسرب ضعف إلى طريق من الطرق، انجبر بكثرة الطرق حسب قواعد علم الحديث، فلا يجوز لأحد أن يتصدى لتضعيف الحديث ويبطل كلام النبوة؛ لكونه يخالف هواه. أعاذنا الله منه.

المبحث الثاني: الشبهات ذات الصلة بالدراية

المطلب الأول: الشبهة الأولى والرد عليها

الشبهة الأولى: يقول السيد أحمد خان في مجلته "تهذيب الأخلاق": "لم يذكر الراوي مورد الحديث، وجهالة المورد لا تفيد حكمًا من الأحكام، لا من جهة الدلالة ولا الاستنباط والقياس".

والجواب: الادعاء بجهالة المورد باطل، يبطله احتجاج الصحابة به في كثير من أمور الدين والدنيا، (كما سبق ذكره في الباب الأول، وسأذكره في الأبواب التالية) فإنه يتحتم -على أقل الأحوال- أن المواضع التي تم فيها الاستدلال بالحديث يمكن أن يكون مورد الحديث معلومًا؛ ثم جهالة المورد لا تؤثر في الحديث بعد وضوح المعنى والغرض.

فالحديث يتضح معناه بمدلوله اللغوي حسب قواعد الشريعة؛ بل القواعد الفقهية تنص بأنه لا عبرة للمورد وإن تعين؛ بل "العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المورد".

فاللجوء إلى هذا السؤال باطل.

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ج١، ١٣٧.

المطلب الثاني: الشبهة الثانية والرد عليها

الشبهة الثانية: يقول السيد في نفس الصفحة: "الأمر الثاني أن لفظ "قوم" الوارد في الحديث لا يفيد شيئاً؛ فإن كون الرجل من قوم أو مشابها لقوم لا يؤثر في الحكم الشرعي، فما ذنب رجل ينتمي إلى القوم الهنود أو الإيرانيين أو البشتانيين أو الروسيين أو الإنجليزين؟ ويلبس من الملابس ما يُظْهِر هويته القومية، ويعتبره الناس بسببه واحداً من قومه، وهل تأتي هذه العملية بنتيجة شرعية مغائرة؟.

الجواب: إن هذا التشابه لا يأتي بنتيجة واحدة؛ وإنما بنتائج عديدة كالآتي:

١- **ذوبان المميزات:** النتيجة الأولى رفع الامتياز بين أمة الإسلام و أمم الكفر؛ مع أن الشريعة حريصة على إبقاء هذا التميز، وإلغاء كل ما يتم به الالتباس والتشابه، وقد سبق في هذا الشأن بيان مقنع في ضوء الكتاب والسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين، ومن البديهي أن التشبه بقوم يذيب هذا التميز.

٢- **تقوية حجة الكفار:** إذا غاب الامتياز وحدث الالتباس، ولو صورةً اتخذ الكفار هذا التشابه حجة على المسلمين، وطمعوا في التشابه والالتباس في الجوانب الأخرى، مع أن من أهداف الإسلام قطع كل حجة من حجج الكفار؛ فإن نسخ حكم القبلة أزال الاشتراك الصوري في العبادة "**لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِمْ حُجَّة**".

٣- **الاستخفاف بالشريعة:** إن التشبه بالكفار يلغي ما رسمه الإسلام من حدود في الملابس، وأودعه فيها من ثمار روحية (كما سنتحدث عن هذه الثمار في الباب الآتي) ويدعو الاستخفاف بالشريعة والاستهزاء بالدين، وهذا نوعٌ من إهانةِ الدين،

والاستهزاءُ بالدين الإسلامي ظل شعار أعداء الدين، فالمولعون بالحضارة الغربية والمتطفلون على مائدتها لا ينظرون إلى الشرائع الإسلامية نظرة احترام وتقدير، فيما يتعلق بالملابس والاجتماع؛ بل ينظرون نظره ازدراء وتحقير، وإقبالُ المؤمن على ما يشف عن الاستهزاء بالدين نوع من النفاق.

٤- **الركون إلى الأغيار:** ثم لا تنشأ عاطفة التشبه بقوم بدون الركون القلبي إليهم، والركون إلى الكفار محظور: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣**﴾ [سورة هود: ١١٣].

فكيف تجوز عملية، منشأها محظور في الشرع؟.

٥- **الخروج على سنة السلف:** والتشبه بالكفار يذهب بما بذله السلف من جهود في قطع التشبه بالكفار، لاسيما فيما يتعلق بالملابس، فستذهب كل محاولات السلف أدراج الرياح في هذا الشأن، يبطل ويلغو ما أمر به أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه الجارية المدعوة "وفا" من خلع ملابس الحرائر زاجراً لها: أتشبهين بالحرائر؟ ويبطل ما أمر به الخليفة عمر بن عبد العزيز نصارى بني تغلب من نزع الملابس العربية، وتقطيعها على تشكيلات تخالف زي المسلمين، ويبطل ما قضى به القاضي أبو يوسف من ارتداء العلماء والفقهاء ملابسَ تخالف ملابس العامة، حرصاً منه على التمييز بين العلماء والجهلاء، ويبطل ذلك القول التاريخي الذي قاله أحد أساتذة المحدث أبي داؤد السجستاني لأمير زمانه الذي كان لابسا اللباس الرقيق: "أميرنا يلبس ثياب الفساق".

ويبطل كذلك اهتمام العلماء في القرون المتأخرة بالفروع الكثيرة المنصبة في محيط التشبه بالكفار، كل هذه المحاولات والتأكيدات ستلقى حتف أنوفها إذا تسامحنا

في باب التشبه؛ وتعاملُ السلف حجة شرعية مستقلة لا تقبل النقض؛ حتى كان الإمام مالك إمام دار الهجرة يعتبر تعامل أهل المدينة أقوي ما يتم به الترجيح بين الأحاديث المتعارضة.

٦- **الشهادة السيئة:** قبول المسلم صورة الكافر يوهم أنه ليس بمسلم أو هو مسلم رسماً، وسَلِم قلبه عن الاعتراف بعظمة الدين، وهذا من أمارات النفاق، دعاه إلى هذا الوهم تشبه المسلم بالكافر في مظهره وصورته، أَوَ لا يحمل هذا الوهم الذي يُظهِر المسلم في صورة الكافر أو المنافق أي أهمية عند الله؟ أنتم شهداء الله في الأرض.

٧- **إجراء أحكام الكفر:** على أن هذا المتشبه بالكافر إذا اعتبره الناس واحداً من الكفار فليس من البعيد أن يترك المسلمون التعامل معه كمسلم، فمثلا إذا مات في مكان، تركوا الصلاة عليه ودَفْنَه في مقبرة المسلمين، وهذا خسران عظيم.

فإن حصرنا التشبه في الملابس –كما قال السيد خان– أفلا يعود هذا التشبه بالملابس بنتائج شرعية؟ أَوَ ليس من الأمور الشرعية الهامة إلغاء التميز بين الأقوام، ومصادفة الكفار الحجة على المسلمين، والاستخفاف بالأوضاع الإسلامية، وركون المسلم إلى الكفار، وإلغاء سنة السلف، وشهادة سيئة للمسلمين، وعدم إجراء الأحكام الشرعية على المسلمين في الدنيا، بلى؛ فقد تناولت الشريعة الإسلامية هذه الأمور كلها بشرح وبيان إثباتاً ونفياً.

وإذا جاء التشبه بنتائج شاهدتها، فهل يجوز أن يقال: التشبه لا يأتي بنتائج ولا يغيِّر حكما شرعياً؟ وقد رأيت من النتائج ما رأيت، وكلها ناشئة عن التشبه، فصار التشبه بذلك محظوراً بذاته، ومحظوراً بنتائجه وآثاره.

المطلب الثالث: الشبهة الثالثة والرد عليها

الشبهة الثالثة: وهناك شبهة أخرى أثارها السيد أحمد خان في مجلة "تهذيب الأخلاق، ص: ٤" فقال ما حاصله: "وقد ارتدى النبي – صلى الله عليه وسلم- الجبة الرومية الضيقة الكمين، وهي لباس النصارى، وقد لبس الجبة الشامية، وهي لباس اليهود، وقد لبس الجبة الطيالسة، وهي لباس المجوس وعُبَّاد النار، فلو كان التشبه محظورا لما كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم- لِيَلْبَسَ هذه الثياب، وقد جاء في صحيح البخاري في كتاب اللباس: باب قول الله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣٢**﴾ [سورة الأعراف: ٣٢]. قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: كلوا واشربوا والبسوا(١) أي ما طاب لكم الخ.

الجواب: أقول: إن السيد أحمد أفرغ جهوده في البحث عن الآثار والروايات التي قد تفيده في إلغاء مبدإ التشبه بالكفار، فلم يتمكن من العثور إلا على هذه الفروع الثلاثة، فسردها بلافهم وإدراك.

وهناك ينشأ سؤال: سلمنا أن هذه الفروع الثلاثة تعارض مبدأ التشبه، فهل يرضى العقل السليم بإلغاء المبدإ بمسائل فرعية، أم يجب إبقاء المبدأ ببيان المحامل الصحيحة للفروع، التي يتم بها حفظ المبدأ وسلامة الفروع المعارضة؟.

إن الشرع القويم والعقل السليم لا يقضيان إلا بالثاني؛ فإن الكليات والمبادئ

(١) أخرجه أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى، **مسند أبي داود الطيالسي**، (مصر: دار هجر، ط١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩م)، رقم ٢٣٧٥.

تقوم على الأسباب الأصولية والعلل الكلية والأسرار الجامعة؛ بينما تظل الفروع الخارجة عن المبادئ ساكتة عن العلل الكلية، ومن المعقول أن يتم إخضاع الساكت للناطق.

فبالنظر إلى الفروع الثلاثة لا يسعنا إلا أن نقول: "هي واقعة حال لا عموم لها" والمعنى أن هذه الفروع قد خلت من العلل التي تتحدى مبدأ التشبه وتهدده.

ثم استعمال هذه الملابس -كما جاء في الحديث- لا يفيد في جواز التشبه بالكفار، فإن التشبه مأخوذ من الشبه، وهو أن يلتبس الشيئان التباسا أذاب المميزات، ولم يعد لأحد منهما كيان مستقل، وهذا التشبه لا ينشأ بين الإنسانين إلا إذا اختار أحدهما ما يختص بالآخر أو يميزه عن الغير، وقد عدمنا هنا من الدليل ما يدل على أن الجبة الرومية خاصة بالنصارى، والجبة الشامية خاصة باليهود، والجبة الطيالسية خاصة بالمجوس، فكيف يتم بها الاستدلال؟.

ونسبة الجبة إلى هؤلاء القوم لا تفيد أنهم كانوا يستعملونها فضلا عن الاختصاص، فإن المنتجات قد تُنْسَب إلى الموجد والصانع؛ كحذاء "داسن" وصابون بيرس، فإذا قلنا: إن الهنود يستعملون صابون "بيرس" وحذاء "داسن" لا يلزم منه أن بيرس" و"داسن" يستعملانهما، فضلا عن أن يكونا شعارهما، الخاص بهما؛ بل يستنبط منه أن هذه الأشياء مصنوعة من دكاكينهما أو من منتجاتهما، يستعملها الهنود.

وقد تُنْسَب الأشياء إلى مكان الصنعة والمدن المخصوصة والدول التي تمتاز وتشتهر بها، كملابس "إطاليا" و"بنارس"، فالمعنى أنَّ هذه الملابس تصنع في دولة "إطاليا" ومدينة بنارس.

فإذا قيل: إنَّ هذا الرجل ارتدى ملابس إطاليا أو ملابس بنارس، فهل يعني هذا أن هذه الملابس شعار أهل إيطاليا أو بنارس، وهذا الرجل يريد أن يتشبه بهم؟

كلا! فليس فيه ما يدل على أن هذه الملابس تُستعمل في إيطاليا فضلا عن الاختصاص؛ بل يمكن أن تُصنع لأغراض تجارية، وتُصَدّر إلى خارج البلاد، كالملابس الملونة ذات التشكيلات الجميلة، التي تُصْنع معظمها في أوروبا، وتُصَدَّر إلى آسيا، فلا يستعملها الأوروبيون، فاشتهرت هذه الملابس بالنسبة إلى الصناع وبلاد الصنعة مما لا دخل له في مبدأ التشبه بالكفار.

وهكذا إذا جاء في الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- لبس الجبة الرومية والشامية والطيالسية، فهل يُفهم منه أن هذه الملابس شعار هؤلاء الأقوام ومن ملابسهم المخصوصة؟ وأفاد الرسول – صلى الله عليه وسلم- بالاستعمال جواز التشبه بالكفار؟ كلا.

فإن هذه النسبة لا تفيد استعمال هؤلاء الأقوام لهذه الملابس، فضلا عن أن تكون شعارهم، وغاية ما في الباب أن هذه الملابس صُنِعَت في تلك الديار أو تُبَاعُ فيها ثم تُصدَّر إلى الخارج، واستعمل النبي – صلى الله عليه وسلم- ثوباً ذا منشأ خارجي.

وهذا كما جاء في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم- لبس بردًا يمانياً[(١)]، فهل يلزم منه أن هذا البرد كان شعار أهل اليمن، وتشبه بهم النبي – صلى الله عليه وسلم-؟ كلا، أو كما جاء في الحديث أن النبي – صلى الله عليه وسلم- استعمل

---

(١) كالحبرة التي كان يستعملها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، لاسيما في أيام العيد، والحبرة نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن؛ وانظر: الشافعي الإمام، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، **مسند الإمام الشافعي**، (بيروت: دار الكتب العلمية،د.ط، ١٤٠٠هـ)، ج١، ص٧٤.

قباطيا شامياً ومصرياً[1] (والقباطي رداء من الكتان، يرتديه الأقباط، وهذه النسبة ثابتة إلى العمال) فهل دل هذا على أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يتشبه بالكفار؟ عياذاً بالله.

مع أن هذه النسبة لا تفيد أن الأقباط يستعملون هذا الرداء فضلا عن دلالته على شعارهم، فالإقدام على إلغاء مبدأ التشبه بالكفار بفروع مبهمة غامضة استدلال أخرق، لا يُتَصور ممن له إلمام بالعلم ومسكة من العقل.

فإن من المقرر علميا أن المبدأ الكلي الهام إذا عارضته فروع عملية خالية عن العلة الواضحة، لا يجوز تغيير المبدأ الواضح العلة، البين الأسباب؛ بل يجب تأويل الفروع المعارضة، وإن لم يكن للتأويل وجه بين.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه– أنه رآه النبي – صلى الله عليه وسلم– ذات يوم، وعليه ثوبين معصفرين[2]، فقال: إن هذه من ثياب الكفار؛ فلا تلبسها"[3].

ولا تختص هذا الحكم بحلة حمراء زعفرانية؛ بل نهي عن كل حلة حمراء مطلقًا، ثم هناك حديث جاء فيه ما يخالف هذا الحكم الأصولي، ففي حديث صحيح

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله –صلى الله عليه و سلم–كان له قميص، قبطي الطول وقصير الكمين"؛ وانظر: عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، **المنتخب من مسند عبد بن حميد**(القاهرة : مكتبة السنة، ط١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م)، رقم ١٢٣٢.

(٢) أي: مصبوغين بعصفر، والعصفر صبغ أصفر اللون كالزعفران أو نفسه.

(٣) انظر: الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، رقم ٢٠٧٧.

ورد "وعليه حلة حمراء" أي استعمل النبي – صلى الله عليه وسلم- حلة حمراء"[1].

وأفاد العلامة ابن القيم في زاد المعاد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن استعمال الحمرة صريحاً، فلا يمكن أن يعمل بما نهى عنه، فمعنى الحديث أنه – عليه السلام- ارتدى حلة فيها خطوط حمراء، فإن هذه الحلة يمنية، والمعهود من الحلة اليمنية أن تكون فيها خطوط حمراء؛ ولكن وهم الناس بلفظ "الحلة الحمراء"، ونصه: " ولبس حلة حمراء، والحلة إزار ورداء، ولا تكون الحلة إلا اسما للثوبين معا، وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتا لا يخالطها غيره، وإنما الحلة الحمراء: بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمنية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط الحمر، وإلا فالأحمر منهي عنه أشد النهي[ثم ذكر بعض النصوص الدالة على حرمة استعمال الثياب الحمر، ثم تكلم عن كراهيته، فقال:] وأما كراهته فشديدة جدا، فكيف يظن بالنبي –صلى الله عليه وسلم- أنه لبس الأحمر القاني، كلا لقد أعاذه الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحلة الحمراء، والله أعلم"[2].

فهذه الفروع لا تؤيد السيد أحمد خان، ولا تنهض حجة في إلغاء مبدأ التشبه بالكفار، أما الاحتجاج بالآية الكريمة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ

(١) انظر: أخرجه الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، رقم ٥٠٣.

(٢) الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ج١، ص١٣٤.

﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٢]؛ والحديث "كلوا واشربوا والبسوا"(١)، وتفسير البخاري بقوله: ما طاب لكم فهو أكثر إثارة للعجب وأشد دلالة على مبلغ علم السيد.

أوَ يدل عمومُ هذه النصوص على حلة الخمر والخنزير والحرير للرجال؟ إذا قيل: لا، وذلك لورود نهي صريح في مواضع أخرى، فأقول: إن هناك دلائل تحرِّم كلَّ نوع من الزينة، يسبِّب التشبه بالكفار، فإذا عُمل بالدلائل التي تقيِّد هذا العموم في باب الأكل والشرب، وتحرِّم بعض المأكولات والمشروبات كالخمر والخنزير والسباع والأنواع الأخرى، فلا بد أن يُعمل بالدلائل التي تقيد عموم اللبس وتحرِّم بعض الأوضاع اللباسية كالحرير وزي الكفار والإسراف في التطريز.

الواقع أن هؤلاء لم يفهموا الحديث رأسًا، ولم يفكروا في مدلوله الشرعي واللغوي، ففي الحديث الآخر ما يشرح هذا الحديث، وهو "كلوا واشربوا وألبسوا ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة"(٢).

والمعنى أن هذه الأشياء إذا بلغت حد الإسراف والخيلاء والترف والبطر، فَقَدَت شرعيتها وعادت محظورة.

ومن هنا حُرِّم كلُّ لباس يشف عن الإسراف والمخيلة، ويحكي أوضاع الكفار في الإفراط في التنعم والترف، ويخلق في النفس الكبر مكان التواضع، والتوجه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط. د.ت)، رقم ٣٦٠٥.

إلى النفس بدل الإنابة إلى الله، وكذلك حُرِّم كلُّ مـأكول فيـه مجـاوزةٌ للحـد وإسراف وتبذير، وذلك بدلائل شرعية بسطتُّها في الفصل الماضي.

فالحديث الذي استدل به السيد أحمد خان على جواز التشبه بالكافر يشكل – في رأيي– دليلاً قوياً على منع التشبه؛ ولكن السيد يتمادى في دنياه، حيث يقول: "هذه الروايات لا تمنعنا عن استعمال أي لباس، فلا يجوز حمل التشبه عـلى التشـبه في الـزي واللباس"[1].

وفي صحيح مسلم أن النبي – عليه السلام– قال – وهـو يـذكر الـدجال–: يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة"[2]، ثـم رأى سـيدنا أنـس جماعة من المسلمين لبست الطيالسة، فكرههم قائلاً: ما أشبههم بيهود خيبر[3].

فَحَمَلَ الصحابي الجليل سيدنا أنس بن مالك التشـبهَ عـلى المشـابهة في الـزي واللباس، مما لا يرتضيه السيد أحمد خان.

يقول ابن القيم بعد سرد هذه القصة: ومن ههنا كره لُبسهَا السلفُ والخلفُ، لما روى أبو داود والحاكم في المستدرك عن ابن عمر عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: من تشبه بقوم فهو منهم[4].

فهذا دلَّ على أن السلف حملوا التشبه على التشبه بـالزي واللبـاس، وبعـد مـا

(١) مجلة تهذيب الأخلاق، السنة ١٢٩٠هـ، ص ٤١.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٢٩٤٤.

(٣) الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ج١، ص١٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٧.

ثبتت كراهية التشبه بزي الكفار ولباسهم بإجماع علماء الأمة من لدن الصحابة إلى يومنا هذا، فلم يبق وزن لقول السيد أحمد خان، الخارق للإجماع، نعم! له أن يَّمْـــرُقَ مما أجمعت عليه الأمة، ويَشَذَّ عن الصراط المستقيم، الذي سلكه علماء الأمة. عياذاً بالله منه.

المطلب الرابع: الشبهة الرابعة والرد عليها

الشبهة الرابعة: وهناك شبهة رابعة تمسك بها السيد أحمد خان في مجلته "تهذيب الأخلاق" (ص ٤٠) وهي كما قال: "إن جميع المسلمين بمن فيهم النبي الكريم – عليه السلام– وأصحابه كانوا يلبسون ما يلبسه الكفار العرب، فكانوا متشابهين في الزي واللباس؛ مع اختلافهم في الدين.

فلم يختلفوا في شيء غير الدين، فما معنى حديث: من تشبه بقوم فهو منهم؟ أوَلا يحكم العقل بأن الرسول –عليه السلام– لو وُلِدَ في لندن أو ألمانيا أو آسيا للبس ما يلبسه أهل هذه البلدان؟ فماذا يضير التشابه بين الأقوام"؟.

الجواب عن الشبهة: هذه الشبهة قائمة على أربعة أجزاء، جزء له صلة بحادثة خاصة، وجعلها فهمُ السيد مبدأ أساسياً، ثم استخرج من هذا المبدأ الموهوم مسألةً، هي في نفس الوهم والخيال، وبناء على هذا أصدر فتوى، تَفْضَحُ اجتهاده وبُعْدَه العلمي.

أما المسألة الفرعية فهي ما قال: "إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– والكفار العرب كانوا يلبسون لباساً واحداً". ومنها استنبط أن كل نبي خاضع لقومه

في اللباس والأمور الاجتماعية والتقاليد، ثم استنبط منها قضية وهمية، وهي أنه – عليه السلام- لو ولد في لندن وألمانيا للبس ما يلبسه سكان هذه البلاد من البنطلون والصدرية وما إليها، ثم دعاه اجتهاده إلى أن يقول: فلا بأس بأن يلبس المسلمون في الهند لباس النصارى، وإني أتناول هذه الأجزاء الأربعة بالبيان وهي كالآتي:

١- تشبه الصحابة بالكفار في الحلة

أوَّلاً لا نعترف بأن لفظ الحلة يُغْنِيْ شيئاً في باب التشبه؛ فإن الحلة –التي معناها الرداء والإزار- لا تحمل صورة أو وضعا خاصًا؛ بل هي أصل اللباس ومادته، ومن هُنا إذا مُنِع كل لباس مخيط في الإحرام تبقى الحلة مشروعة؛ فإنه لا يوجد لباس أصغر منه يستوعب البدن، فالحلة هي أصل اللباس، والتشبه يتعلق بوضع اللباس وصورته، لا بأصل اللباس ومادته، فإن الحكم بالتشبه بالنظر إلى لفظ الحلة يفيد ترك اللباس أصلاً، وهذا كما يُحكم بترك الأكل و الشرب و قطع الأذن والأنف وترك التعبد والإنسانية وعدم العيش تفادياً من التشبه؛ وقد أثبتُّ بدلائل أن هذه الأمور لا يجري فيها التشبه بالكفار.

ثم إذا سلمنا أن الحلة لها صورة وضعية، صارت شعار الكفار، فلا نسلم أن النبي –عليه السلام- أباح استعمالها بلا قيد وشرط؛ فإن المشركين يجـرُّون الحلة كبراً ومخيلة، بينما أمر النبي – عليه السلام-: " إزرة المؤمنِ إلى نصف الساق، فما كان إلى الكعبين فلا بأس، وما تحت الكعبين ففي النار"[1].

(١) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، **السنن الكبرى**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م)، رقم ٩٦٣٣.

كان المشركون يجرُّون الذيول جراً طويلاً، ويسبلون الإزار، شأن الملوك الجبابرة، وقد نهى – النبي عليه السلام- عن الإسبال، ولم يكن هذا النهي إلا منعاً عن التشبه بالكفار، فإنه لو استعمل النبي – عليه السلام- حلة الكفار التي تبرز عليها ملامح الكبر والخيلاء لكان من المستحيل أن ينشأ في قلبه الصافي مثقال ذرة من الكبر، فنهيه عن الإسبال مع هذا لا يؤدي إلا إلى منع التشبه، وإذا كان هذا النهي موجَّهاً إلى الأمة المسلمة كان غرضه الأصيل هو إبعاد المسلمين عن الكبر، والتشبه بالكفار في زيهم.

فاستعمال النبي – عليه السلام- هذه الحلة مع مراعاة هذه الحدود بأكملها ينهض حجة لمنع التشبه لا على جواز التشبه، كما فهم السيد أحمد خان.

وإن سلمنا أنه – عليه السلام- لبس حلة كفار مكة، وتشبه بهم، فكان هذا التشبه مؤقتا، ولأيام معدودة، مما لا يُعبأ به؛ فإن مشركي العرب لم يكن لهم خيار الجزية، فلم يكن لهم بد من أن يُسلموا أو يُقْتَلوا، فكان من اليقيني أن تتطهر أرض الحجاز من الكفر والشرك بعد أيام، فإن المشركين إما أن يكونوا مسلمين أو يكونوا مقتولين، وهذا يعني أن التشبه بهم لا جرم يزول بعد أعوام، فلم يعد من المعقول اجتناب هذه الحلة خوفاً من التشبه المؤقت.

وعلى كل؛ فإن هذه المسألة إما أن تخلو عن وجه الدلالة على جواز التشبه أو لا تدل على جواز تشبه مطلق عن قيود وشروط أو تدل على التشبه العارضي الموقت.

وفي ضوء مثل هذه المسألة، التي يحفها الغموض والإبهام يستغرب أن يقال: إن كل نبي يخضع لقومه في اللباس والاجتماع والمميزات القومية، وإن قاله أحد فهو

مثار الضحك والتعجب؛ فمثله مثل رجل يفرِّع المسائل على مبدأ لا أساس له، أو رجل يريد أن يستظل تحت أغصان شجرة لم ينبت لها شيء. مع أن الاستنباط والتفريع يحتاجان إلى ضابط كلي.

وإن سلمنا على سبيل الافتراض الفلسفي "أن لباس النبي – صلى الله عليه وسلم– ولباس الكفار كان سواء" فلا يدل هذا التشابه العملي المحض على أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان حريصًا على اتباع المشركين؛ حتى يقال ذلك القول المضحك: "إن كل نبي يخضع لقومه".

مع أن من الإمكان بكثير أن يتم هذا التشابه بصورة اتفاقية لا عن قصد وإرادة اتباع القومية والوطنية، وإن كان قَصَدَ الاتباع، فلم يقصد اتباع الكفار والمشركين؛ بل اتباع المسلمين الأوائل.

فإن المعترضين النقاد يجب عليهم أن يعرفوا –إن كان لديهم مسكة من العقل أو ذرة من الفقه– أن النبي – صلى الله عليه وسلم– اتبع من خلال استعمال هذه الحلة جدَّه إسماعيل، الذي أُمر هو باتباعه في النص القرآني، حيث أمره القرآن الكريم بأن يتبع الأنبياء السابقين – ومنهم إسماعيل– حيث قال بعد ذكر كثير من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

ولم يقيد هذا الأمر بالاقتداء بنوع من الأخلاق والأفعال والنيات؛ بل ذكره مطلقاً، فكل ما لم ينسخه الله من الشرائع السابقة يبقى داخلاً في الاقتداء، سواء كان له صلة بالعبادة أو بالعادة، أو باللباس أو الهيئة.

ومن جهة أخرى فإن سيدنا عمر الفاروق يعتبر هذه الحلة لباس إسماعيل؛ حيث أمر أهل آذر بيجان بارتداء حلة العرب قائلاً: "فاتزروا وانتعلوا وارموا

بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل"[1].

وبناءً على هذا قد اتبع النبي – صلى الله عليه وسلم- السلف الصالح في هذه الحلة، ولم يتبع الكفار والمشركين كما فهموا.

وبذلك قد انهار ذلك الأساس الذي بنى عليه المعترضون المشككون قصر جواز التشبه بالكفار.

فلم يبق لهم بعد هذا إلا أن يبحثوا عن أساس آخر لمبدأهم، لا نعرفه من بعد.

ونتقدم خطوة فنقول: إن ما تبنيتموه من مبدأ هو يشكل إهانة سافرة لشريعة الله الخالدة، وجرأة عظيمة على الله رب العالمين؛ فإن هذا يعني أن النبي – صلى الله عليه وسلم- لا يحمل أي توجيه رباني ولا إشارة غيبية، يَتَّبِعُها فيما يتعلق باللباس والاجتماع؛ بل هو في هذا الجانب يكون واحداً من الناس، يتقيد بالبيئة القومية وتقاليدها.

والمضحك أن يكون الرسول العظيم-عليه ألف ألف صلاة وسلام- مقلدَ قومٍ، فسدت عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم فساداً عظيماً، كانوا على حال، لم يقدر على إصلاحهم وترقيع ثيابهم المعنوية غيرُ الأنبياء، فبُعث النبي – عليه السلام- ليهديهم إلى الله، ويصلح ما فسد من أحوالهم.

ثم يُنسَب اتباع هؤلاء القوم الفاسدين عَقَديًّا وخلقياً إلى النبي الأعظم الذي شملت شريعته الجامعة كلَّ أمر من أمور الدين والدنيا، وأقام أسوة حسنة وحضارة شاملة في كل ماله صلة بالحياة الإنسانية، كالخلق والعمل والصورة والسيرة والعادة

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٤١٨٧.

والعبادة، فلا خير إلا دعا إليه،ولا شر إلا حذَّر منه، وجاءت شريعته جامعة مكتملة الأبعاد، بحيث ثارت الضغينة في قلوب الحساد، وعجبوا من شمولها؛ حتى لآداب الخلاء، واضطروا إلى أن يقولوا حسرة وأسفاً "ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه"(1).

والواقع الأرضي الثابت أن الشريعة الإسلامية ما قام بناؤها على شيء من اتباع الغير؛ بل على نور الوحي وضوء التوجيه الرباني، فأصبح ليلها ونهارها سواء. فمَنْ أظلمُ بعدهذامن يعتقدبنقص الشريعةالإسلاميةفي جانب من جوانب الحياة البشرية؛ بل يتقدم فيقول: الشريعة تابعة لأهل الهوى في بعض الأمور، إن هذه لجرأة عظيمة يستنكرها كل من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، وترُدُّها الشريعة الإسلامية بدورها، فإن القرآن الكريم ينادي ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢١]. ولا يقيد هذه الأسوة بنوع دون آخر من الدين والدنيا؛ بل يطلق هذه الأسوة إطلاقاً عاماً؛ حتى يعتبر كل كلمة تخرج من فمه وحياً إلهياً فضلاً عن عمل من أعماله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [سورة النجم: ٣-٤]. بل يدعى أنه حتى أخلاقه الفطرية لا تكون خاضعة للهوى النفساني، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[سورة القلم: ٤].

وفي هذا دليل كاف على أن أعمال النبي – صلى الله عليه وسلم- وأقواله وأخلاقه نابعة من الوحي الإلهي، لا غير، وفي هذا يخاطب القرآن الكريم النبي –عليه السلام- بقول صريح: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[سورة الجاثية: ١٨].

(١) أخرجه الإمام مسلم في **صحيحه**، رقم ٣٠٩.

مما يوضح كل الإيضاح أنه لا جانب من جوانب المعاش والمعاد إلا ويملك فيه النبي –عليه السلام– توجيها كافيا من الله رب العالمين، وكفى به استغناء عن اتباع أهل الهوى، والمثير للعجب أن المعترضين الذين لم يُرْزَقوا حظًّا من الفقه في الدين لا يستحييون – مع هذا– في قولهم: إن الأنبياء – عليهم السلام– يتبعون تقاليد أقوام، بُعثوا فيهم، فيمايتعلق باللباس والشؤون الاجتماعية، بزعمهم أن رسالاتهم خالية من مثل هذه التوجيهات. عياذاً بالله. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [سورة الكهف: ٥]. أوَ ليس هذا تكذيباً صريحاً للرسالة الإلهية وتقليباً لموضوع الرسالة، ومعارضة بينة للآيات القرآنية؟.

الحق أن النقاد عجزوا عن فهم الحقيقة؛ فلو كان عندهم نصيب من الوعي والإدراك لأدركوا أن الأنبياء –عليهم السلام– حتى في الملابس والأوضاع الاجتماعية متلبسون بنور التُّقَى والطهارة والصبر والقناعة والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ويغلب على أخلاقهم طابع هذه الأخلاق الفاضلة، فهم يعيشون حياة الزهد والقناعة والصلة بالله والإنابة إليه والغنى النفسي، فلا يتحكم في ملابسهم إسراف ولا مخيلة؛ بل يسودها صبغة التواضع والانكسار والعبودية، فملابسهم خاضعة لدواعي قلوبهم الطاهرة لا لعوامل المجتمعات الفاسدة.

ومن أجل ذلك ظلت ملابس الأنبياء – مع اختلاف الأقوام المبعوث إليهم– متحدة النوع، فكان غالب ملابسهم هي الحلة العادية (الرداء والإزار) فهي قمة في الزهد والقناعة، ولم يوجد على وجه البسيطة أزهد منهم.

وقد اعترف النقاد – هم الآخرون– بأن الحلة العادية (الرداء والإزار) كانت

لباس النبي – عليه السلام- في غالب الأحوال، وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن الحلة كانت لباس عيسى بن مريم أيضاً، حيث جاء في حديث صحيح: " إن روح الله عيسى ابن مريم نازل فيكم! فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران"[1].

علما بأن عيسى بن مريم من أنبياء بني إسرائيل، وبعث في الشام التي هي أبرد من منطقة الحجاز، وقد استعمل الحلة، ففيه دلالة على أن حلة النبي –صلى الله عليه وسلم- لم تكن تابعة لعرف الحجازيين؛ بل هي غاية الملابس لكل من بلغ في الزهد والورع منتهاه.

وكانت الحلة هي لباس إسماعيل – عليه السلام- كما جاء في رسالة أمير المؤمنين عمر الفاروق ونصها "فاتزروا" فارتدوا، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل"[2].

وكانت هي لباس سيدنا إبراهيم، فإن مناسك الحج في الحقيقة اتباع لسنة إبراهيم، فثياب الإحرام (وهي الحلة نفسها) من واجبات المناسك، فقد فرض على الأمة المسلمة أمرائها وفقهائها أن تتبع إبراهيم، ولو مرة في الحياة.

الشواهد والقرائن على ذلك:

١- وإذا جمعنا كل القرائن دلت على أن لباس الأنبياء هي الحلة؛ فالثابت

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٣٨٨٥٥.

(٢) تقدم تخريجه.

بالأحاديث على أن لباس أهل الجنة هي الحلة[1]، وقال الصوفية: إن جميع النعم التي اختصت بعامة المؤمنين في الجنة استعملها الأنبياء في هذه الدنيا، فإنهم –رغم الحياة الدنيوية– يعيشون الجنة.

٢– وقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم– باتباع الأنبياء –عليهم السلام– في الآية الكريمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [سورة الأنعام: ٩٠].

وقد ذكرت سابقاً أن الاقتداء ورد مطلقا؛ فلا يُقيد بالأخلاق، ولا بشيء من الأعمال والأفعال المعينة، فيبقى اقتداؤهم في كل ما لم يتم نسخه من الأمور والأحكام.

وقد ثبت كون الحلة هي لباس النبي المصطفى – عليه السلام–، وهذه قرينة أن الحلة كانت لباس الأنبياء –عليهم السلام– حتى لايخرج اللباس من مدلول "الاقتداء"، وهذا استدلال باقتضاء النص، وهو وجه من وجوه الاستدلال التي تفيد الحكم بشكل قطعي.

٣– ولما أُمر النبي – عليه السلام– بالاقتداء بالأنبياء السابقين، يحكم العقل السليم بأن كل واحد من السلف الصالح أمر بمن سبقه من السلف الصالح، وظل الاتباع والاقتداء شعار أهل الدين والورع، وهذا يقتضي أن يقتدي كل نبي بمن سبقه من الأنبياء في الأخلاق والاجتماع والمعاشرة، نحو نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–

(١) جاء في فتح الباري: "قال الجوهري الحبرة بوزن عنبة برد يمان وقال الهروي موشية مخططة وقال الداودي لونها أخضر لأنها لباس أهل الجنة كذا قال"أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٧٩هـ)، ج١٠، ص٢٧٧.

الذي اقتدى بعيسى في حلته، فكذلك اقتدى عيسى بن مريم بموسى وأنبياء بني إسرائيل، وهذه القرينة تدل على وحدة ملابس الأنبياء في الجملة.

٤- إن ترغيب الصحابي الجليل أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب الصحابة – رضي الله عنهم- في ارتداء حلة إسماعيل بدوره شاهد قوي على وحدة لباس سيدنا ونبينا محمد – عليهما السلام-، وقد لبس النبي – عليه السلام- تلك الحلة اقتداء بأبيه إسماعيل، فمعنى قول عمر أنكم اقتدوا بمن اقتدى به نبيكم محمد – عليه السلام- وهو النبي إسماعيل، فاتباع إسماعيل هو اتباع محمد – عليه الصلاة والسلام- في الحلة.

واتضح به أن لباس الزهد والتقوى ما زال متحد النوع في كل زمان، سواء في العهد الإسماعيلي أو العهد المحمدي، ولا تؤثر فيه الخصائص القومية والفوارق الجنسية.

٥- ثم اختيار قادة المذاهب وأئمة الأديان اللباس الساذج الخشن يدل على أن السذاجة ظلت محببة إلى من سبقوهم من الأنبياء والصالحين، وقد مسخه الخلف، وشوَّهوا صورته وحقيقته، كما مسخوا حقيقة الأديان ومذاهبهم، وتجاوزوا حدود الزهد والقناعة، فمثلا القساوسة الهندوس تعمقوا في الزهد والقناعة؛ حتى لم يأخذوا من اللباس إلا ما يغطي العورة الغليظة، وهذا اللباس الضيق هو في الواقع صورة ممسوخة للإزار الكامل الذي يغطي النصف الأسفل من البدن، وقد أساء هؤلاء الزهاد الجاهلون فهم الغرض الحقيقي، فظنوا أن العورة الواجبة الستر هي العورة الغليظة لا غير، وسترُ غيرها من الأعضاء هو إسراف وهدر للمال، والذين يفضلون منهم اللباس الكامل يلبسون رداءً وإزاراً، فهم أيضاً لا يلبسون اللباس الكامل.

وقد يكون أن خلف هؤلاء كما مسخوا أديانهم مسخوا أوضاعهم الاجتماعية وملابسهم، فاليهود اخترعوا الاشتمال والاحتباء، فيلفون الثوب الواحد على الجسم الكامل، ولعلهم رأوا في الثوبين إسرافاً وإفراطاً، يخالفان الزهد والورع، فاكتفوا بثوب واحد، ومسخوا بذلك الحلة المتوارثة، ولعلهم بسوء فهمهم لم يفطنوا أن الستر هو الغرض الحقيقي للباس، فانشغلوا بالزهد عن التستر والحجاب، وجعلوا الوسيلة غاية وغير المقصود مقصوداً.

فهولاء الأقوام حفظوا من أسلافهم الزهد؛ ولكنهم تناسوا أن الظاهر يستضيئ بنور الباطن، فحاكوهم في الحلة بلا فهم وإدراك، وبلغوا بالحلة غاية الحظر.

فنظراً إلى هؤلاء اليهود والهنود الغارقين في الزهد والقناعة يصح أن نتوصل إلى أن سلفهم وأئمتهم الصالحين لم يتقيدوا بتقاليد ورسوم أقوامهم؛ بل كانوا في زهدهم وورعهم وخلقهم وتقواهم واستغنائهم وقناعتهم على نمط واحد من السلوك، ولم يزعزع أقدامهم اختلافُ الأعراف والتقاليد.

وفي مقابل هذه الشواهد العقلية قد يكون مثارَ الضحك والاستغراب وايحاءات العقل الصبياني ما تفوَّه به السيد أحمد خان من أن كل نبي ومصلح يتبع قومه في أوضاع الملابس والاجتماع، فإن بُعثوا –مثلاً– في لندن لبسوا القلانس والصدريات مثل البريطانيين، وإن بُعثوا في إيران لبسوا طرابيشهم، وإن بُعثوا في الهند لبسوا القلانس الهندية، فلا يكون للأنبياء منهج يتبعونه في الملابس والشؤون الاجتماعية؛ بل يؤثرون كقومهم التمدن على التدين، والتلون على التمكن، عياذاً بالله من ذلك.

والمثير للاستغراب والدهشة أنه في هذا العصر عصر الإلحاد والفتن يتمسك أهل التدين من الهندوس وأحبار اليهود ورهبان لنصارى وعُبَّاد البوذية وصوفية المسلمين بالأوضاع الدينية القديمة في كثير من البلدان والأقطار كالصين واليابان والهند وإيران وما إليها؛ ولكن "العقل السليم" عندكم يقضي بأن سلف هؤلاء اتبعوا التقاليد السائدة في دولهم وأقوامهم، وغَرَّهم بريقُ المادة وزهرة الحضارة السائدة عن مبادئهم ودينهم، وذابت مكارم أخلاقهم ومحاسن أوصافهم، وأصبحوا أضعف عملاً وأسوأ خلقاً من الخلف، وصار الخلف أقوى من السلف عملاً وخلقاً، وبلفظ آخر: كانت الجذور جفت وماتت؛ غير أن الأغصان اخضرت وتفرعت، وهذا نوع من المحال أو الجنون، كما قال الشاعر الفارسي: تحرَّقَ العقل حيرة وأسفاً، ما هذا الجنون؟.

والحاصل أن القول بأن الأنبياء متبعون في الملابس وغيرها لأقوامهم مرفوض عقلاً ونقلاً وعرفاً وتجربة؛ فإن هذا يفيد قلب الموضوع، وكون التابع متبوعاً، والمتبوع تابعاً. أعاذنا الله منه.

٦- وإذا سقط أساس كلامهم سقط ما يتفرع عليه من "أن النبي – عليه السلام- لو بُعث في لندن وألمانيا للبس ملابس أهل لندن وألمانيا". وإن سلمنا هذا القول لبرهةٍ قليلة قلنا: إن القول بأن النبي – عليه السلام- "لو بُعث في لندن لفعل هذا" قول موهوم، فإنه لو تحقق ذلك لآمنَّا به، وإذا كان لم يثبت هذا، فلا حاجة إلى هذه الضوضاء الشديدة، والتورط في شباك الوهميات، ثم أقول: إن هذا الكلام يَنِمُّ عن جهل صريح لقائله؛ فإن حق الكلام أن يقال: قد سافر النبي – عليه السلام- إلى لندن وألمانيا، ولم يلبس لباسها، ولم يحب ثيابها، فإن القرب والبعد من مكان لا يتحقق بالقرب والبعد المكانيين وحسب؛ بل بالعلم أيضاً.

إن الله – عز وجل- أقرب إلى عباده من حبل الوريد؛ لكن بعلمه لا بمكانه

وزمانه؛ فهو أعلى شاناً وأرفع مكاناً، والله تعالى يكون مع عباده؛ لكن بعلمه لا بزمانه ومكانه؛ فهو يليق بشأنه؛ وهكذا قد دخل النبي – عليه السلام- كل دولة؛ لكن بعلمه لا بمكانه، وهذا هو الأليق؛ فإنه لما نهى عن الأوضاع اللباسية التي كانت أو ستكون في قادم الأيام ملابس أهل لندن وألمانيا، دل هذا على قربه العلمي من هذه البلاد، وهذا القرب أقوى من القرب المكاني.

فإذا كان عالم يرسم – وهو في مكانه- نظاماً شاملاً متكاملاً للعالم كله فأي شيء يحمل النبي –عليه الصلاة والسلام- على التنقل المكاني في العالم كله، وتجشم هذه المشاق العظيمة التي تتنافى مع شأن النبوة.

فالحاجة قائمة إلى المعرفة بما يلبسه أهل لندن وألمانيا اليوم ويُعرفون به، لا المعرفة بقضية فرضية تقول: "لو بعث النبي – عليه السلام- في لندن لكان كذا".

فهذه القضية الجزئية الشرطية - في اصطلاح المنطق- كانت لغوًا من ناحية أنها فرضية موهومة.

ثم إذا أمعنا النظر في نفس الجملة اتضح لنا أن هذه القضية قائمة على وهم وسفسطة، فبناءً على هذا يذهب سُدًى ما أفتى به السيد أحمد خان من أن المسلمين في الهند يجب عليهم الإقبال الكامل على ملابس الأقوام، وإلغاء كل حمية دينية، فهو كلام لا يُتَصوَّرُ صدورُه من رجل له مثقال ذرة من الفقه والدراية.

المطلب الخامس: الشبهة الخامسة والرد عليها

الشبهة الخامسة: يقول السيد أحمد خان في مجلة "تهذيب الأخلاق" (ص:٤١):

"هل يكفَّر المؤمن بأدنى تشبه كلبس "دهوتي" (اللباس الهندي غير المخيط) وركوب العجلة وما إليها أو التشبه الظاهري مع كونه مؤمناً بالله ورسوله؛ كلا، والأصل أن حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" مردود رواية ودراية".

جاءت الشبهة تحمل صورة الاستفهام الإنكاري، ومفاده إنكار التشبه بالكفار والاعتراف بإباحته.

وخلاصة السؤال: هل نُكفَّر بفروع ثانوية وجزوية للتشبه بالكفار؟ أي لن نكفر أبداً، وإذا عدنا لانُكفر فلا بأس بالتشبه بالكفار، ومنشأ السؤال إذًا أن التشبه لو ذهب بنا إلى الكفر لكان من اللازم اجتنابه، وإلا فلا، وهذه العبارة أفادت أموراً كالآتي:

١- المنهي عنه شرعًا هو مايؤدي إلى الكفر لاغير ؛ وإذا كانت الأوضاع الظاهرية للتشبه لاتفضي إلى الكفر في زعم هؤلاء، ولاتؤثر في الإيمان تأثيرا سلبيا، لزمت لهم دعوى أخرى بنفس العبارة ، وهي:

٢- أن الظاهر لايؤثر في الباطن ، أي الأعمال الظاهرة ليس لها أي تأثير في الأحوال الباطنة، ثم هم اجترؤوا على الاستخفاف بفروع التشبه ؛ حيث أوردوا الاستفهام الإنكاري على هذه الفروع، وألغوها بشكل مزرٍ؛ مما أفاد دعوى ثالثة ، وهي :

٣- أن الفروع والجزئيات للمسائل المأموربها أو المنهي عنها لاتحمل قيمة كبيرة في الشرع؛ وإنما الامتثال للأوامر والنواهي في الجملة يحقق غرض الشارع، وهذا يعني أن مخالفة الكفار والحذر من التشبه بهم إن طُلب إلى المسلمين فمفاده أن المطلوب هو الاجتناب عن حقيقة التشبه ، وهي تؤدَّى بالعمل بفرع أوفرعين من التشبه، وليس من اللازم هو اجتناب كل عمل يُثْبِتُ التشبه بالكفار .

وهذه ثلاثة أعمدة قام عليها بنيان الشبهات حول الموضوع، فإذا تضعضعت هذه الأعمدة انهار البنيان كله، وبقي النقاد بلا مأوى وملاذ، ونتناول -بتوفيق الله وكرمه- هذه الأعمدة الثلاث واحدًا تلو الآخر بنظرة نقدية شاملة، تكشف عن هوية الشبهة الكاذبة، وأن النقاد افتتنوا بسراب، و تهافتوا عليه، ودُونَهم ماءٌ لايبلغونه.



الفصل الثالث:

ذكر المبادئ اللاغية للمنكرين لمبدأ التشبه والرد عليها

وفيه مباحث:

المبحث الأول: المنهي عنه شرعا هو مايؤدي إلى الكفر لاغير

إن المبدأ الذي لاذ به هؤلاء النقاد المشككون من أن المنهي عنه شرعا هو مايؤدي إلى الكفر لاغير، هو قائم على جهلهم وغيِّهم ؛ فإن كون التشبه بجميع أجزائه لايفضي إلى الكفر إن دلَّ على الإباحة، فيجب أن لايُنهى عن كلٍّ مِن شرب الخمور وتعاطي القمار والزنا وزور القول والافتراء والبهتان والنميمة والغيبة وزرع التفرقة والفتنة ؛ فإنها هي الأخرى ليست كفرا صريحا، ولايُكفَّر إنسان تورط فيها، إن كان هذا المبدأ على نوع من القوة والإتقان في رأي هؤلاء فياحبذا لو سودوا صفحات من مجلة"تهذيب الأخلاق" ليثبتوا إباحة هذه الأمور ،كما أقبلوا على إباحة التشبه ، ولن يفعلوا.

وهذا من غرائب الأصول التي تبيح كل عمل لايكفَّر به الإنسان ، فكأنه ليس في الدنيا غير الكفر معصية، وكل أنواع الفسوق والفجور وضروب الفحشاء والمنكر ليست قبيحة واجبة الاجتناب، أو إن شئت فقل : الكفر هو المعصية وماسواه فلابأس به، أو قل : يجب الاجتناب عن الخلود في النار ، أما الدخول في النار فليس له من الأهمية ما يوجب الاهتمام باجتنابه. عياذا بالله من أليم عقابه.

مع أن الواقع عكس مازعموا وخلاف ما توهموا ؛ فإن من لايبالي بالفسوق والفجور لايخشى الكفر، ومن يزدري بالوسائل لايهتم بالغايات ؛ فليست الوسائل إلا ذرائع إلى النتائج ، ومن لايجتنب عن التجسس والنقب والوقوف بالمرصاد لأموال الغير لايجتنب عن سرقة الأموال وابتزاز الجيوب، فليست هذه الأشياء إلا أسباب السرقة .

وهكذا من لايتقي مشابهة الكفار في الظاهر لايحذَر من مشابهتهم في الباطن؛ فإن المشابهة الظاهرة تؤدي إلى المشابهة الباطنة، وفي مثل هذا قالت السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها : "إياكم ومحقرات الذنوب"(١)، وهذا لأنها بريد إلى الكبائر.

وهذا يدل بكل صراحة على أن المفتون بالتشبه وفروعه لم يكن ليجتنب التشبه ولو كان كفرًا بوَّاحًا؛ بل يتشبه بالكفار إشباعًا لهواه، فإباحة التشبه بحجة أنه ليس كفرًا عمليةٌ مزوَّرةٌ محضة، يمكن أن ينخدع بها الجهال؛ ولكن لاوزن لها لدى الله رب العالمين .

فهم يريدون خداع الله، ولايخدعون إلا أنفسهم ، ﴿**يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠**﴾ [سورة البقرة:٩-١٠].

وإذا سلمنا أن التشبه بالكفار ليس كفرًا فكيف ثبت جواز التشبه؟ ونفي الكفر كيف استلزم نفي الحرمة؟ ياترى!.

---

(١) الصحيح أنه حديث صحيح مرفوع إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وقد تقدم تخريجه؛ وانظر: احمد، **في مسنده**، رقم ٣٨١٨؛ **والبيهقي شعب الإيمان**، رقم ٦٨٨١ .

وإذا لم يثبت الجواز سلم ماقلتُ من أن التشبه حرام، فلامانع من أن يكون الشيئ حراما، ولايكون كفرا، فثبتت تفاهة استدلالهم الخاطئ، وتبينت حرمة التشبه وكونه منهيا عنه، والآن نسألهم : أطاعة عندكم هذا التشبه المنهي عنه أم معصية ؟ إذا كان هذا طاعةً لزم كون كل من شرب الخمور وتعاطي القمار والغيبة وماإليها طاعةَ حسب مبادئكم ؛ وإذا كان التشبه معصية عندكم فنحن عاجزون عن فهم هذه العبارة : " المسلم مادام مسلما لايضره التشبه بالغير ولو كان التشبه في الشعائر الدينية "، فهل أنتم تستحسنون ارتكاب الكبائر والقبائح الشرعية؟ وإذا كانت الكبائر شيئًا هينًا تافهًا فلماذا نهت عنها الشريعة الإسلامية، أو أرادت ما أردتم من جمع النقائض في باب التشبه؛ حتى يظنها الناس حرامًا ثم لايرون بأسا في ارتكابها؟.

هل هذا ما اصطلحتم عليه؟ أوَ كل المحرمات عندكم في نطاق "لابأس"، وكل الواجبات في إطار "فيه نظر"؟.

ولعلي قد وفيت البحث في إثبات أن المبدأ القائل :"المنهي عنه في الإسلام هو الكفر أومايؤدي إليه لاغير" لغو وعبث ، وفتح لباب جديد للفتنة، وجرأة عظيمة على الله رب العالمين ، وإقحام الناس في مراتع الكبائر وإطلاق سراحهم هناك، فإذا كان المسلم لايكفَّر- في رأي السيد أحمد خان- بلبس "دهوتي"(الزي الخاص بالوثنيين في الهند) أو ركوب عربة الجاموس (مركب الهندوس في الهند) أو بنوع من المشابهة الأخرى، فلا تكون هذه الأمور جائزة عندنا أيضا، فإن كون الشيئ منهيا عنه ليس عماده على الكفر.

المبحث الثاني: إنكار تأثير الظاهر في الباطن كمبدأ للمنكرين

الشبهة الثانية التي أثارها النقاد وتشبثوا به كمبدإ ثابت تتمثل في أن الأعمال الظاهرة لاتؤثر في الكيفيات الباطنة، ومعناها أن المسلم لو تلبس – مثلا – بالوضع النصراني من مفرق الرأس إلى أخمص القدم لن يضره شيئًا، ولن ينقص من الإيمان بالله ورسوله شيئا؛ فإن الإيمان متمكن في القلب، والأعمالُ الظاهرية منقطعة الصلة عن القلب، فلن يضر المسلم كذلك التشبه الظاهري بالكفار والمشركين، وهذه سفسطة، أتناولها في مطالب تالية:

المطلب الأول: المسخ الظاهري شين كبير

والجواب عن هذه الشبهة يتطلب منا أن نقف هنا وقفة علمية جادة، وهي في الآتي:

الوقفة الأولى: وإن سلمنا أن التغير الظاهري لن يضر في روح الإسلام وطبيعته، ولن يُّعْدِم التشبهُ الظاهريُ حقيقة الإيمان؛ ولكن ما قولكم في الشيئ الذي شُوِّهَتْ صورتُه ومُسِخَ وجهُه مع بقاء حقيقته؟ أوَلا يكون هذا شينا كبيرا وعيباً مزرياً له؟ أولا تتفانى الدنيا وكل شيئ في الدنيا في سبيل تحسين الظاهر وتجميل البشرة؟ فماذا أذنب الإسلام؛ حيث سُلِبَ هذا الحق؟ وهل يرضى أحمق الحمقى في الدنيا بتسويد وجه الحبيب وقطع بعض أعضائه وإصابته ببعض الجروح والبصمات المعيبة بحجة أنها لاتُزْهِقُ روحه ولاتحصد حياته؟.

فإن قلنا – على سبيل الافتراض والتقدير – : إن التشبه الظاهري لايؤثر في الباطن، فلاأقل من أنه يعود على الظاهر بأضرار خطيرة ويَسِمُه ببصمات شائنة لايمكن إزالتها، والمسخ الظاهري ليس بعيب طفيف.

قد يكون في الدنيا من مُنِيَ بعرج القدم وصلع الرأس وقطع الأطراف

ومااليها من العيوب الأخرى، ومع هذا هو يعيش في الدنيا، ويُدعى إنساناً، ولكن هل تحبون له هذه الحياة ؟ أو ترضون لأنفسكم نفس الحياة؟ كلا! فما الذي حملكم على أن ترضوا للإسلام هذه الحياة حياةَ العجز والخداج؟ وكيف أمرت عقول هؤلاء العقلاء المتنورين بالاكتفاء بالإيمان القلبي على حساب الإسلام الظاهري؟.

مع أن الظاهر والباطن أو الإيمان والإسلام وجهان لحقيقة واحدة، لايبقى الواحد بدون الآخر، ولايجوز الاكتفاء بأحد منهما دون الآخر؛ ففي الأثر الذي رواه ابن شاهين عن سيدنا علي رضي الله عنه مرفوعا : " الإيمان، والعمل قرينان لا يصلح كل واحد منهما إلا مع صاحبه"[1].

ثم الأخذ ببعض الدين وترك بعضه – بغض النظر عن بقاء الإيمان وفواته – من سمات اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا بالبعض ، مما اعتبره القرآن الكريم كفرا صريحا ، فقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١**﴾ [سورة النساء: ١٥٠–١٥١].

وهذا –كما قلت– على تقدير أن الظاهر لايؤثر في الباطن كما يقول المخالفون، والآن نتقدم خطوة ، وأقول ما هو الواقع، ولاحظه الشرع الإسلامي في منع التشبه بالكفار.

---

(١) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**، (السعودية: دار طيبة، ط٨، ٢٠٠٣م–١٤٢٣هـ) رقم ١٥٦٠؛ و علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، رقم ٦٠.

المطلب الثاني: تاثير الظواهر في البواطن قاعدة جامعة ومبدأ عام

إن الظاهر بأشكاله وهيئاته وحركاته وسكناته يؤثر في الباطن تاثيرًا إيجابيًا أو سلبيًا، لا في الأمور الشرعية فحسب؛ وإنما في كل شيء من الدنيا، إن اتصل الظاهر بالبناء ارتسم البناءُ في الباطن، وإن ارتبط بالظاهر شيء من الأعمال المخرِّبة يؤثر في الحقائق والبواطن، فتكون خرابًا يبابًا.

فهذه الدنيا التي نعيشها ليست عالم المعاني والحقائق وحسب، فتبقى الحقائق والمعاني بدون الأجسام والظواهر، ولا هي عالم الأجسام والصور فقط، فتتجسد الأجسام بدون الأرواح والحقائق؛ بل هي عالم نُسِجَ كيانُه بلُحْمة الظاهر وسدا الباطن، ومن حكمة خالق هذه الدنيا أنه أسند الأعمال إلى الأجسام، وأودع الأرواح القوي العملية، فعادت الأرواح مصادر الأعمال، والأجساد مظاهرها، وأثبت ما بين الروح والجسم من نسبة وارتباط للأعمال الجسمانية والملكة الروحية، وأقام ارتباطا بين الأخلاق والأعمال كالوصلة بين الروح والجسم، فأصبحت الأخلاق والملكات تحتاج في قيامها ورسوخها إلى الأعمال، والأعمال في حاجة إلى الأخلاق في وجودها وظهورها.

فلولا الملكات الروحية لضاعت الأعمال، وكانت في طي الخفاء، ولولا ظهور الأعمال بشكل مستمر لزالت الاستعدادات الروحية بدل أن استحكمت.

فاتضح أن الروح تؤثر قواها الباطنية في الوجود، والأجسام يؤثر ظاهرها في ترسيخ هذه الروح.

ومن هنا ظهرت نتيجة أخرى، وهي أن الجوارح إن ظهرت منها أعمال نبيلة سارَّة، أثَّرت في الروح تأثيرًا إيجابيًا، وإن ظهرت منها أعمال فاسدة أثَّرت فيها تأثيرًا

سلبيًا. فحُسنُ الظاهر وقبحُه، وبناؤُه وخرابُه مؤثر جدا في حسن الروح وقبحها وبنائها وفسادها.

والحاصل أن كلاً من الروح والجسم والأخلاق والأعمال مؤثر في الآخر، ومتأثر منه، وهذا قانون عام، يعم كلَّ شيء في الكون، من حيوان وجماد ونبات، وجوهر وعرض.

المطلب الثالث: تأثير الظواهر في المحسوس

وعلى سبيل المثال نأخذ نباتاً، فقيمة الأزهار مكنونة في أوراقه اللطيفة الناعمة، إن سُلبت الوردة والياسمين حمرة وبياض الوريقات، ضاعت روائحها الفطرية، مع أن عملية القطع مُوْرست مع الوريقات دون الروائح؛ ولكن سرعان ما تغير المعنى بتغير الظاهر والبنية.

وتدبَّروا الإنسان مثلاً: فبصارته بادية مُشِعَّة من حدقة العين، وقوة سماعه عاملة من خلال حجاب الأذن.

إن قمنا بإفساد حدقة العين وحجاب الأذن، فهل تبقى العين والأذن تعملان عملهما؟ كلا، أم إن قطَّعنا الجسد كله تقطيعًا، فهل كان للروح أن تعيش، وللحياة أن تبقى؟ كلا، مع أنَّ هذه التعديلات كلها أُجْرِيَتْ مع الظاهر دون الباطن، ومع هذا كيف وصل بسرعة مدهشة أثَـرُ الظاهر إلى الباطن، وبتوافق تام، فتأثر الباطن بقدر ما تأثر الظاهر، حتى لم يَعُدْ من السهل تركيب قوة البصارة -بعد ضياع العين- في عضو آخر من أعضاء الجسد، كاليد والرجل وما إليها.

ثم انظرو إلى العلوم والأعراض، تجدوا هذا بشكل واضح، إن بلاغة المعنى الجميل والخيال البكر تتمثل في ألفاظه.

إن أسأنا في اختيار الألفاظ أو وضعنا مكان الألفاظ الجميلة ألفاظاً ركيكة، ضاعت مع الألفاظ تلك المعاني الرائعة التي تمثلت في الألفاظ الأولى، مع أن المحو والتغيير جرى في الألفاظ دون المعاني.

ولكن المعاني كان عمادها على الألفاظ؛ فبتغيرها تغيَّر المعنى من جميل إلى سقيم، ثم هذه الألفاظ (قوالب المعاني) تؤثر في الأرواح والبواطن ما لا تؤثر فيها السهام والسيوف، فإن كلمة سُبَّةٍ وإن صدرت خطأ أو هزلاً، تهيج الإنسان، وتثير غضبه، وتهز كيانه كله، كما قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ولكن إذا وُجِّهتْ للإنسان الثائر كلماتٌ لطيفة رقيقة، هَدَأَ خاطره، وسكت غضبه بشكل مثير.

فإذا كان الظاهر لا يؤثر في الباطن، لا الألفاظ في المعاني، ولا الأعمال في الأخلاق؟ فلماذا هذه الانقلابات والتغيرات؟ وما معنى بقاء الحقائق وفنائها؟ وما منشؤ التموج والتلاطم في الأرواح؟.

أوَ لم يفكر هؤلاء النقاد في أن الاستحمام يلطف الروح، ويرقق الشعور، وتشويهُ الظاهر يؤدي إلى تعكير الروح وصفائها، إذا كانت الثياب نظيفة انبسطت الروح وانفتح الخيال، وإذا تلوثت الثياب واتَّسخت، ضاقت الروح ذرعا، وهكذا إذا

كانت الثياب متعطرة، أثارت في الروح شعورًا سارًّا لطيفا، وإن كانت متنجسة، سَامَتْها سوء العذاب.

مع أن البون بين الروحانية والمادية كبير؛ بل هما متضادان؛ ولكن الصلة الطبيعة بينهما تدعو الروح إلى التأثر بالمادة، فتتأثر بطهارة الجسم ونجاسته.

فهل يبقى بعد هذا شك وارتياب في أن الثياب إن اتصفت باللطافة والكثافة المعنويتين دون الظاهريتين، تأثرت بهما الروح تأثرها باللطافة الظاهرية، وقَبِلَت آثارهما كما قبلت آثار البدن واللباس.

ومن ثم ندَّعى نحن ويدعى كل من رُزِق قسطا من الفهم والدراية أن الروح تقبل آثار الكثافة المعنوية للباس، وهي كون اللباس على وضع يخالف السنة، ويتجاوز حدود الله، وتقبل كذلك آثار اللطافة المعنوية في اللباس، وهي أن يوافق اللباس وما فيه من زينة وجمالٍ السنةَ النبوية.

فالروح تتفاعل مع هذه وتلك، وتتأثر بهما تأثرًا عجيبًا.

المطلب الرابع: مزاعمنا في ضوء التجارب الإنسانية

التجربة الإنسانية تشهد أن ما يتجمل به الإنسان من أشكال ثيابية وأوضاع القطع والإبقاء في جسده يؤثر كثيرًا في باطنه وروحه، فيبنيه أو يُفسده، ويُحْدِثُ ثورة في خُلُقه.

فإن الإنسان الشجاع المغامر إذا اختار الإفراط في التنعم من جمال الحلي وأسلوب المشية المتبخترة والحديث اللطيف الناعم، وينقطع إلى تجميل الظاهر، فسرعان ما حلَّتْ في قلبه صفات الجبن والخور والتنعم محل صفات الرجولة والشهامة

والمغامرة، وتتلاشى هذه الصفات النبيلة، فيكون باطنه ناعما كالنساء، كظاهره.

وهكذا إذا كان إنسان يرتدى ملابس الأغنياء بصنعة وتكلف، فسرعان ما يرتمي في حضن الصفات السلبية، كالفخر والتبختر والازدراء بالناس، وإن كان اختار هيئة الفقراء ظهرت في ملابسه صفات التواضع والانكسار والعجز، وإن اختار وضع العلماء والمشائخ الصالحين، أشرق باطنُه بآثار التقوى والورع والتدين، وإن اختار زي السفهاء والجهلاء رسخت في قلبه صفات المكر والدهاء والإفساد، وظهرت منه أعمال من هذا النوع.

المثير للانتباه، الداعي للعجب أن هؤلاء النقاد يقبلون هذه التأثيرات الظاهرية؛ لأنها من المشاهدات القطعية؛ لكنهم يرفضون، أن الشريعة قبلت هذه الأمور، كأمور لها تأثير في التشريع، فكأنهم يثقون بأبصارهم أكثر من ثقتهم بالوحي وأخبار الرسالة.

مع أن الإيمان هو عبارة عن التصديق والإيقان بما جاء به الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فلا بد من اعتبار ما جاء به الرسول قطعي القطعيات وأجلى البديهيات.

وعلى كل، وسواء رضي هؤلاء أم أبوا، فإن الشريعة لا تقول أكثر ما تقوله المشاهدات، وما قالت الشريعة أكثر من أن تكرار هذه الأفعال الظاهرة ومعاودتها تُسبِّب رسوخ ملكة نفسانية توافق الأعمال. فإن اعتاد الإنسان أفعال الخير رسخت في قلبه آثار الملكة الصالحة النورانية، وإن اعتاد الشر ترسخت في قلبه آثار الظلمة والضلال. وسواء كانت الأفعال الظاهرة تتصل بالتدين أو التمدن، في الأمور الدينية أو الأمور الاجتماعية.

المطلب الخامس: تأثير الظواهر في الأمور الشرعية

وقد صرَّحت الشريعة – فيما يتعلق بأعمال الخير – بأن الأعمال الظاهرية وأنواع الملابس تؤثر في الكيفيات الإيمانية ونقصها وزيادتها. ففي الحديث أن لبس الصيوف (وهو عمل ظاهري) يخلق حلاوة الإيمان، وهي كيفية باطنة: " من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليلبس الصوف "(١).

وفي الحديث: "اعتمُّوا تزدادوا حلمًا"(٢). وقال: "استووا تستو قلوبكم، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم"(٣).

فهذه أعمال ظاهرية ينفُذُ أثرُها إلى القلوب، وكذلك أعمال الشر تنقل آثاره إلى القلب، فأفاد القرآن أن الذنوب تغطي القلوب بنكتٍ سوداء، تسلبه صلاحية الاستجابة للحق، وذكره القرآن بألفاظ مختلفة، كالطبع والرين والختم والوقر والكن.

فقال في موضع: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [سورة المطففين: ١٤]. وقال في موضع: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾ [سورة النساء: ١٥٥].

وجاء في الحديث: إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه"(٤).

---

(١) علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ٤١١١٩.

(٢) المرجع السابق، رقم ٤١١٣٥.

(٣) المرجع السابق، رقم ٢٢٩٩٩-٢٣٠٠٠.

(٤) المرجع السابق، رقم ٢٢٢٠٤.

والمعنى أن الصغائر تؤدي إلى الكبائر، والكبائر تشجع على الكفر، والكفر جزاءه جهنم، يقول التابعي الجليل مجاهد[1]: القلب كالكف، فإذا أذنب انقبض وإذا أذنب ذنبا آخرا انقبض، ثم يطبع عليه وهو الرين[2].

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها؛ حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله، ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ١٤]"[3].

فكما أن الأحاديث الأولى صرّحت بأن الأعمال الصالحة هي سبب زيادة الكيفيات الإيمانية والأخلاق الفاضلة، بينت هذه الآيات والروايات أن سبب الكفر وفسق القلوب هي الأعمال السيئة.

ونظرة عابرة فيما تقدم من الآيات والأحاديث تثبت أن الأعمال الظاهرة لها تاثير كبير في القلب.

---

(١) هو الإمام: مجاهد بن جبر المخزومي، مولاهم المكي أبو الحجاج، من الأئمة الثقات من الطبقة الثالثة من التابعين ومن كبار المفسرين والفقهاء توفي سنة (١٠٣ هـ) وعمره ٨٣ سنة، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة وسائر أهل الحديث؛ وانظر: العسقلاني، ابن حجر، **تقريب التهذيب**، ج٢، ص٢٢٩؛ وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج٥، ص٤٤٦.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، **مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ)، ج٣١، ص٨٨.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم ٣٣٣٤؛ وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

المطلب السادس: الاعتراف بتأثير الظاهر مسألة جمهورية

إن دعوى تأثير الظاهر ليست مما انفرد به الإسلام دون الديانات الأخرى؛ بل اتفقت جمع الأديان والملل على هذا؛ بل أساس كل الديانات قائم على هذا المبدأ: مبدأ تأثير الظاهر في الباطن.

فإن غاية كل ديانة هو تطوير الروحانية، وهو لا يتم بدون الأعمال؛ فإن الأحوال والكيفيات هي التي تلازم الروح وتلاصقها دائما، وإنما كانت الروح خاوية من الأعمال، ولتحقيق هذا الغرض تمثلت الروح جسمًا يعمل ليرسِّخ في الروح ملكات وفق الأعمال. والظاهر أن العمل له صلة بالجسم دون الروح.

ومن ثم إذا أرادت كل ديانة تحقيق هدفها المتمثل في تنمية الروح وتقويته، كسا الروح جسمًا، وألزم الجسم كل الأعمال اللازمة، كالصلاة والصوم والحج والزكاة. وهكذا جميع الشرائع والأحكام ذات الصلة بالاجتماع والعقود والمعاملات ترتبط بالجسم دون الروح.

فنظرًا إلى هذا إن قيل: إن غرض كل ديانة هو تكليف الأجسام وتقييدها فحسب، أي لا علاقة لهذه الأحكام بتطوير الروح، فينشأ سؤال: أين نبحث عن تزكية الروح وتطوير الباطن؟ وقد خلت المذاهب عن هذا الغرض، وإن كان الغرض الحقيقي لكل ديانة – وهو الواقع- هو تطوير الروح فالسؤال ناشئ هنا بقوة: فلماذا تكليف الأجسام بالأعمال؟.

والحل الوحيد لهذه المعضلة أن نعتبر تطوير الروح مقصد الديانات، والأعمال وسيلة هذه الغاية، ونعترف كذلك بأن علاقة التأثر والتأثير قائمة فيما بين

الروح والجسم، وأن ما يصدر عن الجسم من حركة وسكون يـؤثر تـأثيرا مبـاشرا في الروح، حتى يترسخ التصـور الروحـاني في القلـب؛ فلـو كانـت الأعـمال لا تـؤثر في الباطن لانهدم أساس كل ديانة، وكان خَلْقُ الإنسان في الدنيا لغوا وعبثاً.

فالمناسب أن نقوم باستئصال وسوسة النقادبدل استئصال الشرائع بالوسوسة، فللإسلام وجميع الديانات الأخرى أن تضحك من هؤلاء المتنورين الذين لا يعقلون، ومع هذا يتعمقون في حرية الرأي فيقولون: "إن ارتدينا الزي الفلاني أو عملنا العمل الفلاني أو تعمدنا بعض الأمور السئية الظاهرية فهل يؤثر في إيماننا؟ أي لا يؤثر".

إن خلقَ الله وأمرَه (أي التكوين و التشريع) يرغمانهم عـلى أن الأعـمال الظاهرية تؤثر في الباطن إيجابيا وسلبياً، فهي من شأنها أن ترسـخ الإيـمان في القلـب، وتقلعه منه.

فقول هؤلا السفهاء بأن الظاهر لا يؤثر في الباطن قول يخالف ما أجمعت عليه الديانات كلها.

المطلب السابع: الشواهد التاريخية على هذا المبدأ

وبعد هذا كله إن قمنا باستعراض ما حدث في التاريخ من وقائع وأحـداث، شهد التاريخ بتأثير الظواهر في البواطن؛ فالتاريخ ينطق بـأن فـرداً أو أمـة إذا كسـب خيراً بظاهر عمله (ولو لم تسلم له نية) بلغ الخير قلبه، وإذا كسـب شرا بعملـه تلطـخ قلبه بالشر، ولو لم ينو الشر، وها هي بعض الأمثلة والشواهد:

١- قد ذكرت في الفصل الأول أن عمر ابن لحي بن قمعة ابن خندف قد نصب الأصنام في الكعبة تشبها بعبدة الأصنام باليمن، وكان لايريد الشرك آنـذاك؛

ولعله كان يحرص على الاتجاه القلبي نحو الجهة المحددة وغيره؛ إلا أنه كان هذا العمل شركا بحتاً، أثَّر في القلوب، وأُشرب فيها الشرك، وحُرِمَت جزيرة العرب نورَ التوحيد وملة إبراهيم، فعَمِلَ القالَبُ بما قَبِله القلب من شر وفساد.

٢- ذكر صاحب المرقاة شرح المشكاة: إن إيمان سحرة موسى كان من هداية الله في الحقيقة، فإن الهداية والإضلال بيده وحده؛ ولكن سببه الظاهري هو تشبههم بلباس موسى – عليه السلام–، فخرجوا إلى الميدان بزي يشبه زي موسى، فأخضعوا ظاهرهم لموسى قبل المناظرة، فلم يبق بينهما من بُعد ظاهري، ثم أثَّر هذا في الباطن، وخضع باطنهم لموسى، وآمنوا بربه، وإلا فكان لهم أن يقولوا بعد غلبة موسى: إن موسى – عليه السلام– ساحر أكبر، ونحن أصغر منه، فغلبتُه ليست حجة الحق؛ وإنما هي دليل براعته في فن السحر.

٣- ثم ذكر (صاحب المرقاة) أنه كان في قصر فرعون رجل يسخر من موسى، ويحاكي حركاته، فكان يلبس مثل زيه، ويأخذ مثل عصاه، ويتكلم بصوته، ويُضْحِكُ فرعون والفرعونيين، وقد نجَّاه الله من الغرق، فشكاه موسى إلى ربه، لماذا نجَا هذا الرجل وقد بلغ من إيذائي الغاية. جاء الجواب: لا شك في كفره، وأنه كان ساخراً منك، لكنه تشبه بك في زيك وكلامك وحركاتك، فأبى الله أن يعذب عدواً هو في زي حبيبه، فالتشبه الظاهري سبب النجاة الظاهرية في الدنيا دون الآخرة، وكما أن قلبه مليئ بالكفر تكون آخرته ملآى من العقاب.

٤- وانظروا في الأمة المحمدية: تجدوا أن إسلام أبي محذورة[1] لم يكن

(١) هو الصحابي الجليل أوس بن معيرالجمحي، أبو محذورة: المؤذن الأول في الإسلام. قريشي، أمه من خزاعة اشتهر بلقبه، واختلفوا في اسمه واسم أبيه. أسلم بعد حنين. وكان الاذن قبله دعوة للناس

سببه إلا التشبه الظاهري، فكان الجيش الإسلامي قافلاً من غزوة الحنين، ومكث في مكان، ثم ارتفع الأذان من العسكر، فخرج صبيان القرية يحكون الأذان أضحوكة وتمسخرًا لاجِدًا وتقربـاً، فـأمر النبـي – صـلى الله عليـه وسـلم–: خـذوا إليَّ هـؤلاء الصبيان، فأُخِذَ البعضُ إليه – صلى الله عليه وسلم– وسأل النبي – عليـه السـلام–: من كان يحاكي منكم الأذان، فأشاروا إلى أبي محذورة، فأطلق سراح الجميع، وحبس أبا محذورة حظُّه السعيد، فقال له الرسول – عليه السلام–: قم وأذِّن وحـاكِ الأذان، فقام ليحكي الأذان، ويؤدي كلمات الأذان كرهًا وتكلفًا؛ حتى نفذت هـذه الكلـمات إلى قلبه، وشهد بالشهادتين، مما أثار البغيضة والكراهية لدى العرب أجمعين؛ ولكن هذه الحركة الظاهرية ما حَرَمَتْ قلب أبي محذورة –رضي الله عنه– هذه المتعة الإيمانية، وأدت هذه الكلمات التي تكلَّفها في البداية، إلى إحلال الإيمان في قلبه نهائيا؛ حتى عاد أبو محذورة نجماً ساطعًا في أفق الإيمان والهداية.

ودل هذا الحديث على أن آثار النبوة لا تبلغ القلـوب إلا مـن خـلال الـتلفظ باللسان؛ فإن إدخـال شيء في القلـب لا يمكـن إلا عـن طريـق الأعضـاء الظـاهرة، وليست هذه الأعضاء إلا ظواهر القلوب وآثارها، فـأي أثـر قَبِلَـه الظـاهر لا بـد أن يسري إلى الباطن، كما قال الشاعر الفارسي:

إلى الصلاة، على غير قاعدة. وسمع في الجعرانة صوتا غـير منسـجم يقلـده هـزؤا بـه، واستحسـن رسول الله صلّى الله عليه وسلم صوته ودعاه إلى الإسلام فأسلم، قال: وألقى عليّ التأذين هو بنفسه فقال: قل: الله أكبر الله أكبر. إلخ. ولما تعلم الأذان جعله مؤذنه الخـاص. وطلـب أن يكـون مـؤذن مكة، فكان. وظل الأذان في بنيه وبني أخيه مدة. ورويت عنه أحاديث؛ والـزركلي، **الأعـلام**، ج٢، ص٣١.

"إذا حَلَّيْتَ ظاهرك تحلَّى باطنك لا محاله".

ومن ثم جاء في الحديث: أسلم ولو كنت كارها"[1].

فإن هذا الإسلام الظاهري هو الآخر يصبغ الباطن بصبغة إسلامية.

كما قال الشعر الفارسي:

بهر دين، وبهر دنيا، بهر نام الله الله كرده بايد والسلام

والمعنى: "للحصول على كل من الدين والدنيا والسمعة الطيبة اذكر الله كثيرًا، وكفى، تحصل لك هذه الثلاث مجتمعة".

ومن هذا المنطلق وصف الحديث ما يجلب الخشوع أمام الله تعالى فقال: "فإن لم تبكوا فتباكوا"[2].

وقد أوضح كل الإيضاح هذا المبدأ ذلك الحديث الذي أخرجه أبو داود في سننه، وسعى النقاد سعيهم الطائش لتضعيفه: وهو حديث: "من تشبه بقوم فهو منهم".

فظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أنه إذا وقع الهجوم على الإسلام (الأعمال الظاهرة) يكون هجومًا على الإيمان أيضاً.

فإن تركنا ظاهر الأعمال لأدى بنا إلى ترك حقيقة الأعمال، فإن القضاء على أعضاء الدين هو قضاء على الدين كله، فالقول بأن الظاهر لا يؤثر في الباطن ليس إلا نزعة شيطانية أو خداعًا نفسيًا، ما أنزل الله بها من حجة وسلطان.

(١) أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**، (القاهرة: دارالعلم، د. ط. د. ت)، رقم٧١٢٤.

(٢) أخرجه الإمام ابن ماجة في **سننه**، رقم ١٣٣٧.

فبطل قولهم بأن حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" مردود، وحق عليهم قولهم، ورُدَّتْ على وجوههم شبهاتُهم، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

المطلب الثامن: الأعمال الظاهرة ترجمان العواطف القلبية

وأحمد الله على أنه وفقني لإثبات أن الظاهر له تاثير كبير في الباطن، إثباتًا مؤيدًا بالدلائل، وهنا أتقدم خطوة فأقول: إن النظرة الغائرة تفيد أن القلوب لا تتأثر بالأعمال الظاهرة فقط؛ بل الأعضاء تتقبل أولًا ما تريد القلوب أن تتطلع إليه وتتشبه به، ثم هذا التشبه العملي يرسِّخ ويقوي في القلب هذه العاطفة، فالتشبه العملي دليل على انقلاب القلب، وهذه درجة ثانية، وإلا فالقلوب تأثرت بالتشبه قبل الأعمال؛ فإن وصول آثار الأعمال لا يمكن دون العمل، وكون الأعمال صادرة عن الأعضاء يتوقف على تقدم منشئه في القلب، وركون القلب إليه؛ حتى يستعد للعمل، فتقويم كل عمل يتم بالقلب، ثم الأعمال الظاهرة توضح هذه الدوافع، وتجعلها كالمرآة.

فكأن الظاهر يفشي سر الباطن، وكل مظهر ينم عن المخبر.

وهذا كالشجرة الطويلة التي تبدأ بنواة صغيرة؛ ولكنها كما تتسع وتمتد ظلالها تترسخ جذورها في قعر الأرض.

كذلك المتشبه؛ فإن التشبه الظاهري ينشأ أولا عن الجذور القلبية، ثم بقدر ما تتسع ملامح التشبه في الأعضاء تترسخ أصوله في القلب؛ حتى يكون التشبه الكامل بالغير هو مقصد حياته وغاية مرامه.

فالمتشبه منخدع؛ حيث يعتبر التشبه الظاهري بالغير منحصراً في ظاهر الأعمال، غير نافذ إلى القلوب، ويريد أنه سيتغير في قادم الأيام؛ فهو يبدى بذلك براءته من التشبه؛ ولكن أقول: إن هذا التشبه الظاهري بالكفار إنما منشؤه هو ولع قلبه بسلوك الغير، وليس هذا إلا عنوان ما في القلب والفؤاد، أو امتلأ قلبه أولا بهذا الشعور، فظهرت آثاره على الأعضاء، فالتشبه الظاهري ليس نواة أولى للتشبه الحقيقي؛ بل هو أبدى على الأعضاء والجوارح ما هو مرتكز في قلبه من معاني التشبه، فمن يتشبه بالكفار بظاهره، ويعتبر نفسه سليمة، طاهرة عن معاني التشبه، فلا يملك إلا مزاعم صبيانية، وعليه أن يقتنع بأن سوء الظاهر دليل سوء الباطن دون حسن الباطن، وعلى أمثاله من السفهاء أن ينظروا نظرة عبرة وعظة في وجوه المرضى الذين شحب لون وجوههم، وغارت عيونهم، واصفرت أجسامهم ثم يقولوا: أ هذه أمارات الصحة أو المرض؟ والظاهر أن هذه سيما الضعف الذي أنهك قواه وذهب برواء ظاهره.

ولا تختلف عن حال المريض حال الأشقياء الذين تُبْدِيْ أجسامُهم ضعف باطنهم ومرض قلوبهم، فجوارحهم كالوجه واليد والرجل وملابسهم ومطاعمهم تعكس إلحادهم وكفرهم واستخفافهم بالدين، فهل بعد هذا تكون أعمالهم الظاهرة شاهدة بصحة باطنهم وورعهم وتقواهم؟ أم أنهم أتقياء وصالحون أم أنهم مع ظلام الظاهر منورون بنور الباطن؟.

كلا، فإن الصحة الروحانية لا تتحقق إلا في صورتها، واللامذهبية تأتي دائماً في صورتها، إن برز الأتقياء الصالحون، فيبرزون في أشكالهم، وهكذا لا يخرج الدجالون المشعوذون إلا في صورتهم.

وقد أبدى رسول الله – عليه السلام – هذا المبدأ بقوله: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"(١).

وقال في حديث آخر: "إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله، طاب أعلاه، وإذا فسد أسفله فسد أعلاه"(٢).

فالقلب والقالب ليسا إلا وجهان لحقيقة واحدة، و جانبان لشيء واحد، سُميا بالظاهر والباطن أو الروح والجسد أو القلب والقالب، وإذا كان الروح مقدماً على الجسد فلا يظهر شيء في الأعضاء إلا منشؤه هو الباطن لا غير.

فعل هؤلاء السذج أن يعيدوا النظر فيما حلموا به من حلم، وتوهموه من خيال، ولا يكونوا متهورين، يكتبون ما يشاءون، ويتفوهون بأنا لو تشبهنا بالكفار في الزي والصورة لا ينعكس سلبًا على الإيمان، فمن لهم حتى يبين أن الأمر ليس أمر التأثر والانعكاس؛ بل تغيُّر القلب وتأثُّره بالكفار سبق هذا التشبهَ الظاهري، فالقلب فاسد، وظهر فساده في هذه الأعضاء، فلو كان القلب طاهرا لما كان له أن يُمسخ ويتغير؛ ولكن ليس لهم عيون يبصرون بها، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (أعاذنا الله من سوء البصارة والبصيرة).

وأحمد الله الذي وفقني لكشف زيغ ما ادعاه أهل الهوى من أن الظاهر لا يؤثر في الباطن، وثبت بدلائل قاطعة أن هذا وهم من أوهام المجانين أو حيلة من حيل المغفلين، وإن سلمنا أن الظاهر لا يؤثر في الباطن، فلا خلاف أن الظاهر قد تغير، وهذا هو الآخر شين كبير، وإن تغيَّر الباطن أيضًا فهذا شين آخر، والواقع أن

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٥٢.

(٢) أخرجه الإمام ابن ماجة في **سننه**، رقم ٤١٩٩.

الباطن سبق فسادُه فساد الظاهر، فاعتبار أن فساد الظاهر لا يُفسد الباطن ليس إلا نوعًا من الخداع، فإنكار هذا التأثير هو تكذيب لأمر الله الحكيم، وسننه في الكون.
﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ [سورة الجمعة: ٥].

المبحث الثالث: أهمية الفروع الجزئية المندرجة تحت الضوابط الكلية

الشبهة الثالثة: وهناك شبهة ثالثة تتبَّث بذيلها النقاد، وهي أن الفروع الجزئية للنواهي الشرعية ليست مما يعبأ به؛ بل يكفي الامتثال جملة، وهذا يتحقق بالعمل بفرع من فروعها، فإذا كان النهي عن التشبه بالكفار مبدأ له فروع كثيرة، فبعملنا بفرع من فروعه امتثلنا لأمر الله، فإن خالفنا الكفار في مسألة غير معينة من مسائل التشبه أدينا حق التكليف، وبرئت ذمتنا، فلا حاجة إلى تكليف الأمة اجتناب كل فرع من فروع التشبه بالكفار؟.

الجواب: والذي أود أن أقوله بكل جلاء وصراحة: إن هذه الشبهة أولا لا تقوم على أساس علمي أو مقدمات قوية، ثم هذه لا تأتي بنتيجة واضحة وفكرة علمية يجب دحضها؛ فإن الدين كله إن كان واجبًا وضروريا عند هؤلاء النقاد (وهو واجب عندهم كما يبدو من ترديد لفظ الإسلام على صفحات تهذيب الأخلاق) فلا معنى لاعتبار جزء من أجزاء الدين غير ضروري، وإذا كان جزء من الدين غير ضروري عندهم، فما معنى كون الدين ضروريا؟.

وهذا كإنسان سيئ الفهم يصف الجسد الإنساني وصفا دقيقا، ويعترف بأنه صنعة حكيمة مدهشة، ثم يعتبر بعض الأعضاء كالظفر والأشعار غير مناسب

ومتسق، فإن كان هو صادقاً في وصف بعض الأعضاء بعدم الاتساق والتسوية، فهو كاذب في مدح الجسد الإنساني، و إن كاذبا في الثانية، فهوصادق في الأولى.

فإن كان هؤلاء المتنورون ذهبوا إلى الإيمان بأن الدين حكيم، ووصفوا بعض أجزائه تافهًا غير ضروري، فلا بد أن يكونوا في أحد هذين الوصفين كاذبين، وإذا تناقضت مقدمات الشبهة ما قامت لها حقيقة، فلم يعد لنا حاجة إلى العناية بالرد عليها.

وإن سلمنا أن هذه الشبهة لها قيمة وأهمية، فالسؤال الذي يتجه إليهم أن الادعاء بعدم الحاجة إلى ترك التشبه ومخالفة الكفار هو أمر عقائدي أم أمر عملي، وإن قلتم: نعتبره غير ضروري عملاً، ويكفي للمخالفة أن تقام ميزة فرعية تميز المسلم عن الكافر، كأن يلبس المسلم البنطلون والجينز وغيرها من ملابس الكفار والنصارى، ويلبس قلنسوة إسلامية، فنقول: هل تستطيعون أن تلبسوا ملابس النساء، ثم تلبسوا قلانس الرجال للتميز، وتشاركوا بهذه الهيئة النادرة في مجالس أهل العلم والثقافة بدون مبالاة؟ هل تستطيعون أن تفعلوا هذا، وإن فعلتم هذا مما يخالف عرف الاجتماع، فنتحمل ما يخالف عرف الشرع، ولكن إذا استحييتم من المخلوق في اللباس، فعار عليكم أن لا تستحيوا من الله الخالق القدير، وإن كنتم تلومون من يلبس الملابس النسائية، ويتميز عنهن بشيء من الأشياء، فلماذا تكرهون من يلومكم على تشبهكم بالكفار، وإيجاد ميزة فرعية عنهم؟.

وإن كان كون مخالفة الكفار غير ضروري اعتقادياً، فما هي دلائل هذه العقيدة وما هو التأويل؟ أوَ تكفرون ببعض الدين بدون دليل وحجة وبرهان، فانظروا ماذا تفعلون؟ إنْ هذا إلا افتراء على الله ورسوله، وتكذيب صريح لبعض الدين الإسلامي.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [سورة الزمر: ٣٢].

وليس هذا تكذيبًا لبعض الدين؛ بل هو تكذيب للدين كله وهدم أساسه، ونسخ كل الدين برأيه، فإنكم إذا اعتبرتم مخالفة الكفار بترك التشبه غير ضروري؛ بل تجب المخالفة عندكم في فرع من الفروع ، فمعنى هذا أنه تجوز موافقتهم في جميع الدين غير هذه الأمور الجزئية، وإذا جازت موافقة الكفار جازت مخالفة الأنبياء –عليهم السلام–، فإن موافقة الكفار هي مخالفة الأنبياء، فلولا هذه لاتحدت أهداف الأنبياء والكفار، واتحد الإسلام والكفر، وشتَّان ما بينهما.

فتأملوا كيف يبقى الدين مع هذه الادعاءات والمزاعم؟ وإن بقي كيف يكون ضروريا؟.

فإن الدين منه مأمور بها، وهي التحلي بسنن الأنبياء، وهي تحلية، ومنه منهي عنها، وهي الحذر من طرق الكفار، وهي التخلية، وإذا كان هؤلاء الحمقى لا يرون التشبه بالأنبياء واجبًا ولا ترك التشبه بالكفار ضرورياً، فهم لا يرون كلاً من التحلية بالفضائل والتخلية عن الرذائل ضروريًا، فلا ريب في أن الدين كله عندهم غير ضروري، فليسألوا هؤلاء القادةَ الإسلاميين (Islamic Reformers) عن ضرورة الدين الذي ضرورتُه وعدم ضرورته سواء، ومحرماته كالمباحات في العمل، وليس فيه حلال ولا حرام، وليس فيه كبيرة من الكبائر يجب تركها، ولا فريضة من الفرائض يجب إتيانها، فأي حاجة دعت إلى نزول هذا الدين متحدياً ومنازلاً بقوله: هل من مبارز؟ وهل جاز التحدي في أمور تافهة يستوي العمل بها وتركها؟.

ثم عليهم أن يبينوا ما هو الإسلام الذي اشتهر في كل الدنيا بشموله، واعترف العدو بكماله؟ إن كان ذلك الإسلام هو هذا، الذي صوَّرتْه مجلة تهذيب الأخلاق تصويراً أفاد عدم ضرورته، فيدهشنا أن يكون دين الله العظيم غير ضروري كهذا. ويبلغ في نقصه هذا المدى؛ حتى لا يكون فيه ما يجب تركه ولا ما تجب المواظبة والمصابرة عليه.

وإن كان ذلك الإسلام غير الذي صوَّرته مجلة تهذيب الأخلاق، ولم يجده من بعد صاحب المجلة، فعليه أن يبحث عن ذلك الإسلام الصحيح الأصيل قبل أن يخدع الناس بعقائده الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وكيف لم يتنبه أدعياء العقل والشعور هؤلاء إلى أن إطلاق كلمة "لا بأس" و"لا حرج" على كل شيء محرم في الدين يدعو عامة المسلمين إلى مواقعة المعاصي واستمرائها، والتهاون في الفرائض والواجبات، فيكونوا مقطوعي الصلة عن الإسلام، ليس فيهم شعائر الإسلام ولا خصائصه، وقد أصبحوا في هذه الأيام، فتغيم المجتمع الإسلامي بسُحُب الشعائر الكافرة.

ثم يجب أن يُسْألوا: أي طريق اختاروه لأمتهم أم هدوا أمتهم إلى طريق السفاهة والضلالة، لتُسَدَّ دونهم أبواب الهدى والخير، و تتفاقم وجوه الشر و اتباع الهوى، وينطلق كل إنسان من عقال الشريعة في جميع الممارسات، وتُصَنَّفَ كل معصية ضمن لا بأس، ولا حرج، وتتحول الدنيا إلى جهنم المعاصي.

انظروا ،كم هو أدعى للبكاء والانتحاب؛ حيث سعي علماؤنا الأعلام لاجتناب المشتبهات بل لاجتناب كثير من المباحات إبقاءً على حدود الله وأصول

الـدين ودعـوا الأمـة إلى هـذا؛ حتـى ينتقـل الـدين إلى الأجيـال اللاحقـة في شـكله الصحيح؛ ولكن هؤلاء الأشقياء جاءوا ليستأصـلوا هـذه المبـادئ الإسـلامية الهامـة ليخسروا بضاعة السلف، ويضلوا سواء السبيل: "فضلوا وأضلوا".

وعلى كل؛ فإن اعتقد هؤلاء النقاد عـدم ضرورة مخالفـة الكفـار بـلا تأويـل وبرهان، فلم يقولوا بعدم ضرورة مخالفة الكفار فقط؛ بل قالوا بعدم ضرورة موافقـة الأنبياء، وهي جريمة وخيمة العاقبة، فليتدبروا.

ولكن إن اعتقدوا ذلك بتأويل، وقد يمكن تقريره أن مخالفة الكفار وموافقـة الأنبياء طلبتا منا عن طريق الأمر والنهي، فمثلاً قـال الله تعـالي: أطيعـوا الرسـول، وقال الرسول: لا تتشبهوا بالكفار، فكل مـنهما فعـل، وهـو مطلـق، وقـد تقـرر في الأصول أن العمل بموجب المطلق يؤدَّى بالعمـل بفـرع مـن فروعـه، فـإن وافقنـا الأنبيـاء في بعـض الأمـور وخالفنـاهم في البـاقي، أو خالفنـا الكفـار في الـبعض ووافقناهم في الباقي امتثلنا لأمر الله ورسوله، ولا حاجة إلى الموافقة الكالية للأنبياء ولا إلى المخالفة الكلية للمشركين.

فهذا تأويل غريب يكشف عن مدى ما في قلـوب النقـاد مـن زيـغ وضـلال وغي وسفاهة، وهذا بدوره دليل على أن هؤلاء لم يفهموا حقيقة المطلق، ولا أسـاليبه المتنوعة، وادعوا بلا علم أن اتباع الأنبياء – وهو مأمور به– ومخالفة الكفـار – وهـو منهي عنه– مطلق لا عموم له، وفرعوا عليه أنه إذا ثبت اتبـاع الأنبيـاء في ناحيـة مـن النواحي، ومخالفة الكفار في جانب من الجوانب تـــمَّ الامتثال، وبرئت ذمة المكلـف، ولكن ما يشعرهم أن هناك قواعد فقهية أخرى، تُنَافس المطلق، فتغلبه، فتخرجه مـن الإطلاق إلى العموم، فيكون عاماً.

فإن المطلق أو النكرة إذا وقعا تحت النفي يعمان، يكتنفهما الاستغراق مكان الإطلاق، فإن كان يحتاج امطلق إلى العمل بفرع من فروعه فهو في حال العموم والاستغراق يحتاج إلى العمل بجميع أفراده، والعمل بالبعض لا يؤدي الحقيقة.

فإن قيل لأحد: وافِق واحداً من المسلمين، فكلمة "واحدًا" نكرة، وهي على إطلاقها. فإن وافق أحدًا من المسلمين عمل بموجب الأمر ، وليس من الضروري موافقة المسلمين أجمعين، ولكن إذا دخله النهي، وقيل: لا توافق أحدا من الكفار، فأصبحت كلمة "أحدًا" عامة، فيجب قطع الموافقة عن الجميع.

فإن قطع صلته عن جميع أفراد الكفار فقد أدى موجب النهي، وإن بقي له صلة بأحد من الكفار يُعَدُّ مفرِّطاً ومقصِّرًا.

وهكذا إذا نهى الله تعالى المؤمنين عن موافقة الكفار والتشبه بهم في آيات عدة، منها مايلي:

١- ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ [سورة المائدة : ٧٧].

٢- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

٣- ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [سورة الأعراف: ١٤٢].

٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ [سورة الأحزاب: ٦٩].

٥- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦].

أو نهى عن ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في أقواله التالية:

١- " ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصاري"(١).

وقد أدى ذلك في صورة الأمر فقال –عليه السلام–: "خالفوا أهل البوادي"(٢).

"خالفوا الأعراب"(٣).

"خالفوا الأعاجم"(٤).

وإذا جاء إطلاق مخالفة الكفار في حيز النفي عمَّ واقتضى الاستغراق، فلا يتم العمل بمخالفة الكفار وترك التشبه إلا بعد أن يتم قطع الصلة كلياً عن كل شيء ذي سمة كافرة.

فالقول بأن الأمر بمخالفة الكفار مطلق يؤدّى مقتضاه بإتيان فرع من فروعه جهل مُطْبِقٌ، وعِيٌّ مُضْحِكٌ.

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم ٢٦٩٥.

(٢) لم أجده، وقد ورد في أهل البوادي أحاديث مختلفة، بعضها يمدحهم على سذاجتهم وبعدهم عن الفتن، كما جاء في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للعلامة الهيثمي: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " «ستكون فتن غلاظ شداد، خير الناسِ فيها مسلمو أهلِ البوادي الذين لا يتندون من دماء الناس ولا أموالهم شيئا، (رقم ١٢٣٤٠، وبعض الأحاديث يصفهم بالجفاء وغلظة القلوب، كما جاء في **كنز العمال**: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والجفاء وغلظ القلوب في الفدادين من أهل الوبر"رقم ٣٠٨٥٩، وأهل الوبر هم أهل البوادي.

(٣) لم أجده .

(٤) لم أجده .

وإن قيل: إن الأمر بمخالفة الكفار كان مطلقا، ودخل في حيز النفي فعاد عامًا، أما الأمر باتباع الأنبياء والرسل فهو باق على إطلاقه، وليس فيه ما يجعله عامًا، فأنى الإدعاء بعمومه واستغراقه؟.

ولماذا كلفت الأمة باتباع الأنبياء في كل أمر من أمور الدين والدنيا؟. وهذا سؤال معقول، ولا ريب في أن المبدأ المذكور لا يفيد عمومه؛ بل يفيد إطلاقه؛ ولكن وردت في نفس الشأن نصوص أخرى ألغت الإطلاق، وأدت إلى العموم، قال القرآن: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [سورة الحشر: ٧]. وقال في موضع: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: ٣]. وجاءت فيها "كلمة ما" التي من شأنها إفادة العموم، فعمت كل جزئي وكل صادر عن الأنبياء، فبطل الإطلاق وحلَّ العموم، فوجب العمل بكل أمر ونهي، وعبَّر القرآن عن هذا في الآية الأخرى، فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [سورة الجاثية: ١٨].

فجاء الأمر باتباع الشريعة، وإنْ هي إلا مجموعة الأحكام التي جاء بها الإسلام منطوية على أصوله وفروعه، فاتباع الشريعة يعني اتباع كل الأحكام الإسلامية، ولا يمكن عكسه، وهذا الأسلوب أدل على إفادة العموم والشمول وأقضى على الإطلاق.

وإذا كان كل من الأمر باتباع الأنبياء ومخالفة الكفار لا يحمل في طيه من وجوه الإطلاق ما يفيد هؤلاء النقاد في قلة الاهتمام بالشريعة والتهاون في أحكامها؛ بل يشتمل على ما يعم جميع أجزاء الشريعة.

فتكونت لكل من فروع موافقة الأنبياء ومخالفة الكفار مجموعة، ولا تتحقق

مجموعة إلا بوجود جميع أجزائها، فإن ألغي بعض أجزائها واكتُفي بالباقي نقصت المجموعة وزال وجودها.

فلا تبقى مجموعة إلا إذا حُفظ كل فرع من فروعها، صغيرا أو كبيرا، وهذا كالغادة الحسناء، لا يتم جمالها إلا بجمال جميع الأجزاء واتساقها، فالقامة الجميلة تتكون من بياض البشرة وسواد الشعر وحَوْرِ العيون (عظمها) والقصر المعتدل لليدين والرجلين وحسن الهندام وروعة المشية وجذابية الكلام وبلاغة الأسلوب وما إليها من الأمور الأخرى، فلن تكون القامة جميلة ببياض البشرة مهما صغرت العيون، ولايتم جمال الفم وبلاغة الكلام مهما قبحت الأصوات.

وإذا نظرت في الجمال المعنوي تجد أن العالِـــم الموسوعي يطلق على من له إلمام تام بالعلوم العالية كالتفسير وأصوله والحديث وأصوله والفقه وأصوله ودراية تامة بالعلوم الآلية كالنحو والصرف والبلاغة والاشتقاق، واطلاع واسع على العلوم العقلية ومصطلحاتها.

فإن كان عالـــم يعرف الحديث، ولا يعرف الفقه أو يعرف القرآن علومه وتفسيره، ولايعرف الحديث علومه وأصوله، فلا يُعد هو وأمثاله عالماً كبيرًا موسوعيًا، ومن المفارقات العجيبة أن المرأة الحسناء تعدم حسنها بما في بعض أعضائها من عيب وشين، والعالم لا يُعَدُّ كبيرًا إذا أعوزه الاطلاع على بعض العلم؛ ولكن الصورة الجميلة لشريعة الله تعالى لا يلحقها عيب وشين بعد كل عمليات القطع والزيادة هذه، والتي جرت في مبادئها وأصولها دون فروعها فقط.

المثير للعجب أن هؤلاء المتنورين شوهوا صورة الإسلام وسيرته، متسترين

برداء التاويل، وغيَّرُوه بالتشبه بالكفار، ووضعوا له قوالب جديدة ليس له بها سابق عهد، ثم بقي له ذلك الاسم الجميل التاريخي "الإسلام" الذي لُقِّب به في القرون الأولى، ومع هذا كله يحرص هؤلاء على أن يُدْعَوا "مسلمين" متقشفين أصحاب التقاليد القديمة، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين: ١٤].

فالمجموعة – أية مجموعة كانت– إذا طُلب وجودها فلا بد من توافر جميع أجزائها، وإذا طلبت المجموعة وأريد بعضها فالطلب لغو وعبث.

فطالِب المجموعة لا يتحقق غرضه إلا بتوافر جميع الأعضاء، ولا يكون المأمور ممتثلاً إلا بعد أداء الجميع.

هب أني دعوت مهندسًا ليبني لي بيتاً، فبنى الجدار أو المحراب وظنه بيتاً كاملاً، فهل هو أدى الحق وامتثل الأمر؟ كلا؛ فإن البيت مجموعة تشتمل على الجدار والسقف والعمود والنوافذ والأبواب، وليست الجدران أو المحراب هي البيت كله، فلا توجد المجموعة إلا إذا وُجدت الأفراد، ولا يكتمل بناء البيت إلا ببناء جميع جوانبه.

وعلى هذا القياس إذا طلب الله رب العالمين من عباده مجموعة الأحكام الشرعية، سواء تتعلق بالعين أو الفعل أو الخلق أو الوصف، فلا يجوز لهم أن يعملوا ببعض المجموعة، ويتركو باقيها، ويعتبرونها "لا بأس" بها.

فإن فعلوا فهم كالذي بنى بعض البيت، واعتبره كاملاً، ولن يكونوا ممتثلين لأمر الله سبحانه.

مثال العين: ومن أمثلة الأعيان ما قال الله تعالى في القرآن: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٦].

والوجه عين يشتمل على مجموعة الجبهة والعين والأنف والأذن والخد

والذقن، فالوجه ليس الجبهة وحدها، ولا الخد وحده، فإن غسلنا الجبهة أو الخد وحدها ما غسلنا الوجه، ولا يجوز أن نقول: الأمر بغسل الوجه مطلق، يؤدّى العملُ بموجبه بغسل بعض أجزائه.

ومن أمثلة الأفعال هي الصلاة التي أمر الله بإقامتها فقال: ﴿**وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ [سورة البقرة: ٤٣].

فالصلاة أيضا مجموعة الأركان المعلومة ،كالقيام والركوع والسجود والقعود والقومة والجلسة، فالركوع وحده أو السجود وحده أو القيام وحده ليس الصلاةَ كلها، فإن كان رجل ركع وسلّم أو قام وسلم، أو قطع الصلاة بعد ركعة واحدة فهو لم يصل قطعًا، فإن الصلاة ليست إلا مجموعة الأركان، والمجموعة لم تتحقق، ولا يمكن أن يقال: الصلاة اكتملت بأداء بعض الأركان لكون الأمر بالصلاة مطلقًا.

ومن أمثلة الأخلاق ما إذا أمرتَ أحدًا قائلاً: أكرِمْ هذا الرجل.

فالإكرام (وهو من الخلق الحسن) مجموعة، تتكون من معنيين رئيسين: الأول: العمل بما يَسُرُّه، الثاني: الانتهاء عما يسخطه، فإن كان المأمور يعمل بما يسره كتقديم الهدايا والأقوال المعسولة الحلوة؛ لكنه في نفس الوقت يأتي بما يسخطه ويسوءه كقوارص الكلم والضرب والشتم، فلا يكون المأمور مكرِمًا للرجل، ومؤدياً ما عليه من واجب الإكرام، فإنَّ تقديم الهدايا مع ما ألحقه به من ضرب وسب ليس إكرامًا، فإن المعنيينلم يجتمعا، فلم تتحقق المجموعة، ولم يثبت الإكرام.

ومن أمثلة الصفة ما قاله رسول الله – صلى الله عليه وسلم– "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"[1].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم ٦٠١٨.

وإكرام الضيف وصف حسن، ومن حقيقته أن يُنْزَلَ الضيفُ بالمكان نزول رغد وهناءة، ويُطْعَمُ ويُسْقَى حتى شبع بكل حفاوة واحترام ، وليس معناه هو إطعام الضيف لقيمات لا تسمن ولا تغني من جوع، فإن فعل أحد ذلك لم يمتثل للأمر الشرعي، فهو عامل بالبعض، وتارك للآخر، فلم تقم المجموعة.

المبحث الرابع: مبدأ مخالفة الكفار مجموعة أحكام شرعية

وكالتي قلتها سابقًا فإن ترك التشبه بالكفار ومخالفتهم مبدأ شرعي يشتمل على الأوامر والنواهي، وهو أيضا مجموعة الأعمال كالتشبه اللباسي والتجملي والتعبدي والتعودي والاجتماعي والسياسي، فهو يشتمل على المخالفة الظاهرة والباطنة.

فمخالفهتم في أمر من الأمور ليست هي المخالفة الكلية المطلوبة، فإن خالفناهم في شيء ووافقناهم في الأشياء الأخرى معتبرين إياها "لا بأس بها" فقد أضعنا حكم المخالفة، وبقيت ذمتنا مثقلة.

فإن المخالفة مجموعة، لا تتأتى إلا بأداء الجميع، فكما قلنا في الأمثلة السابقة إن غسل الأنف وحده ليس غسل الوجه، ولا السجدة هي الصلاة كلها، ولا تقديم الهدية مع الإيذاء هو الإكرام، ولا إطعام الضيف لقيمات هو إكرامه المطلوب؛ بل الأمر يُؤدّى بالعمل بالجميع.

يجب أن نقول كذلك هنا: إن موافقة الأنبياء ومخالفة الكفار أو ترك التشبه بهم مجموعة من الأحكام، لا بد لتحقيقها من العمل بجميع أفرادها ما لم تخصها الشريعة الإسلامية، والمجموعة إذا طُلبت طُلب كل أفرادِها.

فالنقاد المتنورون تعلَّلوا باعتبار هذه الأمور مطلقة، حيث إذا تم العمل بجزء

من أجزائه كفى، وتوصلتُ عن علم وبصيرة إلى أنها عامة، إذا فات العمل بأحد أجزائه فقد فات الامتثال، فشتان ما بين مشرق ومغرب.

وهذا على تقدير أنا جعلناها عامة، ولم نعتبرها مطلقة؛ ولكن إذا فرضناها مطلقة كالنقاد المتنورين، فإن الإطلاق هو الآخر لا يفيد المخالفين، ولا يثبت ما أرادوه من أن العمل بواحد من الفروع والجزئيات يُبرِئ الذمة، فإن الأمر باتباع الأنبياء ومخالفة الكفار ليس مطلقًا هذا الإطلاق الذي يتم العمل به من خلال إتيان فرع من فروعه؛ بل هو مطلق تطلب الشريعة الفرد الكامل منه.

والظاهر أن الفرد الكامل هو الذي استوعب كماً وكيفًا معظم الشريعة الإسلامية، وإلا فإن الغرض من قول الله تعالى: "اتبعوا" إن كان هو اتباع أمر من الأمور، والغرض من مخالفة الكفار هي المخالفة الجزئية، صار الطلب لغوا؛ فإن الخطاب موجَّه للذين آمنوا، وهم متمتعون قبل هذا الأمر بنوع من اتباع الأنبياء عقيدة وعملا أو عقيدة فحسب، وباقون على نوع من مخالفة الكفار أيضا في العقيدة والعمل أو العقيدة وحدها.

فإن المؤمن إذا فقد اتباع الأنبياء كليًا، ولم يخالف الكفار في شيء لن يكون مؤمناً، ثم هذه الموافقة والمخالفة الطبيعية لا تختص بالمؤمنين؛ بل رأيي أن بعض الكفار قد يكون فيه شيء من أعمال الأنبياء كما يكون فيه النفور عن شيء من أعمال الشيطان.

فالتزام جزء من اتباع الأنبياء أو مخالفة الكفار هو أمر طبيعي يشترك فيه المؤمن والكافر، فإرادة هذا الجزء الطبيعي من الأوامر الصريحة هي عملية لاغية، فعاد من الضروري أن يراد بها من القدر ما هو فوق الجزء الطبيعي، وهذا القدر الغالب هو الذي نسميه بالفرد الكامل.

فالفرد الكامل لاتباع الأنبياء أن يبلغ المؤمن من الاتباع في معظم حالاته إلى أن يُنادَى في العُرف بأنه متبع الأنبياء وكاره المذاهب الأرضية الأخرى، والفرد الكامل لمخالفة الكفار أن يتميز من الكفار في صورته وسيرته بحيث يُدْعَى مخالفَ الكفار، وهذا القدر المميز (الذي وصفناه بالفرد الكامل) لا يحصل بالعمل بفرع من فروع المطلق وترك سائر الفروع؛ بل يتأتى بالعمل بمعظم الفروع وأكثر الجوانب الظاهرة والباطنة، فإذا طلبت الشريعة هذه الأمور المطلقة فلا بد من أن القصد هو القدر المميز هذا، ولا يمكن بدونه العمل بالمطلق.

فلم يُفِدْهُم لفظ "المطلق" الذي لاذوا به، وأرادوا نشر الهوى والحرية المطلقة باسمه؛ بل ضربهم في الصميم، وهدم ما بنوه من قصر وأساس، وثبت أن المسلم ما لم يترك التشبه بالكفار في معظم الأعمال لن يكون ممتثلاً لأمر الله.

المبحث الخامس: المحمل الصحيح لحديث "من تشبه بقوم فهو منهم" عند السيد أحمد خان، والرد عليه علميًا وعقليًا

وأريد أن أنهي هذا الحديث الطويل بنكتة لطيفة، وهي أن السيد أحمد خان مهما بالغ في الرد على هذا الحديث، وتضعيفه دُفِع إلى البحث عن محمله الصحيح، وهذا يعني الاعتراف بصحته، فهو أراد النفور من الفطرة التي تمثلت في قول الرسول -عليه السلام- "من تشبه بقوم فهو منهم؛ ولكن الفطرة ما تركته يُولي الأدبار، فإنه -بعد السعي الجاد في تضعيف الحديث- تلمَّس للحديث محملاً صحيحاً، حيث يقول:

"الواقع أن هذا الحديث -الذي هو قول من الأقوال عندي؛ فإن كونه حديثاً لم يثبت من بعد- ليس له مورد صحيح غير مورد كثرة الموتى المجهولين؛ فإنه

إذا اجتمع موتى مجهولون، فيهم مسلمون وكفار، فإنَّه يُعَيَّن كل منهم حسب ما بجسده من علامة وشارة تدل على جنسيته وقوميته، ويكفنون على نمط قومهم"(١).

وفي هذه العبارة نكتة لطيفة، وهي أن هذا المحمل القصير لا ينافي مدَّعانا، ويناقض أولُ كلام السيد أحمد آخرَه، فإن هذا المحمل الذي اختاره السيد أحمد خان دل على اعترافه بما قلنا، كما نثبته فيما بعد، فالذي قاله السيد أحمد خان في الرد على هذا الحديث مردود عليه، ومن هنا أيَّد السيد موقفنا تائيدًا لا يرضاه، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، فإنه يعترف بأن الموتى إذا كثروا من ديانات مختلفة فيجب تكفين كل منهم حسب ما بسجده من علامة وشارة.

والسؤال المتجه هنا إلى السيد أن تجهيز الميت وتكفينه الذين تتحدث عنهما أعن طريق إسلامي يتم هو أم عن طريق آخر؟.

وإن كان الطريق غير طريق الإسلام فما رأيكم في أحكام الميت من وقت الاحتضار إلى الدفن من الاستلقاء والتلقين وإغماض العين بعد الموت، والتغسيل وآدابه، وتجهيز السرير وتطييب الأعضاء والتكفين وآدابه وعدد ثياب الكفن والتدفين وآدابه ثم القبر بلحده وشقه وما إليها من الأحكام والآداب الإسلامية، هل هي كلها لغو وعبث؟ والظاهر أن هذا الجحود الظاهري للأحكام الشرعية، الذي يؤدي إلى إنكار الأحاديث وإجماع الأمة لا يجتمع في قلب مع الإيمان والإسلام، فلا يكون مثل هذا الإنسان مكلفاً بالفروع الشرعية.

وإذ قلتم: يجب تكفين المسلم على الطريق الإسلامي، ولا يجوز إحراق الميت

(١) تهذيب الأخلاق: ص ٤١، العدد: ٤، عام ١٢٥٠هـ.

المسلم كالهنادك أو تسليم للحِدْأَة والنسور، أو تقويمه كالنصارى، فإن هذا طبعًا يفيد وجوب بقاء العلامات المذهبية وحرمة التشبه بالغير.

فإن تجهيز الميت المسلم وقت اختلاط الموتى لا يتم إلا ببقاء العلامات القومية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فما كانت النتيجة إلا أن بقاء الميزة القومية واجب في هذه الحالة، وهذا موضع الحمد لله والثناء عليه؛ حيث راح منكر حرمة التشبه بالكفار يكتب ما يرد على زعمه، ويفند رأيه؛ ويقول بوجوب بقاء الميزة لدى اختلاط الموتى، وإذا ثبت وجوب ترك التشبه في هذه الساعة قلنا: لا بد من وجوب ترك التشبه قبل الموت أيضاً، فلا محيص لكم عنه.

فإن السؤال المهم هنا أن العلامة القومية (التي تميز المسلم من الكافر بعد الموت) أ كانت للمعرفة بعد الموت أم للحياة قبل الموت أيضًا؟ إن كان الجواب أن هذه العلامة كالثوب وما إليها إنما وُضعت ليُعرف الميت بعد الموت فهذا خطأ صريح؛ فلا أمة في الدنيا اختارت للموت زِيًّا مخصوصًا، ولايدري أحد متى يفجؤه الأجل؛ حتى يُعد له عدة من العلامة والثياب.

فتعين الوجه الثاني، وهو أنّ المميزات الكائنة بالموتى إنما كانت في حياته دون موته، وهؤلاء الموتى (الذين كفنوا على الطريق الإسلامي بما بهم من ميزة دالة) أرادوا في حياتهم التميز عن الأقوام الكافرين في صورتهم وسيرتهم، وثبتوا على ترك التشبه حتى يُعرفوا بعد الموت أنهم مسلمون ويمتازوا عن الغير وقت الاختلاط والزحام.

فكلام السيد أفاد وجوب ترك التشبه لا بعد الموت فقط؛ بل في كل ساعة من الحياة.

وهذه هي الدعوى الأساس، التي أردنا إثباتها من خلال هذه السطور المتواضعة، وبالغ السيد خان في الرد عليها، وإن كان قلمه قد خانه في النهاية، وخذله

في ساعة حرجة؛ بل إن سلمنا أنْ عَلِمَ هؤلاء الموتى بالقرائن والآثار أنه يكثر الموت كما يحدث ساعة انتشار الأوبئة الفتاكة؛ حيث يفر المرضون المذعورون من المرضى والموتى، وعلم الناس أن الموت سيحصد الجميع، ويلبس المسلمون من الملابس والعمائم والقلانس ما يدل على كونهم مسلمين، فإن هذا أيضًا يدل على وجوب ترك التشبه ويُثْبِت ضرورته. فإنّ هناك نكتة يجب التنبه لها.

فمثار السؤال هنا أن الموتى لبسوا لباسًا لم ينتفعوا به، فلماذا اختاروا ترك التشبه قبيل الموت؟ أفعلوا ذلك ليُعرفوا بعد الموت أنهم مسلمون، ولا يختلطوا بالموتى الكفار، ولا يُحرموا الأحكامَ الإسلامية، فلا يسعني إذَنْ إلا أن أقول: أن العامل الذي دفعهم إلى ترك التشبه بعد الموت هو نفس الدافع القوي لترك التشبه بالكفار والتزام الشعائر الدينية قبل الموت؛ فإن من تشبه في حياته بالأغيار، واختار له هيئة اليهود والنصارى حُرِم كثيرًا من الأحكام الإسلامية والبركات الدينية قبل الموت.

فإن كان حرمان من البركات الإسلامية خسراناً عظيماً بعد الموت، فهو قبل الموت خسران أعظم، فإن الحياة قبل الموت ما هي إلا صورة الحياة بعد الموت، وتصميمُها الذي يقوم عليه بنيان الحياة الآخرة، فإن كانت الحياة الأولى إسلامية كانت الحياة الأخرى أيضًا إسلامية، وإن امتاز المسلم في هذه الدار عن غيره من الأمم والأقوام فهو سيمتاز عنهم في حياته الأخروية في حشره ونشره والمصير الدائم، فقد جاء في الحديث: "تموتون كما تعيشون وتحشرون كما تموتون"[1].

(١) إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء، **روح البيان**، (بيروت: دار الفكر، د.ط. د.ت)، ج٤، ص١٢١.

ومن بلغ من كراهية التشبه بالأمم الأخرى إلى أن أعد له عدةَ تركِ التشبه بعد الموت كيف يرضى بالتشبه بالكفار في حياته؟ أوليس الشيئ المشكوك فيه ماءً كان أو طعاماً لا يُعبأ به عرفاً وشرعاً؟.

والمثير للانتباه أن سبيل المؤمنين هو ترك التشبه حتى بعد الموت لئلا يُحرم إجراءَ الأحكام الشرعية، وسبيل السيد أحمد تورِّط المسلمين في التشبه في حياته، وتصنفه ضمن "لا بأس به" "ولا حرج"؛ حتى يُجرى عليه ما يُجرى على الكفار.

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝١٧٦﴾ [سورة البقرة: ١٧٥-١٧٦].

وعلى كل؛ فإن السيد أحمد مهما اتخذ للحديث محملاً، موت الزحام كان أو حياة الزحام يَدُل على وجوب ترك التشبه، وإذا اعترف بأن للحديث معنىً مقبولاً فلن يخرج أبدا من نطاقه، وقد ثبتت ضرورة الاعتراف بصحة الحديث، فلا جرم يثبت له وجوب ترك التشبه بالكفار ولو كره المنكرون.

فالأبحاث العجيبة التي أثارها السيد أحمد ضد حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" كانت في البداية تَرُدُّ على الحديث رداً ضعيفاً، ثم راحت تثبت ضرورته، وهي عين ما قلت وادعيت، فالكلام الذي يتناقض أوله وآخره مردود على صاحبه.

فقد تجلى بما سبق أن حديث "من تشبه بقوم فهو منهم" قانون عقلي وشرعي ونقلي وعرفي، لا تضره الإجراءات الصبيانية من المبطلين، واتضح أن اعتراضات المنكرين ليست إلا مكراً وخداعًا قد شُقَّ رداءه، وظهرت صحة الحديث ظهورا لم يبق في سنده انقطاع ولا في روايته ضعف، ولا اتهام بجهالة المورد، ولا معارض له في

الحديث، ولا مخالف له في أعمال النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه. وليس في دلالته ما يُفضي إلى الكفر، ولا هي قضية فرعية تؤدِّي بالعمل بفرع من الفروع؛ بل هو مبدأ شامل عام واضح الدلالة، لازم التأثير، غير معارض للمبادئ الأخرى، لا يؤثِّر فيه فرض فارض ولا إنكار منكر؛ بل هو حقيقة راسخة ثابتة من كلام الله رب العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

فنحن مضطرون إلى أن نقول: إن المصلح المزعوم السيد أحمد خان مهما بالغ في الرد على الحديث وتسويد صفحات "مجلة تهذيب الأخلاق" لايحمل كلامه من الأهمية أكثر من الأوهام البعيدة والتخيلات المرفوضة بجانب الحقائق العلمية والأبحاث الرائعة التي دَبَّجَها يراع السلف الصالح.

وإن كان السيد أحمد كتب في الرد على الحديث قولاً قويًا لأتينا بقولٍ أقوى منه؛ ولكن ليس في جعبته سهم، فأكتفي بهذه السطور القليلة، وما قدمته في الفصول التالية يكشف عن زيف ادعاء السيد وضلاله.

وهنا لا أتمالك من الحيرة والاستعجاب على أن السيد أحمد خان توسّع في مذهبه المصطنع توسعًا؛ حتى لا يغضب منه رجل من اليهود والنصارى؛ ولكن علماء الإسلام الربانيين ضيقوا إطار التشبه؛ حتى أغضبوا المبتدعين فضلاً عن الكفار، فإن موقفهم في ذلك ما قال الإمام حجة الإسلام محمد الغزالي: "وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعاراً لأهل البدعة خوفاً من التشبه بهم".[1]

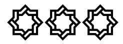
(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط. د.ت)، ج٢، ص٢٧٢.

فإن أبصارهم البعيدة المدى نظرت في أن السنة هي السنة؛ ولكن الحفاظ على الحدود الشرعية فرض، فأفتوا بترك السنة التي عادت شعار المبتدعين، وانحازوا إلى ما يميزهم عن المبتدعين والكفار، ويقضي على هذا المرض الفاتك: داء التشبه بالكفار.

وهذه الرواية كشفت عن مدى احتياط السلف الصالح؛ حتى تجنبوا التشبه بالمبتدعين بجانب التحرر الفكري لدى الأخلاف مثل السيد أحمد خان، الذي يأبى إلا أن يكون مثل الكفار في المظاهر والأشكال، ولا يتحرج فيه بعض التحرج.

فشتان بين مشرق ومغرب فافهم وقل هل يستوي الأمران

وإن كان السلف حكماء الأمة لم يختاروا هذا الحذر والحيطة فيما يتعلق بالتشبه لضاعت الحدود الإسلامية، وما وصل إلينا الدين في شكله الصحيح، ولو وصل لكان الخلف كفيلاً بضياعه وتحريفه، وآل الإسلام إلى ما آل إليه غيره من الأديان. ولكن الله حافظ دينه وكفيل صيانته؛ ومن فضله أن الدين ما زال غضاً طرياً في شكله الصحيح ، مهما تكاثرت مساعي المبطلين ضده.



الفصل الرابع:

حديث "لا رهبانية في الإسلام" ومعناه ومقتضاه

وفي الفصل السابق كشفت عن زيغ إيرادات المخالفين، وهنا أريد تفنيد ما عارضوا به مبدأ التشبه بالكفار، وجاءوا بدليل يعارض التشبه إشعارًا منهم بأن التشبه بالكفار موضوع باطل يرده الشرع قبل العقل، وحاصل ما قالوه هنا ما يلي:

"إن مبدأ التشبه يؤدي إلى التشدد وضيق العمل، ويضيِّق الإسلام الواسع، ويضيِّق معيشة الناس بوضع الحدود والقيود على كل شيء، فتلغو الأوضاع الاجتماعية الجديدة، ولا يجوز الاستمتاع بموقف طيب لذيذ عند الغير، وهذه القيود تعرقل رقي الأمة المسلمة، فلا يبقى في الإسلام إلا عدد قليل كالرهبان، يعيشون في الإطارالضيق، مع أن الإسلام فوق الضيق والحرج، وهوالذي دعا إلى اليسر والسهولة وجنَّب الإنسانية ضِيْقَ الرهبانية؛ حيث نادى:

"لا رهبانية في الإسلام"[1].

ولكن علماء الإسلام سلكوا مسلك الرهبانية المنفرة، وهَدَوا الإنسانية إلى الضيق والظلمة مكان اليسر والسعة وبُعد النظر؛ حتى ابتعد هؤلاء عن كثير من

(١) محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، (دمشق: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)ج٢، ص٣٧١.

المسلمين فضلاً عن الأغيار، وعاد الإسلام لعبة جماعةٍ صغيرةٍ".

إن المخالفين يعتبرون حديث "لا رهبانية في الإسلام" أقوى دليل وأمضى سلاح لهم، معتبرين هذا الحديث معارضا لمبدأ التشبه بالكفار، وبه يستدلون على كل مسألة من مسائل التشبه، التي فصَّلها العلماء في كتبهم.

ولكن يأخذني العجب من أن عشاق الحديث هؤلاء الذين اعتبروا العلماء ضيِّقي الخيال بهذا الحديث، كيف يتركون تلك الآيات والروايات الحديثية التي تثبت مبدأ التشبه بالكفار، والتي ذكرتُها مفصلةً في الفصول السابقة. فإن دلائل مبدأ التشبه ليست من اختراعات العلماء؛ بل هي مجموعة أحاديث نبوية نُقِلتْ إلينا بسند صحيح، فالإيراد على مبدأ التشبه لا يُوجَّه إلى العلماء؛ بل إلى الأحاديث؛ بل صاحبها الرسول العظيم محمد الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم-.

ثم إذا كان مبدأ التشبه وماله من آثار وروايات يوافق العقل والحسنَّ والفطرة كما تمَّ إثباتُه فيما سبق، فلم لا يرد نفس الاعتراض على هؤلاء النقاد؟ وهؤلاء هم دعاة اتِّباع العقل والفطرة، وهذا الاتباع الأعمى هو الذي يُلقيْ في روعهم هذه الوسائس والأوهام.

فاعتراض ضيق النظر إن عاد إلى الدين أو إلى عالم من علماء الإسلام أو إلى العقل والطبع فيعود إلى هؤلاء النقاد أيضًا، فلماذا نتولى نحن الإجابة عن هذا الإيراد دونهم؟.

الواقع أنه لا بد لكل إنسان أن يتقيد في مجاله، ولا يتكلم إلا فيه؛ فمبدأ التشبه بالكفار ليس مسألة سياسية ولا اقتصادية؛ بل هي مسألة شرعية صريحة، ثبتت من

السياسة النبوية؛ فلا بد من الرجوع إلى العلماء المنقطعين إلى العلوم الشرعية دون النُوَّاب في البرلمان، ومؤسسي الكليات الإنجليزية.

ومن دواعي العجب أنه كيف يدل حديث "لا رهبانية في الإسلام" على خلاف مبدأ التشبه بالكفار؟ مع أنه بلفظه ومدلوله لا يثبت مبدأ التشبه فقط؛ بل يمثل أحد الدلائل القوية على مبدأ التشبه بالكفار، فنشكرهم على أنهم باستدلالهم بهذا الحديث ساعدونا في إثبات مبدأ التشبه بالكفار، ووجهوا عنايتنا إلى دليل مستقل في الموضوع.

والمعلوم لدى الجميع أن الغرض من الحديث المذكور، أن الدين لا يسمح بالتشدد الزائد والغلو المفرط؛ ولكن موضع التفكير في الحديث أنه لم ينه عن الغلو والتشدد بلفظ صريح بأن يقول: لا تغلوا في دينكم؛ بل قال: لا رهبانية في الإسلام، مع أن الجملة الأولى أدل على المقصود، وأوفى بالغرض، وسببه أن الحديث يشير – مع النهي عن التشدد – إلى العلة الحقيقية للتشدد، وما هي إلا التشبه، وذلك لأن الرهبانية منسوبة إلى الرهبان، وهم عباد النصارى، فالرهبانية هي اختيار عمل الرهبان، فكأن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقل: لا تغلو في الدين، ولكن قال: لا تعملوا عمل الرهبان، ولا تذهبوا مذهبهم، ومفاده "لا تشبهوا بالرهبان".

حاصل الحديث أنه لا يجوز التشبه بالرهبان في الإسلام، ومعلوم أن الرهبان هم أقدس طائفة في النصارى، وإذا مُنع التشبه بهم، فالأَوْلى أن يُمنع عن التشبه بعامة النصارى.

فالحديث أفاد أن الإسلام لا يسمح بالتشدد، فإن الغلو والتشدد يجعلان

المسلم كالرهبان، فيتورط في السلاسل والأغلال كالرهبان، والتشبه ممنوع شرعاً وعقلاً فالغلو ممنوع بالدرجة الأولى.

وظهر أن الحديث نهى أولا عن التشدد في الدين، ثم نبه على علة حقيقية للأمر (وهي التشبه) بلفظ صريح، مما كشف أن العلة ليست التشبه بالرهبان فقط؛ بل هي التشبه بالنصارى مطلقاً، وكل ذلك محظور في الإسلام. (ورأيت هذا الجواب في بعض كتابات الشيخ محمد أشرف علي التهانوي رحمه الله).

فلم يثبت بالحديث ما أراده دعاة التحرر وحملة لواء الانطلاق الفكري والعملي، والذي ثبت بالحديث لا يخالف مبدأ التشبه؛ بل يرسي دعائمه.

فالمخالفون لم يستطيعوا نقض دلائل مبدأ التشبه، ولا المعارضة بحديث "لا رهبانية في الإسلام؛ بل ضعُفت دلائلهم ووهَنت أقوالهم، وعاد مبدأ التشبه بالكفار صافيًا لا غبار عليه، لا اعتراض يتجه نحوه، ولا ضعف يعتريه، وهذا شأن حكم شرعي لا يُردُّ ولا يُلغَى؛ بل مخالفوه يلقَون مصيرًا مشؤومًا.



الفصل الخامس:

الإجابة النهائية عن شبهات النقاد والكشف عن البنية الأساسية لمبدأ التشبه

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الحب الإلهي هو العامل الأساس في العمل بالشريعة

وإذا علمت أبحاث الموضوع الشرعية والعقلية فاعلم أن اساس هذا البنيان هو القلب السليم والعاطفة الصادقة التي هي حب وعشق.

وهذه العاطفة الصادقة المحيرة للألباب التي تعمل وتؤثر في الأماكن التي لا تعمل فيها دساتير الدنيا وقوانين العالم والقوى الأخلاقية والعقلية والأطماع الكبيرة والمصائب الشديدة.

وإذا تمكن العشق في قلب تجد العاشق يتدحرج بين الكيفيات التالية:

١- العاشق يفقد جميع بضائعه العقلية كالعواطف والعزائم، ويقدم نفسه نذورًا رخيصة للمحبوب، فلا له إرادة ولا خيار، ويعود عبدًا محضًا بدل أن يكون حرا طليقًا، ويمحو كل ما في قلبه من حب الظهور والعلوِّ.

٢- ثم عاد العاشق تتفانى رغباتُه وعواطفه –التي سلبها منه سلطان العشق– في عواطف ورغبات المعشوق، فهو يستولي على قلبه ودماغه، وتصدُر كل أعمال العاشق بإيعاز من المعشوق، حتى يعود محياه ومماته لذلك المعشوق.

٣- ثم العشق المفرط والحب البالغ نهايته يجعل العاشق لا يحب المعشوق وحسب؛ بل يحب كل ما له صلة بالمحبوب من قول وفعل ودلال وتغنج ومنزل وسكن وطرق وسكك، كما قال الشاعر:

أمـــر على الديار ديار ليلى أقبـــل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

٤- وهذا هو الحب الصادق الذي إذا رسخ وتمكن في قلب العاشق لا يهزه شيء في الدنيا، ولا يصرفه عن طريق العشق، فلا يؤثر فيه نصح ناصح ولا تنفعه لومة لائم؛ بل يزيده حباً وعشقا، ويجعله يرتد أكثر هيامًا بالمحبوب.

هيام العاشق وتفانيه في مرضاة المحبوب وتفويض نفسه له والاستغناء عما سواه هي قصة مطَّردة للحب الفاني الدنيوي، الذي لا دوام له ولا ثبات، ولا بقاء ولا قرار.

حياة المحبوب رهينة أيام، والمحب محتوم الأجل العاجل، والحب سريع الزوال والجمال سريع التقضي، فما ظنكم بمن تعلق قلبه بمحبوب دائم لا يموت ولا يفنى، وله جمال ليس له زوال، لا يفنى عشق العاشق، ودرجات الوصل غير معدودة، أفلا يكون قلبه مورد هذه الكيفيات التي هي شعار الحب الدنيوي القليل؟ بلى؛ بل هنا يكون القلب أقوى وأكثر انفعالاً.

فتدبر أن المؤمن إذا آمن بالله رباً، وبمحمد نبيًا، وبالإسلام دينًا، فلا بد أنه يحب الله ورسوله حباً عميقًا لايشوبه شائبة من الهوى والنوازع النفسانية؛ فإن الإيمان هو عنوان حب لا يسع غيره، وليس الإيمان هو الإقرار اللسان أو القانون المحض؛

وقد جاء في الحديث: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"(1). وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة: 165].

المبحث الثاني: مظاهر الحب الإلهي

المظهر الأول: كسر الذات والأنانية

فأول ما يعرفه قلب المؤمن من كيفيات،وقد تمكن فيه حب الله ورسوله، هو ترك الذات والأنانية، فيعود المؤمن مسلوب الإرادة مدفوع العمل بما يريده الله ورسوله، وهذا ما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[سورة الأحزاب: 36].

وقد وصف الله تعالى في الآية السابقة المطيعين من الرجال والنساء بالإيمان، ثم ذكر أنهم مسلوبوا الإرادة أمام قضاء الله ورسوله، مما أفاد أن الإيمان هو عشق الحق، والعشق لا يترك العاشق حراً، وذكرت الآية أن اتباع الهوى والتمسك بالرأي الشخصي هو العصيان والضلال، وضعف في الإيمان، ونقص في العشق.

المظهر الثاني: التفويض والتسليم

والكيفية الثانية التي يشعر بها ويلتذ بها المؤمن العاشق الحقيقي هي أن تصبح عواطفه وهوايته هي عين مرادات الله تعالى، فلا إرادة له إلا ما يريده الله منه، ولا

---

(1) أخرجه الإمام البخاري في **صحيحه**، رقم 15.

عمل إلا ما يطلبه الله، فيصير الحقُّ شعاره ودثاره، ويعود كل فعل من أفعاله، وكل ترك من تروكه؛ بل محياه ومماته لله وحده، وهذا هو مقام التفويض الذي وُصف باسم "الإسلام"، وإياه طلب الله رب العالمين إلى خليله إبراهيم قائلاً: " أَسْلِمْ "[سورة البقرة: ١٣١]، وعلمه أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وهذا ما كشف عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: " من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان"[١].

وهذا ما سأله رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في دعواته فكان يقول: "اللهم احفظني بِالإِسلامِ قائما، واحفظني بِالإِسلامِ قاعدا، واحفظني بِالإِسلامِ راقدا[٢].

وكان من دعواته: " اللهم إِني ضعيف فقو في رضاك ضعفي، وخذ لي الخير بِناصيتي، واجعلِ الإِسلام منتهى رضائي"[٣].

وهذا هو مقام الإسلام الذي قال فيه الحافظ الشيرازي: "إني غني عن الملوك والفقراء، إن الفقر والغنى من الله، والغرض من المسجد والخانة هو وصالك ولا أعتقد غير ذلك، فالله شاهد".

(١) أخرجه الإمام أبوداؤد في سننه، رقم ٤٦٨١.

(٢) أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م)، ج١، ص٧٠٦، رقم ١٩٢٤.

(٣) المصدر السابق، رقم ١٩٣١.

والحاصل أن قصر الحب له عمودان: الأول ترك ما سوى المحبوب حتى نفسه. والثاني: الاستغراق في الحب؛ حتى يرى في كل شيء منظر الحب وآثاره، دون الغير.

المظهر الثالث: الرغبة عما سوى المحبوب

ومما يغرس الحب في قلب العاشق هو الزهد فيما سوى المعشوق، فيتلاشى من قلبه كل ما لا يمت إلى المحبوب بصلة، فعاد القلب ينكر كل شيء مقطوع الصلة عن المحبوب الحقيقي، فلا يتمكن في القلب المؤمن شيء هو غير الحق كالشخصيات المبطلة وشعارات الباطل وخصائصه وصوره وسيره وكل ما له صلة بغير الحق، وعلى هذا الزهد فيما سوى المحبوب تقوم أوامر ونواهي المحبوب الحقيقي: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة هود: ١١٣].

والشيطان وذريته هم أظلم الأعداء، ورأس الأغيار حيث قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [سورة الكهف: ٥٠].

وفي هذا روى العلامة ابن حجر الهيثمي في كتابه: "الزواجر عن اقتراف الكبائر" عن الإمام مالك بن دينار قولاً هو من وحي بعض الأنبياء: "أوحى الله إلى نبي من الأنبياء أن قل لقومك لا يدخلوا مداخل أعدائي: ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي، ولا يطعموا مطاعم أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي"[1].

والجملة الأخيرة من هذا الوحي: "فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي" تمثل

(١) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ج١، ص٢٣.

عين ما جاء في القرآن: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٠]. أو ما جاء في موالاة الكفار: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة المائدة: ٥١].

أو ما جاء في الحديث: من تشبه بقوم فهو منهم"(١).

المظهر الرابع: الحب الجامح المتناهي

ثم يتطور هذا الحب وآثاره ويأخذ من العاشق كل مأخذ؛ حتى يعود لا يحب المحبوب وحسب؛ بل يحب أوصافه وأحواله وأفعاله؛ حتى كل ماله صلة بالمحبوب، فحب الله الحق إذا تمكن في قلب المؤمن ويترسخ فيه عاد يحب كل شيء يتصل بالحق كالشخصيات الربانية والأعمال الربانية والعلوم الربانية والشعائر الربانية والأوضاع الربانية.

وقد أبدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم- هذا بقوله: " اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذي يبلغني حبك اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد "(٢).

فالإيمان مثلاً ذريعة الوصول إلى الحق. فدعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "اللهم حبب إلينا الإيمان وزيِّنْه في قلوبنا"(٣) .

أو الموت مثلاً ذريعة الوصول إلى الحق: فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم-: "اللهم حبِّب الموت إلى من يعلم أنِّي رسولك"(٤).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في **سننه**، رقم ٣٤٩٠.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، رقم ١٥٤٩٢ .

(٤) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، **المعجم الكبير**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط٢، د.ت) رقم ٣٤٥٧.

ومبدأ التشبه ناشئ عن الكيفيتين للحب (الأخذ والترك) فالحب يدعو إلى التشبه بالصلحاء، والترك يدعو إلى ترك التشبه بالكفار، فكلما زادت مدارج الحب الإلهي، زاد حب ما له صلة بالمحبوب الحقيقي من الأقوال والأفعال والمتعقد والأوضاع، وكلما زادت عاطفة الترك زاد الابتعاد عن الأغيار وأوضاعهم.

فالأغيار مهما حاولوا في تزيين أعمالهم وتنميق أفكارهم وأقوالهم لا يقع في حبالهم المؤمن العاشق، سواء كان الأغيار هم النفس أو شياطين الإنس، وسواء سلكوا مسلك النصح أم مسلك اللوم والتأنيب، أجل، إذا كان العاشق ناقصًا في حبه، وكاذباً في دعواه فيجوز أن تغلبه أوضاع الأغيار ومناهجهم.

وعلى كل؛ فقد أردتُ بذكر كلتا الكيفيتين للحب الحقيقي أن التشبه بالصلحاء وترك التشبه بالكفار شيء طبيعي مغروس في قلب كل مؤمن صادق، ليس فيه تصنع ولا تكلف.

فلا ينبغي لمؤمن بعد الإيمان أن يتبع هواه، ويختار ما تسوِّل له النفس أو ما يفرضه الغير من العادة والعبادة والأوضاع ثم يعتبر إيمانه سليمًا طاهرًا.

فإن الزهد في ما عند الغير وترك التشبه به في جميع الأمور هي الخطوة الأولى للعشق، وإذا زلت قدمه في الخطوة الأولى فهيهات أن يخطو خطوة أخرى أو يبلغ الغاية.

ومن هنا ندعو تلامذة الإنجليز في الهند، المولَعين بكل منهج غربي إلى الإنصاف والتأمل، أفيملكون من الأعذار والبراهين ما يبرر عملياتهم؟ أم هم عمي، طريقهم طريق من أخذ بأيديهم؟ وعليهم إذا كانوا يحملون في قلوبهم حب المنهج الغربي بدل الأسوة الإسلامية أن يتنازلوا عن دعوى الإيمان ما لم يغيروا أحوالهم

ويجددوا إيمانهم، فلا يجتمع في قلب واحد حب الحق وإهانته: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [سورة الأحزاب: ٤].

وإن كانوا لا يحبون النهج الغربي؛ وإنما وقعوا فريسته بشكل اضطراري، لا يتحكم فيه الاستحسان ولا الاستهجان، فهذا اتباع الهوى، وليس هو من شأن المؤمنين الذين ديدنهم هو الرضا والتسليم.

وإن اتبعوا الغير تحت ضغطة اجتماعية أو سياسية فهذا يعني أن حب الله ورسوله لم يتمكن في قلوبهم، فإن العاشق الصادق لا يقدر على ترك طريق المحبوب خوفاً من لؤمة لائم أو نصح ناصح؛ فإن هذه سنة أبي طالب الذي علم حقيقة الإسلام، ولم يقبله خوفاً من العار واللوم؛ حتى إذا دعاه الرسول –عليه السلام– إلى الإسلام وهو في الاحتضار ،كان جوابه أن قال:

أَظْهَرْتَ دِيْنًا قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِيْنًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ وَحَذَارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدتَّنِيْ سَمْحًا بِذَاكَ مُبِيْناً

وهل من قائل يقول: إن أبا طالب كان عاشقًا صادقًا أو مؤمنًا كاملاً؟ كلا.

إن سنة العشاق الصادقين أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، ويرفضون كل نوع من الضغوط، وقد سقطت لقمة من يد الحذيفة بن اليمان –رضي الله عنه– فرفعها ونظّفها وأكلها، فقال له أحد: لا تفعل هذا؛ فإن المجوس يعيبونه، فاستخف به وقال: أ أترك سنة حبيبي لهؤلاء الحمقى".

فترك الحق خوفًا من المسبة والملامة هو نهج أبي طالب، والتمسك بالحق مع كل العراقيل، هي سنة الحذيفة بن اليمان، والأسوة هي أسوة الحذيفة دون أبي طالب.

وإن تشبهوا – هؤلاء النقاد- بالنصارى لكونهم – النصاري- أمة حاكمة وقوية، فعليم إدراك أن لا قوة فوق قوة النبوة، ولا حكومة مثل حكومة النبوة، فإنها حكومة إلهية سماوية تعنو لها – إذا ظهرت- وجوه الحكومات الأرضية.

فإن هذه الحكومة السماوية إذا نشأت في الأرض قبل أربعة عشر قرنا، وبكل سذاجه وتقشف، وبكل بعد عن المظاهر والأشكال، فغيرت بإشارتها الخفيفة مجرى التاريخ، وفندت شوكة الحكومات الأرضية، وفنَّدت العرش الزبرجدي الفارسي والحكومة العالية القيصرية، وأخضعت كل حكومة واجهتها بعَدد وعُدد وشوكة وقوة.

فهل بعد هذا كله ينبغي لعاشق النبوة المحمدية أن يخضع لأمة وحكومة أرضية؟ كلا، فإن هذا ركون إلى الغير، وقانون العشق الأول يقضي على عاطفة الركون إلى الغير فضلا عن اتباعه.

وإن صدروا في اتباع النصارى عن أنهم أوجدوا كثيرًا من التسهيلات والمنافع والمرافق التي جمعت بين الإراحة والإمتاع، فليعلموا أنه ليس من الضروري أن كل شيء جميل نافع هو مباح في الشريعة، ففي الخمر والميسر أيضًا منافع، أقرَّها القرآن؛ بل لا شيء في الدنيا إلا وفيه نفع وضرر، لا نفع خالص ولا ضرر خالص؛ ومع هذا حرم الله الخمر والميسر، وذلك لغلبة المضار الروحية.

فكون الشيء نافعًا لايدل على إباحته، أما جمال الأشياء فهو شيء لا يهتم به العاشق، وأين الجمال والموضة من العاشق الصادق؟ فإن العاشق من شأنه أن يحترق دون أن يتجمل.

وإن كان العاشق يرغب في الجمال، ففي جمال المحبوب دون جمال الغير.

فكل هذه الأعذار الباردة تذهب أدراج الرياح، إن كان في القلب إيمان وإسلام وعشق وتسليم.

الواقع أن الدنيا قد أحاطت بها الفتن والمحن فانحرفت القلوب وتنكرت للإيمان ومقتضياته، وسُلِبَ كثير من الناس التوفيق للسير على سبيل المؤمنين.

وما هذه الأعذار والظنون إلا ستار على سوء التوفيق؛ وإلا فإن الحب إذا شق طريقه إلى القلوب، هتك خدور الأعذار، وقضى على الهادي إلى الضلال، وحل محل القائد الناصح، يدعو إلى الخير، ويهدي إلى الفضائل.

نعم؛ إذا أُصيبت القلوب بالقسوة والغفلة وتعودت ترك العمل والتهاون في كل شيء تلمَّست ألوفاً من الحيل والأعذار كما قال الشاعر الأردي:

إذا القلب لايرغب، فله ألوف من الحيل والأعذار.

اللهم إنا نعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة.

كتبه

محمد طيب القاسمي

رئيس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

الكتاب كما يراه الأعلام

الشيخ حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي:

بعد الحمد والصلاة، فقد شرُفت بدراسة هذا الكتاب حرفاً حرفاً، وقد زادني كل حرف من الكتاب سروراً في القلب، ونوراً في العين، وما رأيت في موضوع التشبه في الإسلام كتاباً جامعاً وشاملاً للأبحاث القريبة والبعيدة مثله.

وقد بلغ ذهن المؤلف اللطائف العلمية الدقيقة التي قد لا يتطرق إليها الأذهان ولا يقتحمها الأفكار، وأبرز ميزة الكتاب أنه استأصل شأو جميع الشبهات الواردة على المسألة.

أدعوا الله تعالى أن يجعل الكتاب نافعاً ومقبولاً، ويُدخل الكتاب من الكلم الطيب الذي قال فيه سبحانه: إليه يصعد الكلم الطيب، ويُدرج المؤلف فيما قال سبحانه: وهُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد.

آمين

أشرف علي

منتصف جمادى الأخرى ١٣٤٨هـ

زيادة عليه:

وقد كتبت الكلمة المذكورة أعلاه بالنظر إلى الكتاب وعناوينه، ثم رأيت مقدمة الكتاب وخاتمته فأزيد قائلاً: المقدمة إذا كتبت بمداد العقل فالخاتمة محبّرة بمداد الحب والعشق، فالكتاب يجمع بين نفحة العلم وشذى العشق، أعيد الدعاء السابق.

محمد أشرف علي

غرة شعبان ١٣٤٨هـ

الشيخ حبيب الرحمان العثماني رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند:

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد: فإن موضوع "التشبه بالكفار" من المواضيع الإسلامية المهمة التي يقوم عليها كثير من المسائل الأصولية والفروعية، فإنكار هذه المسألة أو اعتبارها قضية فرعية أو ثانوية يؤدي طبعاً إلى رفض كثير من الأحكام الإسلامية.

والشاهد على ذلك أن الذين يريدون التحرر من قيود الإسلام يتورطون أولاً في التشبه بالكفار، ويحاولون جهده إلغاء كل ماله صلة بالإسلام والشعائر الإسلامية.

فالمسألة مهمة كما ترى، ومع ذلك فإنك لن تجد كتاباً يحيط بالمسألة من كل الجوانب، ويقضي على ما يختلج في قلوب "المشككين" من شبهات وردود.

وأحمد الله تعالى على أنه وفق الشاب الصالح العالم القدير، العامل الملتزم المقرئ محمد طيب القاسمي ابن الشيخ محمد أحمد القاسمي ابن الإمام العبقري حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي مؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند لأداء هذه الفريضة، وامتن على كافة الأمة الإسلامية بتأليف هذا الكتاب القيم.

وقد قُرئ عليَّ معظمُ هذا الكتاب، فوجدته كتاباً يتحلى بسلاسة الأسلوب وسهولة الفهم وجمال الحيدة والإنصاف وزينة البحث والتحقيق، وما رأيت كتاباً مثله يتناول المسألة بهذا الإشباع والإقناع.

فجزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأدعو الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب يحظى بشعبية وقبول، ويزيد مؤلفه علماً وعملاً وصحة.

آمين يا رب العالمين

حبيب الرحمان

٢٥/ جمادى الثانية ١٣٤٨هـ

الشيخ حسين أحمد المدني شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند:

قد نظرت في الكتاب في مواضيع عديدة، ووجدته كتاباً حافلاً معدوم المثيل في الموضوع؛ بل هو ينبوع صاف يتفجر بالمعاني واللطائف واتباع السلف الصالح والأسوة الحسنة.

جزى الله مؤلفه خيراً في الدارين، وجعل الكتاب وسيلة الهداية للمسلمين وصدقة جارية للمؤلف.

آمين

حسين أحمد غفرله

٢٩/ جمادى الثانية ١٣٤٨هـ

قائمة المصادر والمراجع

❖ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ). **مسند أحمد**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

❖ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ). **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.(بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١ – ١٩٩٠).

❖ ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ). **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**. تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل. (بيروت: دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م).

❖ ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت).

❖ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). **المدخل إلى السنن الكبرى**. تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي. (الكويت: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، د.ط. د.ت.).

❖ الإمام أحمد بن حنبل. **فضائل الصحابة**. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢).

❖ أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ). **السنة**. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ص١٤٠٠).

❖ أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى : ٧٩٥هـ). **ذيل طبقات الحنابلة**. تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.(الرياض: مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م).

❖ أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذي (المتوفى: ٢٧٩هـ). **سنن الترمذي**. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م).

❖ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهراني الأصبهاني. **المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم**. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

❖ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع. (المتوفى: ٤٠٥هـ). **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م).

❖ أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي. **سنن النسائي**. تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة. (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٩٨٦م-١٤٠٦هـ).

❖ أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي. (المتوفى: ٣١٠هـ). **الكنى والأسماء**. تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. (بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م).

❖ أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ). **مصنف عبد الرزاق**. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. (الهند: المجلس العلمي، ط٢، ١٤٠٣هـ).

❖ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني. (المتوفى: ٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد(بيروت: المكتبة العصرية، صيدا).

❖ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ). **جامع بيان العلم وفضله**. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. (السعودية: دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٤-١٤١٤هـ).

❖ إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (المتوفى: ١١٢٧هـ). **روح البيان**. (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).

❖ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ). **الطبقات الكبرى**، تحقيق: **محمد عبد**

القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

❖ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). **والبداية والنهاية**، (بيروت: **دار إحياء التراث العربي**، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

❖ أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: ٤٧٤هـ). **المنتقى شرح الموطإ**. (مصر: مطبعة السعادة، ط١، ١٣٣٢هـ).

❖ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ). **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**. تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. (السعودية: دار طيبة، ط٨، ١٣٢٣هـ-٢٠٠٣م).

❖ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). **السنن الكبرى**.تحقيق: محمد عبد القادر عطا(بيروت: دار الكتب العلمية، ط٣، ١٣٢٤هـ-٢٠٠٣م).

❖ أحمد بن عبد الله بن أبي الخير بن عبد العليم الخزرجي الأنصاري الساعدي اليمني، صفي الدين (المتوفى: بعد ٩٢٣هـ). **خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (وعليه إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة للعلامة الحافظ البارع علي بن صلاح الدين الكوكباني الصنعاني**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. (حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٥، ١٤١٦هـ).

❖ أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس. (المتوفى: ٩٧٤هـ). **الزواجر عن اقتراف الكبائر**. (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

❖ أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري. **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة**. (النسخة الشاملة).

❖ أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي. (المتوفى: ١٣١٠هـ)،**حسن السير**. دون طبع.

❖ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير. (المتوفى: ٦٣٠هـ). **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، د.ت).

❖ أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى. (المتوفى: ٢٠٤هـ. **مسند أبي داود الطيالسي**. (مصر: دار هجر، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م).

❖ ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ). **سنن ابن ماجه**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ط. د.ت).

❖ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي. (المتوفى: ٤٥٨هـ). **الأسماء والصفات**. تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي. (السعودية: مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

❖ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ).

❖ البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله. **صحيح البخاري**. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. (بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ).

❖ البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي. (المتوفى: ٥١٦هـ). **شرح السنة**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

❖ البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. (المتوفى: ٦٨٥هـ). **أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي**. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ).

❖ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي. (المتوفى: ٤٥٨هـ). **شعب الإيمان**. تحقيق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م).

❖ الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي التميمي السمرقندي. (المتوفى: ٢٥٥هـ). **مسند الدارمي المعروف**

بسنن الدارمي. تحقيق: نبيل هاشم الغمري. (بيروت: دار البشائر، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

❖ الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري. (المتوفى: ٦٠٦هـ). **مفاتيح الغيب المعروف بتفسير الرازي**. (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٤٢٠هـ).

❖ الزيات، أحمد حسن. **تاريخ الأدب العربي**. (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ط. د.ت).

❖ زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري. (المتوفى: ١٠٣١هـ). **التيسير بشرح الجامع الصغير**. (الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

❖ سعدي الشيرازي. **بوستان**. (الهند: دار الكتاب ديوبند، ط٥، د.ت).

❖ السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي. (المتوفى: ٢٧٥هـ). **سنن أبي داود**. تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي.(بيروت: دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

❖ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني. (المتوفى: ٣٦٠هـ). **المعجم الكبير**. (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط٢، د.ت).

❖ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني. (المتوفى: ٣٦٠هـ). **المعجم الأوسط**. (القاهرة: دار الحرمين، د.ط. د.ت).

❖ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني. (المتوفى: ٩٥٤هـ). **مواهب الجليل لشرح مختصر الخليل**. تحقيق: زكريا عميرات. (بيروت: دار عالم الكتب، د.ط، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م).

❖ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي. (المتوفى: ٩٠٢هـ). **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**. تحقيق: محمد عثمان الخشت. (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م).

❖ الشافعي الإمام، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي. (المتوفى: ٢٠٤هـ). **مسند الإمام الشافعي**. (بيروت: دار الكتب العلمية،د.ط، ١٤٠٠هـ).

❖ الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (المتوفى: ٣٢هـ). **شرح مشكل الآثار**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م).

❖ عبد الله بن محمد الغنيمان. **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**. (المدينة المنورة:مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٥ هـ).

❖ علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي. (المتوفى: ٩٧٥هـ). **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**. تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

❖ عياض بن نامي السلمي. **أصول الفقه الذي لا يسع الفقيهَ جهلُه**. (النسخة الشاملة).

❖ العسقلاني، الامام الحافظ شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر المتوفي سنة ٥٢٨ هـ. **تهذيب التهذيب**.(بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م).

❖ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**.تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.(بيروت: المكتب الإسلامي، د.ط.د.ت.).

❖ عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي. **المنتخب من مسند عبد بن حميد**. (القاهرة: مكتبة السنة، ط١، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ).

❖ علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري. (المتوفى: ١٠١٤هـ). **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**. (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

❖ الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (المتوفى: ٥٠٥هـ). **إحياء**

علوم الدين. (بيروت: دار المعرفة، د.ط. د.ت).

❖ لجنة علماء برئاسة نظام الدين البلخي. **الفتاوى الهندية**. (بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣١٠هـ).

❖ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي. (المتوفى:٣٥٤هـ). **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط. د.ت.).

❖ محمد بن فتوح الحميدي. **الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم**. (بيروت: دار ابن حزم، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

❖ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى. (المتوفى: ٨١٧هـ). **القاموس المحيط**. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

❖ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي. **صحيح ابن حبان**. (بيروت: مؤسسة الرسالة،ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

❖ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني. **"سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة"**. (الرياض: دار المعارف، ط١، ١٣١٢هـ).

❖ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي. (المتوفى: ٣٥٤هـ). **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي.(المتوفى:٧٣٩ هـ).

(بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

❖ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ. **زاد المعاد في هدي خير العباد**. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

❖ محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي. (المتوفى: ٥١٦هـ). **شرح السنة**. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش. (دمشق: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

❖ النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. (المتوفى: ٢٦١هـ). **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. (بيروت: دار إحياء التراث العربي. د. ط. د. ت).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي. (المتوفى: ٣٠٣هـ). **السنن الكبرى**. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م) رقم الحديث: ٩٦٣٣.

❖ الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. (المتوفى: ٨٠٧هـ). **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**. تحقيق: حسام الدين القدسي.(القاهرة: مكتبة القدسي. د. ط. ١٤١٤هـ-١٩٩٤م).



محتويات الكتاب

الباب الأول:

مبدأ التشبه بالكفار: تأصيل عقلي وشرعي

